رحلة العلم
من الإلحاد إلى الإيمان

الحلو، محمد عادل.
رحلة العلم من الإلحاد إلى الإيمان: محمد عادل الحلو.- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية،2017 .
344 ص؛ 21 سم.
تدمـك: 8 - 112 - 795 - 977 - 978
1- العلم والدين
أ- العنوان. 205
رقم الإيداع: 2101 /2017

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202+
فاكـس: 23909618 202+ – ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع ثان 1438 هـ - يناير 2017م
الطبعة الثانية: جماد أول 1438 هـ - فبراير 2017م

رحلة العلم
من الإلحاد إلى الإيمان

(قصة الاكتشافات العلمية التي دفعت علماء أوروبا في البداية إلى الإلحاد
ثم كشفت عن كامل تفاصيل قصة الخلق من العدم Big Bang
وصححت نظرية داروين
ثم أثبتت وجود خالق لهذا الكون)

محمد عادل الحلو

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

أهـدي هذا الكتاب إلى شـركائي فيـه الذين أعانونـي على إتمامه، فهـذا العمـل لم يكـن ليتم ويـرى النـور دون معاونة وتشـجيع وصبر زوجتي السيدة نهى المرسي وأبنائي إسماعيل، وأمينة، ونور..

ولـم يكـن ليظهر في صورتـه النهائية دون معاونـة وتنقيح صديقي المهندس محمد محسـن الـذي بذل الكثير من المجهود لمسـاعدتي في إعداد ونشر هذا الكتاب..

أهـدي هذا الكتاب أيضًا إلى روح أبـي وروح أمي، وكذلك أهديه إلـى أخـي المهندس أحمـد الحلو وأختي السـيدة منى الحلـو رفيقيّ رحلة الحياة..

أهديـه إلـى أقربائـي المهنـدس محمـد عبداللـه والأسـتاذ محمد المسيري والأستاذ أحمد رزق رفقاء الطفولة..

أهديه إلى عائلتي الأكبر، وإلى أصدقائي..

أهديه إلى كل إنسان يفكر ويبحث عن الحقيقة..

مقدمة

لم يكن الهدف في البداية كتابة هذا الكتاب.

لم أكن أتوقع أبدًا – عندما بدأت رحلتي البحثية – تكريس أكثر من عشر سنوات من حياتي متفرغًا لدراسة العلوم المختصة بالبحث في حقيقة الوجود ومستوياته المختلفة: دراسة نظرية البج بانج ونشأة الكون من العدم (علم الكون)، دراسة قصة تطور الكون إنشاءً للذرة (علم الكوانتم وفيزياء ما تحت الذرة)، دراسة قصة إنشاء الذرات للنجوم والكواكب (علم فيزياء الفضاء)، دراسة قصة إنشاء أنواع الذرة للمواد المختلفة (علم الكيمياء)، دراسة قصة إنشاء المواد للحياة على هيئة خلية (الكيمياء الحيوية)، دراسة قصة تطور الخلية أبسط أشكال الحياة إنشاءً للكائنات الحية المتقدمة انتهاءً بالإنسان (علم الأحياء والتطور).

لم أكن أتوقع أبدًا أن تقودني دراستي لهذه العلوم إلى دراسة ديانات العالم الست الكبرى – التاوية والهندوسية والبوذية واليهودية والمسيحية والإسلام– جميعًا من زاوية علمية في محاولة لفهم أوجه التشابه والاختلاف بين ما تدعيه كل منها على حدة (فيما يخص حقيقة الوجود) وبين الحقائق العلمية الثابتة من جانب آخر، فكل دين ما هو في حقيقته المجردة إلا مقترح عن حقيقة الكون وحقيقة الوجود: من أين جاء؟ لماذا؟ ما هي نهايته؟ وما هي نهايتنا معه؟

العلوم في حقيقتها المجردة هي أداة تبيّن الحق في آفاق الكون وفي أنفسنا، والحقائق العلمية الثابتة هي وسيلة كل إنسان للتحقق من أي مقترح ديني (أو فلسفي) عن حقيقة الوجود.

لم أكن أتوقع كل ذلك البحث والدراسة، فكل ما أردته بدا لي في البداية وكأنه مغامرة علمية شيّقة سريعة من أجل فهم هذا الوجود بطريقة مستقلة لا تعتمد على ما وجدت عليه آبائي ومجتمعي، استكشافًا للحق بصورة علمية محايدة.

أردت أن أجيب لنفسي عن أسئلة بدت لي كأولوية أولى في حياتي: من أين جاء هذا الكون؟ كيف نشأ؟ كيف نشأت المادة؟ كيف نشأت الحياة من المادة؟ كيف نشأ الإنسان؟ ما الذي يقوله العلم في هذا الصدد؟ هل يمكن التحقق علميًّا بصورة قاطعة من وجود الخالق؟ لماذا هذا الاختلاف بين الديانات؟ ما حقيقة هذا الاختلاف؟ هل يمكن أن تتفق الديانات حول حقيقة واحدة؟ ما هذه الحقيقة؟ هل هناك سبيل للوصول إليها بطريقة علمية سليمة محايدة؟

محاولة الفهم هذه كلّفتني سنين طويلة جدًّا! ذلك أنني لم أدرك في البداية أن محاولة الفهم هذه ليست عملية دراسية محدودة يمكن أن تتم في فترة محددة مثلما يحدث عندما تقرر الحصول على درجة الدكتوراه مثلًا. لم أدرك في البداية أني أبحرت طلبًا لعلم ليس له نهاية، وهكذا استمر بي الحال أكثر من عشرة أعوام (خلال الفترة ما بين عامي 2002 و2006 ثم الفترة ما بين عامي 2010 و2016) قضيت جزءًا كبيرًا منها ما بين جامعة جينيف في سويسرا وجامعة بروكسل في بلجيكا وجامعة سانت إتيان في فرنسا.

سعيي في طلب العلم كان مثمرًا بطريقة لم أكن لأتخيلها قبل أن أبدأ. ذلك أني وجدت أجوبةً علمية حقيقية لأغلب الأسئلة التي طرحتها في البداية: مفاجآت كبرى لم أكن أتوقع أن تكون موجودة في أروقة العلم على المستوى الأكاديمي المتخصص!

الأجوبة موجودة فعلًا على المستوى الأكاديمي، إلا أنها موجودة بطريقة مجَزَأة متخصصة تعبِّر عن طبيعة عصرنا القائم على استخدام العلم كوسيلة اكتشاف من أجل تقدم التكنولوجيا ومستوى المعيشة وليس كأداة لفهم الوجود ومعناه!

العلوم المختلفة (والديانات أيضًا) تفصل بينها حدود شبيهة بالحدود السياسية التي تفصل بين الدول! قد يبدو الأمر بسيطًا أو ثانويًّا للبعض إلا أنه عكس ذلك، فهذه الحدود التي تجَزئ العلوم هي سبب عجز العالم عن فهم حقيقة الوجود في صورتها الأشمل وبالتالي سبب جميع مشكلاته: سبب فقدانه البصيرة، سبب مشكلاته الروحانية، سبب توهان الفرد والعالم في أنماط مادية استهلاكية، سبب تمكن الإلحاد من الإنسان في أماكن كثيرة حول العالم، بل أيضًا سبب النزاع بين الديانات والحضارات والبشر بصفة عامة! فكما تقول حكمة صينية قديمة: كل اختلاف ما هو إلا دليل على غياب الرؤية الواضحة!

الحدود بين العلوم – كما أنشأها وصنَّفها الإنسان – حدود وهمية مصطَنعة لا وجود لها في الطبيعة أو في الكون، فالحياة نشأت من تفاعل وتكامل أنواع من المادة؛ أي إن علم الأحياء ما هو إلا شكل متقدم من علم الكيمياء وامتداد له! أنواع المادة نشأت بدورها قبل ذلك من تفاعل وتكامل أنواع الذرات؛ أي إن علم الكيمياء ما هو بدوره إلا شكل متقدم من علم الفيزياء وامتداد له!

وهكـذا، فالذرة لم تكن نقطة البداية كما سـيتضح عندما نكتشـف المفاجآت والاكتشـافات العلمية الأخيرة الكبرى التي استوجبت إنشاء علم جديد (علم الكوانتم).

كل شيء متصل من البداية إلى النهاية! العلوم التي وضعها الإنسان ما هي – على اختلافها – إلا محاولات تدوين لمستويات مختلفة من حقيقة كونية واحدة متَّصِلة لا يمكن تجزئتها، وإلا فقدنا كل رؤية واضحة للوجود!

محاولات دراسـة ظاهرة تطـور الحياة مثلًا (ظاهرة خلـق الكائنات الحية على أطوار) في مَعزِل عن بقية العلوم – اعتمادًا على مقارنة سـطحية للتشـابه التشريحي بين الكائنات – أخذت العالم البريطاني تشارلز داروين في الماضي في اتجاهات مضلّلة جدًّا، مسـتوجبة بذلك تصحيح النظرية الداروينية مرتين في القرن العشرين على أيدي الداروينيين أنفسهم كما سنرى.

محاولة داروين أو أي إنسـان آخر دراسـة نشـأة الكائنات الحية مثلًا – في معزل عن بقية العلوم – يمكن أن تشبه بمحاولة شخص اكتشاف سبب وجود دور رابـع مبنيّ في الهواء دون أن يعي أن هناك أدوارًا ثلاثة تحتية تحمله! هذا الإنسان لن يجد أمامه إلا الصدفة كإجابة محتملة أو مقنعة. هذا الشخص لابد أن يخطـئ في الإجابة تمامًا كما حدث مـع داروين وأدى فيما أدى إلى إلحاد من اتبع فكره ونظريته.

الإلحـاد العلمـي مـازال بالطبـع هـو الاتجـاه الغالب فـي الـدول الغربية وبالتالي حول العالم، وذلك رغم التصحيح العلمي الأخير للنظريات العلمية ذات التداعيـات الإلحادية كما سـنرى. السـبب فـي ذلك هو العامـل الزمني الذي يفصل دائمًا ما بين الاكتشـافات العلمية من جانب وتداعياتها الروحانية (الإيمانية أو الإلحادية) من جانب آخر.

تفوق نظرية داروين الإلحادية مثلًا علميًّا في منتصف القرن التاسـع عشـر لم يؤد آنذاك إلى إلحاد النسـبة الأعظم من شعوب دول أوروبا الشمالية (كما هو الحال الآن) بصورة فورية، بل أدى إلى تأسيس الإلحاد آنذاك اتجاه تطلب حوالي مائة عام قبل أن تصل شـعوب شـمال أوروبا إلـى ماهي عليه الآن من ثقافة علمية وقناعة فكرية.

الفـارق الوحيد اليـوم هو أن إيقاع التغير في عصرنا أسـرع كثيـرًا مما كان عليه خلال ذلك العصر السابق، وذلك طبعًا بفضل التقدم المذهل في وسائل التواصل على جميع المستويات المحلية والعالمية.

الحقائـق العلميـة الثابتـة في مطلع القرن الحادي والعشـرين تبشّـر بعصر جديد من الروحانيات: عصر «الروحانيات العلمية» (عبارة مستخدمة بالفعل فـي الغرب للإشـارة إلى تلاقـي الاكتشـافات العلمية الأحدث مـع المفاهيم الروحانيـة). ذلـك أن تكامل الحقائـق العلمية الثابتة حديثًـا – وتواصلها بعد تخطـي الحـدود الوهمية التي كانت تفصـل في الماضي بيـن العلوم – يقلب النظريات الإلحادية رأسًـا على عقب، كاشـفًا عن حقائق مبهرة إبهارًا شـديدًا كما سنرى.

النادر جدًّا من الناس حول العالم – بما في ذلك المؤمنون بديانة أو أخرى أو الملحدون – هم من تتاح لهم فرصة تخطي هذه الحدود الوهمية التي تفصل بيـن العلوم المختلفة، لتتصل بذلك في رؤوسـهم الحقائق العلمية، وليتحقق لهم بذلك وضوح الرؤية العلمية المكملة لعقيدتهم. النظام العالمي الحديث نظام يلهي الناس إلهاءً شـديدًا، نظام لا ينشـئهم على ثقافة طلب العلم بصورة حرة وشاملة كي تستنير عقولهم، وتسعد أنفسهم، وتتناغم حضاراتهم.

المدهش هو أن هذا الوضع لا يختلف كثيرًا على مستوى العلماء أنفسهم، فالنـادر منهم من يتخطـى الحدود التي تفصل بين «علمـه» والعلوم الأخرى!

ذلـك أن طبيعة التنافس الشـديد الـذي نحياه في عصرنا الحديـث يحتم على الأغلبيـة العظمى من العلماء التخصص المبالغ فيه، ذلك كي يصبح كل عالم منهم الأفضل في مجال ما. ظاهرة لم تكن موجودة في العصور الأسبق، عالم الأندلس ابن رشد مثلًا كان كيميائيًّا وفيلسوفًا وطبيبًا وقاضيًا في آن واحد!

الـدور الـذي قمت به في هـذا الكتاب يشـمل – في المقـام الأول – دور الربـط بين الحقائـق العلمية الثابتة في مختلف العلوم في مطلع القرن الحادي والعشـرين كي تتصل معًا: ويا له من اتصال! ربط الحقائق العلمية المعنية معًا هـو تحديـدًا ما يتيح تخطي الحدود الوهمية التي تفصـل بين العلوم (من علم الكون إلى علم التطور) ليتيح بذلك رؤية الحقيقة العلمية الروحانية الأشمل، وذلـك تمامًـا كما يتيـح تجميع قطع الصـورة المجـزأة رؤيتها بصـورة كاملة واضحة تكشف عن مضمون لم تكن الأجزاء المقطعة لتدل عليه!

وهـو في ذلك أول كتاب يقوم بتمكين القـارئ العربي من تخطي الحدود الوهمية التي تفصل ما بين العلوم (وكذلك ما بين الديانات)، ليكتشف بنفسه مـن خـلال تواصلها الحقيقـة العلمية الروحانية الأشـمل. كتاب يشـمل فيما يشـمل قصـة الخلق كاملة – من العـدم إلى الذرة إلى النجـوم والكواكب إلى الحيـاة إلى الإنسـان – كما ترويها الحقائـق العلمية في مطلـع القرن الحادي والعشـرين، وما تتضمنه هـذه القصة وهذه الحقائق العلميـة من إثبات علمي لوجود خالق لهذا الكون بطريقة تتخطى المفاهيم الدارجة في الحضارات بل والديانات المختلفة.

هذا الكتاب مكتوب للمؤمن – بغض النظر عن ديانته – والملحد معًا! أنا لم أقدم على كتابة هذا الكتاب بغرض نشـره على العالم العربي أو الإسـلامي أو المسـيحي فقـط. الكتـاب كتِـبَ – فـي المقـام الأول – باللغـة الإنجليزية وبهدف ترجمته إلى لغات كثيرة من أجل نشـر هذه الصورة العلمية الأشـمل

على العالم، أملًا في أن يكون خير معين لكل إنسـان (حول العالـم) يتفكر في خلق الكون ويبحث عن حقيقة الوجود – في آفاق الكون وفي نفسـه – بغض النظر عن طبيعة إيمانه أو إلحاده.

الكتـاب يخاطب فيما يخاطـب الملحدين حول العالـم (سـمعنا أن موجة الإلحـاد العالمـي طرقت بالفعـل أبوابنا وأن لهـا صفحات عربيـة معلنة على المواقـع الاجتماعيـة على الإنترنـت)، بل إني أدعو كل ملحد وكل متشـكك لقـراءة هذا الكتـاب قراءة تحليلية دقيقـة، فهذا وهذا فقط ما سـيتيح له فرصة التفكر في المضمون وتقييمه!

الإلحاد ما هو إلا عدم وضوح في الرؤية. الافتراضات والنظريات العلمية التي أسس عليها علماء الغرب إلحادهم – في الفترة ما بين عصر التنوير وعصر الثورة الصناعية (ما بين منتصف القرن السـابع عشـر ومطلع القرن العشرين) – يتم تصحيحها اليوم لتصبح على العكس من ذلك دليلًا على وجود «نظام باطـن» مَنَظِّـم لعملية الخلـق (بدلًا من المعتقـد القديم فـي أن «الصدفة» هي أسـاس للخلق): نظـام باطن (خالق باطـن) أقرب إلى المـادة وإلى الكائنات منها إلى نفسها كما سنرى بالتفصيل.

الكتـاب يخاطب أيضًـا فيما يخاطب المؤمنين حـول العالم وبغض النظر عن معتقداتهم وديانَتهم! بل إن مبدأ الخالق يأخذ منعطفًا علميًّا مذهلًا وعمقًا روحانيًّا رائعًا يفوق المفاهيم الدينية الدارجة المختلفة حول العالم بعد التعرف على الصورة العلمية الشاملة التي ستتضح له بعد تخطي الحدود الوهمية التي تفصـل ما بين العلوم، ليقبل بذلك على آفاق جديـدة من الروحانيات العلمية التي تتخطى نمطية الاختلافات بين الديانات.

الكتـاب يخاطـب فيمـا يخاطـب الشـباب العربي. شـباب القـرن الواحد والعشرين العربي مُطَّلع عالميًّا، مظلوم محليًّا، يصارع دوامات فكرية: نحدثه

عن الخالق والديانات من جانب وندرس له المناهج التعليمية المستوردة من جانب آخر (مناهج تدرس الداروينية المؤسسة للصدفة أساس للخلق – نفيًا لمبدأ الخالق دون تصريح مباشر!). لا عجب أن دارس التاريخ يلاحظ علاقة بين بداية انتشار الإلحاد في بلادنا (بين المسلمين والمسيحيين على حد السواء) من جانب ووصول هذه المناهج التعليمية المستوردة في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين من جانب آخر! لا عجب أن الإلحاد مستمر في الزيادة المضطردة تماشيًا مع الزيادة المضطردة في انتشار المدارس الأجنبية واعتمادنا على المناهج المستوردة (والتي لا غنى عنها في ظل تخلفنا العلمي والتعليمي)! دع جانبًا حملات ترويج الإلحاد علميًّا من خلال الإنترنت (والتي لا غنى عنها أيضًا)!

حقيقي أن المناهج التعليمية المستوردة أصبحت اليوم جزأ لا يتجزأ من واقعنا في ظل تخلفنا العلمي والحضاري، إلا أن شباب القرن الواحد والعشرين (العربي) في حاجة إلى التحرر من «ازدواجية العقيدة» المفروضة عليه! في حاجة إلى إجابات علمية حقيقية تحترم عقلة وثقافته المتقدمة.. إجابات لا يجدها عندنا (إلا فيما ندر) لانشغالنا بالنقل عن الماضي فقط لا غير من جانب أو إنشغالنا بالنقل عن الغرب فقط لا غير من جانب آخر.

هذا الكتاب مواجهة علمية شاملة تجيب للشباب على الأسئلة الدائرة والحائرة في رأسه، بل إني أعد كل شاب يقرأ هذا الكتاب (مؤمن كان أم متشكك أم ملحد) بوضوح تام للرؤية العلمية الروحانية، ليصبح بذلك هذا الكتاب خطوة أولى على سبيل تحقيق الشباب العربي استقلاله الفكري العلمي الروحاني الذي يمكّنه من الاستقلال عن تبعية الغرب من جانب أو تبعية المفاهيم الدارجة من جانب آخر، إنشاءً لحضارة ناضجة بدلًا من النسخ والمسخ الذي هو عليه الآن إلا فيما ندر (النسخ والمسخ الذي دفعناه إليه)!

الإلحاد ليس الخطر الوحيد من تأثر شبابنا وتأثرنا بالمفاهيم العلمية الغربية الإلحادية! المفاهيم العلمية الغربية الإلحادية كما سنرى هي أيضًا أساس الفلسفة المعروفة اليوم باسم «الداروينية المجتمعية» والمؤسسة لنمط حياتنا المعاصرة حول العالم (بما في ذلك عالمنا العربي) – الحياة الاستهلاكية البحتة القائمة على ربط السعادة بالإنفاق في ظل غياب المفاهيم والقيم الروحانية (أساس كل سعادة حقيقية)، هذا وإن جهلنا ذلك! كل من يتبع اتجاه الحياة العصرية دون وعي لتأثير النظريات العلمية على اتجاه الفكر – وبالتالي أسلوب حياته – تابع مُغَيَّب لا يختلف كثيرًا عن البغبغان الذي يردد دون عقل! وسعادة كل منا الشخصية الحقيقية (واستقراره العقلي والنفسي والروحاني) لن تتحقق قبل أن يؤسس لنفسه قاعدة فكرية علمية روحانية مستقلة!

الكتاب يخاطب فيما يخاطب الكبار في بلادنا العربية على مستويين. الأول بالأصالة عن أنفسهم، الثاني بالأصالة عن أبنائهم وبناتهم. الكتاب يخاطب الكبار بالأصالة عن أنفسهم. الإنسان العربي (كل واحد منا) سجين نمط من نمطين مسئولين – معًا – عن تخلفنا وتبعيتنا للحضارة الغربية بل واستعبادنا السياسي والاقتصادي والتكنولوجي من قبل الغرب. بعضنا سجين النمط الأول القائم على هجر العلوم والمعرفة الأحدث تمسكًا بحياة الماضي (مستوى المعرفة الدينية بمعناها المحدود) خوفًا من فتنة العلم الأحدث القادم إلينا من الغرب بما يشمل من مفاهيم أو اتجاهات مناقضة لموروثنا الديني، وهو ما يؤدي إلى تخلفنا العلمي، وبالتالي استعبادنا عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا. وبعضنا سجين النمط الثاني – المناقض للنمط الأول – والقائم على التبعيه المستسلمة للحضارة والحداثة الغربية بما تشمله من مفاهيم مجتمعية وقيم وأسلوب حياة تجعل منه ذلك التابع الأسير لفلسفة الحياة الغربية المعاصرة.

إن نهضة الإنسان العربي السياسية والاقتصادية والتكنولوجية (نهضة وسعادة كل منا شخصيًّا) لن تتحقق قبل تحقيقه النضوج العلمي الروحاني الذي سيمكنه من مواجهة معطيات عصرنا وعالمنا مواجهة ناضجة علميًّا روحانيًّا، دون أن يضل السبيل، دون أن يضل الهدف، دون أن يضل الفعل أو رد الفعل! نهضة أيٍّ منا لن تتحقق دون أن نحقق معًا هذا المستوى من العلم وهذه الحياة الجماعية تماشيًا مع طبيعة عصرنا، بل وتخطيًا له إلى آفاق جديدة من فهم الوجود (الروحانيات العلمية)، بدلًا من التخلف من جانب أو النسخ والمسخ من جانب آخر الذي نحن عليه الآن. هذا هو سبيل الحرية الحقيقية! لا التبعية المُقَنّعة!.. لا نهضة حقيقية لأيٍّ منا أو لمجتمعاتنا قبل ذلك!

الكتاب يخاطب أيضًا الكبار بالأصالة عن أبنائهم وبناتهم. ذلك أنه يقدم للكبار ذلك النوع من المعرفة التي تمكنهم من تربية جيل من الأبناء متناغم الأفكار العلمية الروحانية، ليتأسس لهم بذلك السلام العقلي والنفسي والروحاني، وهو ما نعدّه أساس الحياة السعيدة المتوازنة في هذا العصر الجديد المليء بالعواصف الفكرية القادمة من العالم الخارجي.. الحياة السعيدة المتوازنة التي نعدّها أساس أي تقدم وأي حضارة حقيقية.

الحقائق العلمية المعروضة في هذا الكتاب تخاطب أيضًا القائمين على شئون التعليم في الوطن العربي، بما في ذلك مديري المدارس ورؤساء الجامعات. الإلحاد خطر مستمر.. انتشاره يهدد الأجيال الصاعدة.. خطر تشتد وطأته عامًا بعد عام. حقيقي أن الانفتاح على مناهج التعليم الأجنبية (والإنترنت) لا غنى عنه من أجل تمكين نهضة لن تتم في عالمنا الشرقي دون ذلك خصوصًا أن مناهجنا التعليمية المحلية مازال ينقصها الكثير، إلا أن ذلك يجب أن يصحبه -بل ويسبقه- برامج تعليمية تثقيفية مستحدثة لحمايتهم من المفاهيم الخاطئة.. إجابات علمية ثقافية حديثة شاملة (كما سنرى) توضح

لهـم الحقيقة حتى نُحَصِنَهم خلال رحلتهـم التعليمية (ورحلتهم في الحياة)، وكي لا نلقي بهم إلى التهلكة متوهمين أنها سبيل الحياة العصرية والتقدم!

الثـورة العلميـة الروحانيـة المعروضـة فـي هـذا الكتـاب تخاطـب أيضًا القيـادات السياسـية والإعلامية والثقافية والدينية (مسـلمين ومسـيحيين) في الوطن العربي والمتطلعين إلى تجديد الخطاب الديني بنجاح يواكب العصر، والذي لن يتم دون تجديد وإدراج للخطاب العلمي الأحدث كقاعدة لتجديد الخطـاب الدينـي (لا عجـب أن مبدأ التـزود بالعلم مبدأ ديني أساسـي!)، بل وأملًا لأن يصبح لقاء الاثنين معًا – الخطاب العلمي الديني الحديث – شرارةً وأساسًـا للنهضة الحقيقية التي طال انتظارها في هذا الجانب من العالم (دون أي تأسيس حقيقي حتى الآن)!.. إنها الأمل الوحيد، فلا نهضة ولا تقدم دون استقلال فكري متناغم!

تلاقـي المفاهيـم العلمية مـع الروحانيات هي تحديدًا تلك الشـرارة التي طالما بحثنا عنها كأسـاس لاسـتقلالية ونهضة هذا الجانب من العالم! الأمل الحقيقـي لإطلاق شـرارة ذلك العصر القـادم الذي طالمنا حلمنـا به: العصر التقدمـي القائـم علـى تناغـم الحضـارة العلميـة (حضـارة البحـث والعمـل والإبداع) مع الحضارة الروحانية (حضارة السلام والتأمل والتعبُّد)!

الهـدف الأول مـن هذا الكتاب هو مسـاعدة الإنسـان الباحـث في حقيقة الوجـود (حول العالـم) على بلوغ مرحلة السَـلام النفسـي الروحانـي: النور والسـلام الداخلي الذي قد لا يكتمل إلا بالعلم المحرر للعقل من الظلمات، فالجهل العلمي أنواع من الظلمات، والعلم نور، والنور سعادة روحانية!

والآن وقبل أن نبدأ معًا قراءة هذا الكتاب وهذه الرحلة المدهشـة العجيبة – في عالم الكون والذرة والنجوم والكواكب والحياة والإنسان – دعني أؤكد

لـك (مؤمنًـا بدين ما كنـت أم ملحدًا) أن نظرتك إلى نفسـك وإلـى العالم بل وإلـى الكـون والوجود من حولك لـن تظل على ما كانت عليـه قبل إطلاعك علـى هذا العلـم المتواصل وقبل تخطيك هـذه الحدود الوهميـة التي تفصل ما بين العلوم!

سَقَطت التفاحة وسَقَط نيوتن

القرن العشـرون هو قرن الاكتشـافات العلمية التي قلبت رأسًـا على عقب منطـق الإنسـان التقليـدي المتوارث منـذ فجر التاريـخ. إنه أيضًا قـرن نجاح وتفوق العلم. إلا أن الأمور لم تكن في بداية هذا القرن بهذا النجاح!

في مطلع القرن العشرين اجتاحت أزمة عارمة علم الفيزياء. ثم امتدَّت هذه الأزمة سريعًا من الأوساط العلمية إلى الأوساط الثقافية؛ لتشير إلى أن المنطق التقليدي ذاته – أي المنطق البشـري كما عرفه الإنسـان منذ فجر التاريخ حتى مطلع القرن العشرين – ما هو إلا منطق محدود جدًّا لا يمَكِّن الإنسان من فهم ما يحدث خارج نطاق الكرة الأرضية المحدود هو الآخر.

كان علـم الفيزيـاء – والـذي يعرف أيضًا تحت اسـم علـم الطبيعة – على وشـك الانهيـار؛ ذلـك بعـد أن أدى النجاح المذهـل الذي حققـه العلماء في اختـراع أجهـزة علمية حديثة إلى اكتشـاف حقائق علمية جديـدة بدت وكأنها تعـارض بعضهـا بعضًـا، بل تعـارض المنطـق الإنسـاني برمَّتـه! وعليه بدأت قواعـد علم الطبيعـة كما عرفها العلمـاء آنذاك – الفيزياء الكلاسـيكية – التي أسسها العالم الفذّ إسحاق نيوتن (1643–1727) قبل ذلك بقرنين في الانهيار، وأصبح العلم في أزمة لم يشهدها التاريخ من قبل.

قصة هذه الاكتشـافات – قصـة هذه الحقائق العلميـة التي بدت متعارضة طبقًـا للمنطـق البشـري التقليـدي – ليسـت فقـط قصة سـقوط علـم الطبيعة التقليـدي (فيزياء نيوتـن) جزئيًّا، بل هي أيضًا وفي المقام الأهم قصة سـقوط

المنطق البشـري كما عرفناه قبل ظهور العالم النابغة ألفريد آينشـتاين (1879-1955) وتأسيسـه الفيزيـاء الحديثة والعلـم الحديث طبقًا لقواعـد جديدة، بل تأسيسه منطقًا جديدًا لم تعرفه البشرية قبل ذلك!

إنهـا أيضًا قصة الأزمـة التي دفعت وأطلقت شـرارة الاكتشـافات العلمية المتلاحقة التي شهدها القرن العشرون وبداية القرن الحادي والعشرين والتي تقدم الدليل العلمي القاطع على وجود الخالق.

لا يمكن فهم تطور الأحداث ومعناه دون العودة إلى الوراء قرنين ونصف القرن من الزمان أيام تأسيس الفيزياء الكلاسيكية على يد العالم إسحاق نيوتن في بداية ذلك العصر الذي عرف باسم عصر التنوير.

عصـر التنوير هـو ذلك العصر الذي كان قد بدأ في منتصف القرن السـابع عشر وامتدَّ ليشمل القرن الثامن عشر كله. إنه أيضًا ذلك العصر الذي تَلَا عصر النهضـة الأوروبيـة، وسـماه المؤرخون كذلـك - عصر التنوير - لما شـهدته فترتـه مـن نبوغ علمـي وفكري أدى إلى نقـل دول أوروبا الغربيـة ومن بعدها أمريكا (بسـبب هجـرة الثقافة والعلم الأوروبي إليهـا) نقلة تاريخية في جميع المجـالات العلميـة والثقافية. إنه باختصـار ذلك العصر الذي أسّـس لظهور الحياة العصرية كما عَرفها القرن العشرون وكما نعرفها الآن.

وما كانت الحياة العصرية لتؤسس دون عِلم يشرح للعقل البشري القواعد المنظمـة لحركة كل ما هو موجود حولنا فـي الطبيعة، ذلك العلم الذي عرف في أوروبا باسم الفيزياء الكلاسيكية - أو فيزياء نيوتن - بعد أن أسس قواعده فـي أوروبـا العالم إسـحاق نيوتـن مكتشـف قوانين الحركـة في نهايـة القرن السابع عشر.

يحكـي لنـا التاريـخ - والعهـدة على الـراوي - أن نيوتـن كان يجلس في حديقة يفكر عندما رأى تفاحة تسـقط من أعلى شجرة إلى الأرض، ثم تساءل

نيوتـن: لمـاذا اتجهت التفاحة إلـى الأرض بدلًا من أن تتجه إلى السـماء؟ ثم هداه تفكيره العبقري إلى اكتشاف ظاهرة الجاذبية التي أصبحت حجر الزاوية في علم الفيزياء الكلاسـيكية: كل الأجسام تتجاذب لمجرد وجودها، أي إنها تتجاذب لمجرد تكونها من مادة!

كل الأجسام تتجاذب.. التفاحة تجذب الأرض بالقدر نفسه الذي تجذب به الأرض التفاحة، إلا أن فرق الحجم هو الذي يجعل التفاحة هي التي تنطلق في اتجاه الأرض وليس العكس. على مسـتوى أكبر وأوسع تتجاذب الأرض والشـمس وبقيـة الكواكـب المحيطة بها، فـارق الحجم هو الـذي يؤدي إلى دوران الأرض والكواكب حول الشـمس، ذلك أن الشمس تحتوي على أكثر من تسعين بالمائة من المادة المكونة للمجموعة الشمسية.

بالطبـع لم يفطن نيوتـن – لقصور أدوات البحث العلمـي آنذاك – إلى أن المجموعة الشمسـية بدورها تدور بفعل الجاذبية حول مركز مجرتنا – مجرة درب اللَبّانـة – التـي لم تكن قد اكتشـفت بعد والتي تشـمل فيما تشـمل هذه المجموعة الشمسية. لم يَفطن نيوتن أيضًا إلى أن مجرة درب اللَبّانة تدور هي الأخرى مع مليارات أخرى من المجرات حول مركز الكون الافتراضي، وأن كل شيء في الكون في حالة حركة مستمرة.

الكـون أسـس على نظام قائـم على الحركة والنشـاط دومًـا: لا وجود مع الكسل، ولا كسل مع الوجود.

نيوتـن اكتشـف ثلاث معادلات رياضية تشـرح جميع أنـواع الحركة على سـطح كوكب الأرض بل وداخل المجموعة الشمسـية. إنها تلك المعادلات التـي عرِفت باسـم «قوانيـن الحركة»، فكل شـيء في الطبيعة بـل وفي الكون يمكـن نظريًّـا شـرحه من خـلال علـم الرياضيات (هـذا لا يعنـي أن العلم قد

اكتشف كل هذه المعادلات). الرياضيات هي اللغة الأعمق والأبسط والأدق في آن واحد. كل ذلك وكأنها لغة كونية تريد أن تخبرنا أول ما تخبرنا بأن الكون قد أسس على نظام دقيق منظم لكل شيء.

إلا أن نيوتن ظنّ أن القوانين التي اكتشفها في شرح الحركة – على مستوى كوكب الأرَض والمجموعة الشمسية – هي أيضًا قوانين كونية؛ أي قوانين يمكنها أيضًا شرح وحساب جميع أنواع الحركة في جميع أرجاء الكون. اعتمدت قناعة نيوتن في كونية اكتشافه هذا على إيمانه بمعتقد قديم – معتقد راسخ ومتوارث عبر العصور والحضارات – معتقد مفاده أن الفضاء والزمن خلفيتان أزليتان (لا بداية لهما)، خلفيتان ثابتتان لا تتغيران من مكان إلى آخر في الكون، خلفيتان تحتويان كل شيء بالأسلوب نفسه.

كان هذا تحديدًا هو سبب قناعة نيوتن بكونية قوانين الحركة التي اكتشفها لسبب بسيط: إذا كانت الأجسام تتحرك داخل فضاء لا تتغير خصائصه من مكان إلى آخر في الكون (كخلفية للحركة)، وإذا كان الزمن يمر بالإيقاع نفسه في كل أرجاء الكون (كمعدل قياس لسرعة الحركة)، لابد إذًا – طبقًا لنيوتن – أن تنطبق قوانين الحركة التي اكتشفها على كل ما يتحرك في جميع أرجاء الكون. وهكذا أسِّسَت الفيزياء الكلاسيكية – التي عرفت أيضًا باسم فيزياء نيوتن – مدعيّة أنها توصلت إلى اكتشاف القوانين الكونية.

بل هكذا أيضًا تلاقت فيزياء نيوتن الناشئة حديثًا آنذاك – في عصر التنوير – مع بعض المفاهيم الدينية الخاصة المتوارثة في مخيلة البعض أو البعض الآخر في ديانات مثل اليهودية والمسيحية والإسلام. إنها تلك المفاهيم التي كانت تستثني الفضاء والزمن من قصة الخلق، بل ومن مبدأ الخلق من العدم، تلك التفاسير التي اعتبرت الفضاء والزمن الخلفية الأبديّة التي سبقت عملية الخَلق ذاتها.

هكذا أيضًا استقبلت فيزياء نيوتن – المعتقـدة في أبدية الفضاء والزمن – فـي بعض الكنائس والدوائر المسيحية في أوروبا للدفـاع علميًّا عن معتقدها أن الـربّ يَسكن هذا الفضاء الخارجـي الموجود منـذ الأزل (اللانهاية عودة في الماضي) قبل بدء عملية الخلق. وهكذا استمر استخدام البعض والبعض الآخـر فيزيـاء نيوتن خـلال القرنين التاليين – حتى نهاية القرن التاسـع عشـر وبداية القرن العشرين – لطمأنة أنفسهم في معتقداتهم على اختلافها.

إلا أن جميعهـم كان علـى خطأ، فبعـد أقل من قرنين مـن الزمان – خلال السـنوات الأخيـرة مـن القـرن التاسـع عشـر تحديـدًا – بـدأت فيزيـاء نيوتن فـي الانهيـار بعـد أن عَصَفـت بقواعدهـا نتيجة تجربـة واحدة جديـدة أثبتت فشـلها فـي تفسـير أهم حركـة – بل أهـم حدث علـى الإطلاق فـي الكون – ألا وهو «انتقال الضوء»! فبعد أن تمكن العلماء من اسـتحداث أجهزة لقياس سـرعة الضوء لأول مرة في التاريخ – في نهاية القرن التاسـع عشـر – فوجِئوا بحقيقة عِلمية كادت تذهب بعقولهم.

ذلـك أن هـذه النتيجة التـي فاجأتهم لم تسـقط فقط الفيزياء الكلاسـيكية وقوانين الحركة التي اكتشـفها نيوتـن، والتي اعتقدوا في صحتها ما يقرب من مائتـي عام، بل وهو الأهم أسـقطت المنطق البشـري برمته بعـد قلبها مفاهيم العقل الأكثر رسوخًا رأسًا على عقب!

دعونـا أولًا ننظر إلـى هذا التجربة التـي أذهلت العلماء بعـد نجاحهم في قيـاس سـرعة الضوء والتـي تقدر بحوالـي ثلاثمائة ألـف كيلو متر فـي الثانية الواحدة. العجيب ليس هذه السـرعة الرهيبة التـي لا يمكن للعقل أن يتخيلها والتي تتيح مثلًا لشـعاع النور (الفوتون) المنبثِق من سـطح الشـمس الوصول إلى سطح كوكب الأرض بعد ثمان دقائق فقط.

العجيب الذي كاد يذهب بعقول العلماء – بعد أن أَسقط المنطِق البشري برمته – هو أن نتيجة قياس هذه السرعة ثابت بغض النظر عما إذا كان الجهاز (الذي يقوم بعملية القياس) ثابتًا على الأرض، أم مسافرًا في اتجاه الضوء نفسه على سرعة مقاربة من سرعة الضوء، أو مسافرًا بأي سرعة في عكس اتجاه الضوء.. ظاهرة تعارض منطق العقل البشري التقليدي وتسقطه!

تخيّل مثلًا – كمثال للتشبيه فقط – أن تعطي جهازًا متخصصًا في قياس فارق السرعة بينك وبين سيارة تسير في جميع الأحوال على طريق سفر بسرعة ثابتة لا تتغير أبدًا مقدارها مائة كيلو متر في الساعة، ثم يطلب منك أن تقوم بقياس فرق السرعة بينك وبين هذه السيارة في ثلاث حالات مختلفة.

الأولى عندما تتخطاك السيارة على سرعتها الثابتة وأنت واقف في مكانك على الأرض دون حركة. وعليه تقوم بعملية القياس، وتجد أن فرق السرعة بين السيارة وبينك هو كامل سرعة السيارة – أي مائة كيلو متر في الساعة – وهذا منطقي، فالسيارة تسير بسرعة مائة كيلو متر في الساعة وسرعتك أنت صفر بما أنك لا تتحرك.

لكن المشكلة العلمية – بل الكارثة المنطقية – تبدأ عندما تحاول قياس فرق السرعة بينك وبين السيارة في الحالة الثانية؛ أي عندما تحاول قياس سرعة هذه السيارة المنطلقة على سرعتها الثابتة (مائة كيلو متر في الساعة) وأنت وجهازك راكبان موتوسيكل يسير بجانب هذه السيارة وينطلق في اتجاهها نفسه على سرعة تسعين كيلو مترًا في الساعة. تقوم بعملية القياس، إلا أنك تفاجأ بأن الجهاز يشير إلى أن فارق السرعة بين السيارة وبينك (وأنت منطلق بجانبها على الموتوسيكل بسرعة تسعين كيلومترًا في الساعة) مازال مائة كيلو متر في الساعة – أي كامل سرعة السيارة – وكأنك لا تتحرك بجانبها على الإطلاق!

هذه النتيجة لا تنافي فقط قوانين الحركة وتسقطها وتسقط علم الطبيعة، بل تنافي أيضًا منطق العقل البشري الأكثر رسوخًا؛ ذلك أن المنطق يؤكد أن فارق السرعة كان يجب أن يكون تحديدًا عشرة كيلو مترات في الساعة – أي الفارق ما بين سرعة السيارة المنطلقة على سرعة مائة كيلو متر في الساعة والموتوسيكل الذي تتخطاه والمنطلق بجانبها على سرعة تسعين كيلو مترًا في الساعة.

طبعًا في البداية تعتقد أن هناك خطأً ما، فتعيد التجربة آلاف المرات بواسطة أجهزة وعلماء مختلفين، إلا أنك تفاجأ بالنتيجة نفسها في كل مرة!

ثم يطلب منك – في الحالة الثالثة – أن تقوم بقياس سرعة هذه السيارة المنطلقة على سرعتها الثابتة (مائة كيلو متر في الساعة) بينما أنت منطَلق بالموتوسيكل والجهاز في الاتجاه العكسي لاتجاه السيارة على سرعة تسعين كيلو مترًا في الساعة.

الطبيعي في هذه الحالة طبقًا لقوانين الحركة التي اكتشفها نيوتن وترجمها إلى معادلات رياضية – بل والمنطقي وهو الأهم – هو أن يكون فارق السرعة بين الموتوسيكل والسيارة عندما تتخطاه في الاتجاه العكسي مائة وتسعين كيلو مترًا في الساعة أي إجمالي السرعتين، ذلك أن السيارة والموتوسيكل يتعاونان في إضافة سرعة التباعد عن بعضهما. لكنك تفاجأ في كل مرة تعيد فيها التجربة أن فرق السرعة بين السيارة والموتوسيكل مازال مائة كيلو متر في الساعة؛ أي سرعة السيارة فقط تمامًا كما حدث في الحالتين السابقتين، وكأن الموتوسيكل ثابت لا يتحرك في جميع الحالات!

بالطبع هذا مثال للتشبيه فقط. ولكي نفهم ماذا حدث أثناء قيام العلماء بتجارب قياس سرعة الضوء، مثال كي نفهم نوعية تلك النتائج التي كادت تصيبهم بالجنون، فهذه المشكلة لا تحدث في الحقيقة على سطح الكرة

الأرضيـة بين السـيارات والموتوسـيكلات أو بين الكائنـات، ولا تحدث في الجـو بين الطائـرات والصواريخ أو بيـن الطيور، ولا تحدث فـي الفضاء بين الشـهب والنيازك. هذه المشـكلة لا تحـدث في الكون كلـه إلا عندما نحاول قياس فارق السرعة بين الضوء – فقط وتحديدًا – وأي جسم آخر!

هكـذا فوجئ علماء الطبيعـة وعلم الكون فجأة قبل بداية القرن العشـرين بسـنوات قليلـة بـأن الضـوء – النـور – هـو الوحيـد (في هـذا الكـون) الذي لا تنطبق عليه قوانين الحركة والطبيعة، بل وينهار أمامه المنطق التقليدي!

هكـذا أيضًا اكتشـف العلماء أن قوانيـن الحركة التي وضعها نيوتن ليسـت قوانين كونية بما إنها لا تستطيع شرح كل شيء في هذا الكون. حقيقي أن قوانين الطبيعـة تنطبق على كل شـيء آخر في الكون، إلا أن اسـتثناء الضـوء كان كافيًا لإسـقاط صفة «الكونيـة» عن الفيزياء الكلاسـيكية – فيزياء نيوتـن – المعمول بها حتى ذلك الحين. دع جانبًا إسـقاطها منطق العقل الأكثر رسوخًا. وعليه بدأ القرن العشـرون بمشكلة شـبه أزلية – أي مشكلة تبدو وكأن ليس لها حل – ألا وهي أن النور الذي هو دائم الحركة لا يتحرك أصلًا طِبقًا لقوانين الحركة!

إلا أن القرن العشرين كان يخبئ ما لم يتوقعه تاريخ البشرية كلها حتى ذلك الحين: سلسـلة من الاكتشـافات العلمية التي لم تكن فقط لتغير علم الفيزياء، ولكن أيضًا لتثبت وجود الخالق بطريقة علمية مفاجئة وغير متوقعة.

إنهـا تلك القصة التي بدأت بظهور ذلك الرجل الذي لم يعرف تاريخ علم الفيزيـاء وعلـم الكون الحديث مثلـه، العالـم العبقري ألبرت آينشـتاين عالم الفيزياء الذي حل اللغز – حل المشـكلة شـبه الأزلية – بل وغيّر منطق العقل البشري دون رجعة.

النسبية الخاصة:
آينشتاين يعيد تشكيل منطق الإنسان

في عام 1905، وفي سن السادسة والعشرين، نجح عالم الفيزياء السويسري النابغة ألبرت أينشتاين في حل أزمة علم الفيزياء التي كادت تعصِف به. بل إن هذا الحل العلمي الذي اكتشفه آينشتاين كان تحديدًا سر شهرته غير المسبوقة والتي لم يحصل عليها أي عالِم آخر في القرن العشرين وربما في التاريخ.

يشير آينشتاين في مذكراته إلى أن نجاحه (غير المسبوق) الذي أدى فيما أدى كما سنرى إلى تأسيس علم الكون الحديث وإعادة تأسيس علم الفيزياء - بل وإعادة تأسيس العلم الحديث برمته - جاء بعد أن تحرّر من المنطق التقليدي الذي اعتاده الإنسان في التعامل مع المفاهيم والأشياء.. عندئذٍ فقط حقق آينشتاين إنجازه التاريخي!

آينشتاين اكتشف منطقًا كونيًا - أشمل - قلب المنطق التقليدي للإنسان رأسًا على عقب. منطق الإنسان منطق حقيقي شامل على مستواه فقط؛ أي على مستوى الواقع المحدود الذي نعيشه على كوكب الأرض. أما على مستوى الكون، فهناك واقع أشمل - وبالتالي منطق أشمل - يتجاوز منطق العقل البشري النابع من محدودية مشاهداته وخبراته المرتبطة بدورها بحياته اليومية على مستوى كوكب الأرض.

ما هو حقيقي أو منطقي على مستوى كوكب الأرض ما هو إلا جزء محدود من حقيقة كونية أشمل ذات معادلة أكثر تعقيدًا. الإنسان اعتاد جزءًا محدودًا

فقـط من هـذه الحقيقة الكونية الأشـمل: الجـزء المعني بالحقيقـة المرئية أو الملموسـة على مستوى حياته اليومية. لذلك، في معظم الأحيان، يفشل عقل الإنسان ومنطقه في تصور أو فهم ما يقع خارج هذا النطاق!

المدخـل الذي مكّن آينشـاتين من التعرف على هـذا المنطق الكوني كمِن في اكتشـافه الحقائـق العلمية - التفاعلات النورانيـة - الخاصة بعملية انتقال الضـوء (أي النور) في فضـاء هذا الكون. بل إن ترجمة هـذه الحقائق العلمية في معادلات رياضية دقيقة أطلق عليها لقب نظرية «النسـبية الخاصة» (نظرية تشـرح فيما تشـرح عملية انتقال الضوء) هو تحديدًا ما مَكَّن آينشـتاين في عام 1905 من حل المشـكلة شـبه الأزلية التي كانت قد عصفت بفيزياء نيوتن قبل ذلك بسـنوات. ذلك قبل أن يقوم آينشـتاين في عام 1916 بتوسيع هذه النظرية لتصبح نظرية «النسـبية العامة»، النظرية التي أسسـت علم الكون الحديث بل وأرسـت قواعد الفيزياء الحديثة التي حلّت بذلك محل الفيزياء الكلاسـيكية كما سنرى.

كان الفكـر الإنسـاني على موعد مع ثورة شـاملة في العلـم والمفاهيم بما في ذلك المفاهيم الروحانية.. ثورة أطلق شرارتها آينشتاين قبل أن تستمر من بعده لتزيح الستار تدريجيًّا عن اكتشافات علمية متعاقبة ومترابطة، فكل شيء في هذا الكون مترابط بل ومتّحد ومتصل كما سنشاهد.

بالطبع ما لم يكن ليتوقعه آينشـتاين مسـبقًا هو أن تصبح اكتشافاته العلمية غير المسـبوقة هذه (نظرية النسـبية الخاصة ثم العامة) الاكتشـافات المسئولة عن إعادة تشكيل منطق الإنسان برمَّتِه. معاني كلمات راسخة مثل - «الحقيقة» و«الواقع» - كانت على وشك أن تأخذ منعطفًا جديدًا لم تكن الإنسانية لتتوقعه من قبل!

بدأ إنجاز آينشتاين التاريخي مع اكتشافه الحقيقة العلمية التي أصبحت بعد ذلك القاعدة الأولى في نظرية النسبية الخاصة: «النور» هو أيضًا «الواحد» الوحيد الذي لا يمكن مقارنته بأي شيء آخر في الكون.. كل شيء في الكون (باستثناء النور) «نسبي» لأن حاله يختلف باختلاف حال المشاهد له، أما النور فهو «المطلق» الوحيد؛ لأن حاله لا يختلف باختلاف حال المشاهد!

هكذا بكل بساطة وضع آينشتاين القاعدة الأولى التي استمدّت نظرية النسبية منها اسمها: قياس سرعة الضوء ثابت مطلق لا يختلف باختلاف حال أو حركة المشاهد، مقياس كل شيء آخر في الكون «نسبي» يختلف باختلاف حال أو حركة المشاهد.

نظرية النسبية الخاصة تخبرنا أول ما تخبرنا بأن النور هو المطلق «المتعالي» فوق كل نسبية. وضع النور – المطلق – لا يقتصر فقط على استثنائه من نسبية الحركة، بل يتعداها ليشمل جميع أوجه المقارنة بينه وبين كل شيء في هذا الكون. هناك مثلًا الحقيقة العلمية في أن النور هو الطاقة النقية الخالصة (غير المادية) الوحيدة الموجودة في الكون كله.. النور طاقة غير مادية تتجلَّى من خلال هيئة خاصة به فقط يطلق عليها العلماء لقب «الموجات الكهرومغناطيسية».

هناك أيضًا الحقيقة العلمية المدهشة من أن النور هو الوحيد في الكون كله الذي ينتقل من مكان إلى آخر في الفضاء دون استهلاك أي طاقة على الإطلاق: النور طاقة تتنقل في الفضاء دون استهلاك أي قدر من الطاقة!

وكأن العلم أراد أن يؤكد –على استحياء– أن «النور» هو أيضًا «المَلِك» المحمول فوق «العرش»، وكأن العلم أراد أن يشبه الفضاء «بكرسي» يحمل المَلك، كرسي وسع الكون كله (السموات والأرض). بل إن اكتشاف هذه

الحقيقـة العلمية – أن الفضـاء يقوم فعلًا بحمل النور مثل الملك فوق العرش – هو تحديدًا ما مكّن بدوره علم الكون الحديث من اكتشاف غير مسبوق في التاريـخ، اكتشـاف حقيقة ذلك التفاعل المسـئول عن حمل النـور في الفضاء دون استهلاك أي قدر من الطاقة.

حمل النور في الفضاء يعتمد على تفاعل مسـتمر قائم بين النور من جانب والفضاء من جانب آخر. اكتشـاف كشـف بدوره عن حقيقة علمية شكّلت في بدايـة الأمـر مفاجأة أغرب مـن الخيال للعلماء أنفسـهم: ما نسَـميه «الفضاء» (السـماء) ليـس مكانًـا أجـوف أو خلفيـة «فارغـة» تتحـرك داخلهـا النجـوم والكواكب كما ظن الإنسان بصفة عامة منذ فجر التاريخ.

الفضاء (السماء) بناء! السماء بناء يتكون من أنسجة دقيقة من أشعة نورانية «غيـر مرئيـة» لعين الإنسـان. الفضـاء يتكون من أنسـجة نورانيـة (منطلقة في جميع الاتجاهات) تمامًا كما يتكون جسـم الإنسـان من أنسـجة دقيقة تتخلل كل أعضائه لتمثل جزءًا لا يتجزأ من تكوينها! الفارق الوحيد هو أن الأنسـجة النورانية المكونة لفضاء الكون أنسجة غير مرئية لعين الإنسان!

النور المرئي لعين الإنسـان (ما نسـميه الضوء) ما هو إلا جزء محدود من أنـواع النور الموجود فـي هذا الكون. النـور أنواع مختلفة تتوقـف قدرة عين الإنسـان على رؤية بعضها على سـرعة تردد موجات الطاقة المكونة لكل من أشـعتها المختلفة. أشـعة إكس مثلًا – التي تسـتخدم في عمل الأشـعة الطبيّة على العظام – ما هي إلا نوع من النور غير المرئي لعين الإنسان، إلا أنه مرئي للأفـلام الطبيـة المتخصصة. كذلك الأشـعة تحت الحمراء – التي تسـتخدم للتحكـم عـن بعد في التليفزيـون – ما هي إلا نوع من النـور الذي لا تراه عين الإنسـان، إلا أنهـا تمثل نوعًا من النور المرئي لكائنـات أخرى من الحيوانات بما في ذلك الحشرات الليلية مثلًا.

عمليـة حمل النور في الفضـاء عملية «تفاعل نوراني» تتم بتلقائية شـديدة لا لشـيء إلا أن النور والأشـعة (أنسـجة الفضاء) التي تحمله من نفس الذات النورانيـة، هـذا وإن كان النـور المكـوّن لأنسـجة الفضـاء غيـر مرئـي لعيـن الإنسان.

مجرد وجود شعاع من نور في أي مكان في فضاء هذا الكون يؤدي تلقائيًّا إلـى تذبـذب أنسـجة النور غيـر المرئـي – المكوّنة لهـذا الفضـاء – في ذلك المكان الموجود به النور تحديدًا، لتحمله وتنقله بذلك من مكان إلى آخر في الفضـاء.. وهكذا ينتقل هذا التفاعل النوراني (تذبذب هذه الأشـعة النورانية) إلى كل موضع جديد من الفضاء ينتقل إليه شعاع النور، ليقوم بنقله من جديد وإلى الأبد: خدمة لا نهائية مسـخرة ما دام الكون كونًا، خدمة لا يشـارك النور فيها أي شيء في هذا الكون.

هكذا اكتشف العلم أن سر حمل النور مثل الملك فوق العرش هو أن النور الذي نراه نورًا يحمله نور لا نراه؛ أي إن نور السـموات والأرض (الكون) هو في الحقيقة «نور على نور»!

طبعًا كل هذا ليس له أية علاقة بقوانين الحركة التي اكتشفها نيوتن، بل ليس له أية علاقة «بمنطق دراسـة الحركة» كما أسّسـه الإنسان من خلال مشاهداته وخبراته عبر تاريخ وجوده على سطح كوكب الأرض. سرعة الضوء لا تنطبق عليها قوانين قياس سـرعة الحركة لأنها وبكل بسـاطة ليست نوعًا من الحركة التي نعرفها أصلًا بل ذبذبة في أنسجة الفضاء.

أسـرع أنـواع الحركـة التقليديـة أو اتجاههـا حالـة مختلفـة مـن الوجـود لا يمكـن مقارنتهـا بهـذا النوع مـن التفاعل النورانـي.. ما نظنه سـرعة الضوء هـو – فـي الحقيقة العلميـة – «حالة» لا يمكن وصفها طبقًـا لمنطق أو مفهوم

الحركة أو نسـبيتها، حالة تجعل الأشـياء المتحركة تبدو كأنهـا ثابتة. ما يطلق عليه العلماء عبارة «سرعة الضوء» يمكن في اعتقادنا وصفها وتسميتها بطريقة أكثر دقة «حالة تَجَلّي النور»!

هكذا حل آينشتاين اللغز الذي أسقط الفيزياء الكلاسيكية (فيزياء نيوتن)، وهكذا بدأت ثورة العلم في مطلع القرن العشـرين، بل هكذا بدأ العلم يخطو فجـأة خطوات غير متوقعة على طريق اكتشـاف الأسـرار الكونيـة التي طالما بحثنا عنها.

قصة الإلحاد

ربما كان الفيلسـوف الإغريقـي ديموقريطـوس (410 – 370 قبل الميلاد) هـو أول فيلسـوف يدفـع بـأن الكون يتكـوّن فـي «الأصل» – على المسـتوى التأسيسـي الأصغـر والأدق – مـن مجموعة مـن «وحدات» صغيـرة جدًّا من «مـواد مختلفة»، وحـدات صغيرة جدًّا لدرجة أنها لا تقبل التقسـيم، وحدات من المادة لا تستطيع عين الإنسان رؤيتها.

ديموقريطوس هو من أطلق على هذه الوحدات المادية الأوَّلية الأصغر – التي تنبأ بوجودها – لقب «أتومون» Atomon والتي تعني باليونانية: غير قابل للقسمة والتي ترجِمت فيما بعد إلى اللغة العربية لتعني: «ذرة». ديموقريطوس على ما يبدو تاريخيًّا هو مؤسس أقدم نظرية للذرة.

أكثر من ألفي عام بعد ذلك – في بداية عصر التنوير – تمكن علماء أوروبا بعـد تقدم علم الكيميـاء (إضافة إلى اختـراع الميكروسـكوب بعد ذلك) من التأكد بصورة قطعية أن الطبيعة تتكون فعلًا – على المستوى الأصغر والأدق – مـن ذرات مواد مختلفة مثل: الحديد والذهب والأكسـجين والكربون وما إلى ذلك.

كانت هذه الذرات المختلفة أصغر من أن تتمكن أجهزة العصر الموجودة آنذاك من دراستها بصورة أدق، وعليه انتهت قناعة علماء عصر التنوير (تمامًا مثـل ديموقريطـوس) إلى أن هذه «المـواد» هي المكوّن الأصلـي – الأول –

والأدق لهـذا الكـون، بـل هكذا أطلق عليهـا علماء ذلك العصـر – كما أطلق عليهـا ديموقريطـوس قبـل ذلك – لقـب «أتـوم» Atom (والتي تعنـي «ذرة» بالفرنسية والإنجليزية) تكريمًا لسبقه العلمي.

التقـدم العلمـي في عصـر التنوير مَكّن علمـاء ذلك العصر مـن أن يذهبوا بعـد ذلك في اكتشـافاتهم أبعد مـن ديموقريطوس بكثير، بـل إن عصر التنوير تحـوّل – مـن خلال هذه الاكتشـافات – إلى عصر ملـيء بالمفاجآت العلمية التي كانت على وشك أن تقلب رأسًا على عقب معتقدات متوارثة راسخة في أوروبا منذ بداية العصور الوسطى!

ذلـك أن اكتشـاف الذرات ونظـام تفاعلها مكّـن علم الكيمياء مـن التأكد بصـورة قاطعة من الحقيقة العلمية أن «الـذرات» والمواد المختلفة المتدرّجة التعقيـد والناشـئة عنها – تتفاعل فيما بينها بصـورة «تلقائية» ممنهجة لا يوجد فيها أي «سـحر» – أو أي نوع من «التدخـل الخارجي» لأي قوة خارقة – كما كان معتقدًا في أوروبا قبل ذلك!

التقـدم في علـم الكيمياء جاء ليؤكد لعلمـاء أوروبا آنـذاك أن كلَّ نوعٍ من أنـواع المـواد الموجودة في هـذا الكون (الماء مثلًا) ما هـو إلا تكوين مركَّب ناشـئ من تفاعـل وتكامل أنواع محددة مـن هذه «الذرات» المكتشـفة حديثًا آنذاك. الماء مثلًا مادة مركبة تنشـأ من تفاعل وتكامل ذرة أكسـجين مع ذرتي هيدروجيـن. هـذا التفاعل وهـذا التكامل بين هذه الـذرات الثلاث هو –وهو فقط– ما ينشئ الماء ماءً ويوفر له طبيعته، بما في ذلك شكله وملمسه وجميع صفاته وخصائصه.

التفاعـل بين الذرات (ثم المواد الناشـئة من تكاملهـا) تفاعل يحدث دون أي تدخل خارجي لأي قوة خارجية خارقة، تفاعل يتم بطريقة «طبيعية» لينتج بذلك مواد أخرى مختلفة – أي يخلق مخلوقات جديدة – بصورة تلقائية.

هكـذا ظهـر علم الكيمياء في ثوبـه الجديد – في عصـر التنوير – ليتحدى ويسـقط المعتقدين الرئيسيين الشـائعين في أوروبا حتى ذلك الحين. المعتقد الأول هو أن التفاعل الكيميائي بين المواد تفاعل يعتمد على أنواع من السحر. المعتقـد الثاني – وهو الأكثر شـيوعًا والأهم – هو ذلـك المعتقد الذي كانت الكنيسـة المسـيحية في أوروبا قـد توارثته كجزء لا يتجزأ مـن معادلة الإيمان المسيحي. المعتقد القائل بأن كل تفاعل كيميائي يعتمد على تدخل «خارجي» (تدخـل يحدث من خارج المـواد المتفاعلة معًا) يقوم بـه ربّ «منفصل» عن المـادة – بل ربّ «منفصل عن الطبيعة» برمَّتها – كي تتم بنجاح عمليات خلق المـواد الجديدة الناتجة، مؤكدة مرارًا وتكـرارًا أن المادة عاجزة عن خلق أي شيء، دون هذا التدخل «الخارجي».

علـم الكيميـاء أثبت (على العكـس التام من ذلـك) بصـورة نهائية قاطعة –خلال عصر التنوير– أن العمليات المسئولة حقًّا عن نشأة جميع المواد في هذا الكون – العمليات المسئولة عن خلق هذه المواد – ما هي في حقيقتها العلمية إلا تفاعلات «طبيعية»! هكذا بدأت في عصر التنوير أزمة بين العلم والكنيسة بعـد أن أكد علمـاء أوروبا آنذاك أن الطبيعة «تنشِـئ» (تخلق) مـواد جديدة – بصفـة تلقائيـة – دون أي تدخل خارجي من قبل ذلك الـربّ «المنفصل» عن الطبيعة الذي تحدثت عنه الكنيسة ودعت إلى الإيمان بوجوده!

الأزمة بين الكنيسة وعلم الكيمياء امتدت سريعًا لتشمل أيضًا علم التاريخ الطبيعي – أي علم الأحياء – كما كان يطلق عليه آنذاك (وكما ظلّ يطلق عليه حتـى نهاية القرن التاسـع عشـر). ذلـك أن علم التاريخ الطبيعـي – الذي كان قد بدأ يحقق اكتشـافات جادة في دراسـة الآلية المسـئولة عن نشـأة الكائنات الحية – جاء هو أيضًا ليؤكد على مسـتواه نفس الحقيقة العلمية التي كان علم الكيمياء قد كشف عنها قبل ذلك.

إنها تلك الاكتشافات التي حققت آنذاك ثورة جديدة في المعرفة الأوروبية: الكائنات الحية جميعًا ما هي بدورها إلا أشكال متقدمة من المادة، تكوينات مادية معقدة جدًّا نشأت - دون أي تدخل خارجي - بصورة «طبيعية» من تفاعل وتكامل هذه الذرات نفسها (هذه المواد نفسها) المكونة لكل شيء آخر في الطبيعة! كان العلم قد بدأ بالفعل يخطو خطوات أولى على طريق اكتشاف تفاصيل قصة نشأة الحياة من المادة.

هذه الاكتشافات والحقائق العلمية المتتالية تحوّلت تدريجيًّا - خلال عصر التنوير - إلى صدمات متتالية للعلماء والفلاسفة والمثقفين المسيحيين في أوروبا، ذلك قبل أن تؤدي إلى رفضهم تعاليم الكنيسة، رفضهم الإيمان بالرب «المنفصل» عن الطبيعة الذي دعت إليه هذه الكنيسة؛ لتنشأ بذلك جذور ظاهرة الإلحاد في أوروبا (قبل أن يخرج منها إلى العالم)، إلحاد علمي قائم على حقائق علمية مناقضة للمعتقدات الدينية المتداولة.

الإلحاد هو المعتقد القائل إن الكون - بما يشمل من مادة وحياة - موجود على هيئته «المادية» هذه دون أي اعتماد على أي مصدر خالق له. الإلحاد معتقدٌ أسس على المبدأ القائل إن «المادة» هي المكوّن الأصلي الأصيل لهذا الكون، مكونه الموجود منذ الأزل دون خلق. الإلحاد معتقد أن «أنواع المادة» تفاعلت معًا في الماضي لتنشأ عن طريق «الصدفة» (التجربة والخطأ) كل شيء في هذا الكون - بما في ذلك الكائنات الحية - دون حاجة إلى خالق.

هذه القاعدة المادية - التي أسس الملحدون عليها عقيدتهم - هي تحديدًا ما جعل العلماء والمفكرين يطلقون على الإلحاد بصفة عامة لقب «الإلحاد المادي» أثناء دفاع البعض عنه أو مهاجمة البعض الآخر له. السؤال الآن: كيف وصلت الأمور إلى ذلك الحد؟ وما الذي حال دون محاولات توفيق تعاليم الكنيسة ومعتقداتها من جانب والحقائق العلمية من جانب آخر؟

لم يكن السبب المباشر إصرار الكنيسة على مبدئها أن المادة غير قادرة بمفردها على إنتاج أو خلق أي شيء، لم يكن تأكيدها اعتماد التفاعلات على ربّ خالق قائم على توفير جميع النتائج كي تصبح هذه التفاعلات تفاعلات خلاقة قادرة على خلق مواد وكائنات جديدة لم تكن موجودة على المستوى السابق.

الرفض العلمي والإلحاد جاءا لأن تعاليم الكنيسة المتوارثة كانت تصر أيضًا – على المستوى الأعمق والأهم – على الفصل التام بين الخالق والمخلوق. الإلحاد في أوروبا نشأ لتناقض تعاليم الكنيسة – وبالتالي الموروث الثقافي في أوروبا – مع المفهوم القائل إن الخالق هو «الباطن» الذي يبطن «الطبيعة» ويوجهها من «داخلها»! تناقضها مع المفهوم القائل بأن الخالق هو «الباطن» الذي يبطن كل شيء – بما في ذلك الذرة والمادة والكائنات الحية – إنشاءً وتوجيهًا لعملية الخلق من «داخل» هذه الأشياء!

رفض الكنيسة هذا المبدأ كان حتميًّا لتعارضه مع المبدأ المؤسس للعقيدة المسيحية البولسية ذاتها (المسيحية التي أسسها القديس بولس بعد وفاة المسيح والمتوارثة إلى يومنا هذا بعد تجريم الإمبراطور الروماني قسطنطين (خلال مجمع نيقية في عام 325) العقائد المسيحية الأخرى والمتنازعة حتى ذلك الحين).

كانت العقيدة المسيحية البولسية قد أسست على المبدأ أن الربّ أرسل إلى عالمنا (من خارجه) المسيح «وكيلًا» عنه «للتدخل» في شئون هذا العالم المادي «مخلصًا» له ولنا من قوى الشر والضعف والموت المتأصلة في «الطبيعة» (في العالم).

كان هناك تعارض بل تناقض عقائدي شديد بين مبدأ الربّ «الغائب» أصلًا عن «الطبيعة» (الموجود خارجها) والذي بعث إليها من خارجها «وكيلًا» عنه

«لتخليصها» ومبدأ الخالق الباطن «الحاضر» دومًا بصورة تلقائية مباشرة داخل الطبيعة ونظامها، بل وداخل الذرة وداخل كل شيء!

الأسئلة التي طرحها علماء أوروبا في عصر التنوير: كيف يمكن أن يكون هذا الربّ الذي دعت إليه الكنيسة – الغائب عن الطبيعة – خالق لأي شيء؟ هل يعقل أن يكون هذا الربّ قد خلق الطبيعة والكائنات من خلال نظام طبيعي قبل أن يقرّر بعد ذلك محاربته وتغييره (ليخلصه من مظاهر الضرر والموت التي خلقها بنفسه)؟! إن لم يكن الربّ المسيحي خالق مظاهر الضرر والموت المتأصلة في الطبيعة فمن هو خالقها؟ هل هناك خالق آخر لهما؟ خالق منافس لهذا الربّ المسيحي؟ أم أن هذه القوى المتأصلة في الطبيعة موجودة أزليًا (كما ظنّ الإغريق) دون حاجة إلى خالق أصلًا؟

باختصار علماء أوروبا (المنشقين عن المسيحية) أكدوا خطأ تعاليم الكنيسة البولسية في الدعوة إلى الإيمان بالرب «المنفصل» عن الطبيعة، وهكذا بدأت في منبعها العلمي قصة الإلحاد في تاريخنا الحديث. إلحاد يرفض مبدأ الربّ الخالق. إلحاد قائم على تقييم مبدأ وجود «الخالق» من خلال نموذج الربّ الخارجي «المنفصل» عن الطبيعة، الربّ الموجود في مكان ما في السماء كما بشّرت رسائل القديس بولس.

تمرد علماء أوروبا (المسيحيون أصلًا) على تعاليم الكنيسة، وإلحادهم لن يكون – كما سنرى تدريجيًا – إلا حلقة أولى في ذلك المسلسل التاريخي (الذي استمر أربعة قرون)، والذي سينتهي مع نهاية القرن العشرين بالمفاجأة الكبرى التي أعادت اكتشاف المسيحية على أيدي حفنة من علماء المسيحية (بما في ذلك العالم المسيحي فيليب أسلر عضو الجمعية الملكية بأدنبره وعميد جامعة القديسة ماري في تويكنهام) بطريقة غير متوقعة أعادت توفيق المسيحية مع الحقائق العلمية كما سنكتشف.

لـم تكن حالة العراك الفكـري وفقدان الثقة بل الرفض المتبادل بين رجال العلـم المنشـقين عن المسـيحية مـن جانب ورجال الكنيسـة مـن جانب آخر بالشـيء الجديد في أوروبا آنذاك. كان النصف الأول من القرن السـابع عشـر قد شـهد – قبل ذلك في نهاية عصر النهضـة الأوروبية – مقدمات هذه الثورة العلميـة علـى الكنيسـة وتعاليمها. إنها قصـة تحدي العالـم الإيطالي جاليليو جاليلـي (1564–1642) تعاليـم الكنيسـة الخاطئة القائلة بـأن كوكب الأرض هو مركز الكون وأن الشـمس (وبقية النجوم والكواكب) هي التي تدور حول كوكب الأرض وليس العكس.

مواجهة العالم جاليليو للكنيسة هي المواجهة العلمية الأشهر في التاريخ، مواجهة اسـتمرت أكثر من عشـر سـنوات وتضمّنت جلسات اسـتماع عديدة ومحاكمـة طويلـة لجاليليـو في الفاتيـكان، ذلك قبـل أن تنتهي بنفـي جاليليو وتحديد إقامته في منزله حتى موته.

جديـر بالذكـر طبعًـا أن كنيسـة الفاتيـكان المعاصـرة قامـت – مشـكورة لشـجاعتها الأدبية – بتقديم اعتذار رسـمي في منتصف القرن العشرين لروح العالم الشجاع جاليليو جاليلي لما لاقاه من معاناة على يد كنيسة الفاتيكان في القرن السابع عشر (اعتذار دون الدخول في التفاصيل العقائدية).

ربما يتسـاءل الكثيرون: لماذا اشـتملت تعاليم الكنيسـة أصلًا على المبدأ – أن الأرض هي مركز الكون – كجزء من العقيدة المسـيحية؟ ما أهمية ذلك أصلًا في المسـيحية البولسـية؟ وما الذي جعل الكنيسة تصرّ على موقفها هذا قرونًا طويلة رغم خطئه الثابت علميًّا؟

تعاليم الكنيسـة – القائلة إن الأرض مركز الكون – كانت ولأكثر من ألف وخمسـمائة عام آنذاك جزءًا من التعاليم الخاصة بتفسـير عملية إرسـال الربّ

إلــى العالـم – من خارجه – المسـيح وكيلًا مخلصًا: التفسـير القائل إن عملية تخليص العالم من الشـر تمت في «مركز الكون»، أن الإنسـان استحق إرسال الــربّ ابنــه – الوكيـل المخلص – لأنه (أي الإنسـان) أهم شـيء فـي الكون، وذلك بدليل وجوده في مركز الكون (كوكب الأرض).

أما المدهش تاريخيًّا فهو أن جاليليو لم يكن أصلًا مكتشف الحقيقة العلمية في أن الأرض ليست مركز الكون! مكتشف هذه الحقيقة العلمية – في أوروبا (وليـس العالم) في عصر النهضـة الأوروبية هو العالـم البولندي نيكولاوس كوبرنيكوس (1473–1543) الذي لم يجرؤ أصلًا على نشـر اكتشافه في حياته خوفًـا من الكنيسـة (خوفًا من قيام محاكـم التفتيش المسـيحية بإحراقه حيًّا)، وأوصى بنشرها بعد موته.

العالم الشـجاع جاليليـو عالـم ذكي كان قد قام بتطوير اختراع التلسـكوب بعـد وصولـه إلى أوروبـا، عالم قـام بالتحقق من خـلال تلسـكوبه من صحة اكتشاف كوبرنيكوس، ذلك قبل أن يأخذ على عاتقه وهب حياته من أجل نشر «الحقيقة» على العالم.

جاليليـو كان مسـيحيًّا مؤمنًـا! إلا أنه كان مسـيحيًّا مفكرًا أصـر على أن أية تعاليـم «حقيقيـة» تتحـدث عنهـا الكنيسـة أو الكتـب المقدسـة لا يمكـن أن تتعـارض مـع «الحقيقة» (العلمية) التي نشـاهدها في الطبيعـة. بل إن جاليليو لـه في ذلك مقولة شـهيرة مفادهـا: الخلق كما أنتجه الـربّ لا يمكن أن يكون مختلفًا في الكتب المقدسة مقارنة بما هو عليه في الطبيعة.

أما الرائع تاريخيًّا فهو احتكام جاليليو أثناء محاكمته أمام كنيسـة الفاتيكان إلـى مبـدأ كان القديـس أوجسـتين (354–430 ميلاديـة) مؤسـس المذهـب الكاثوليكـي (كنيسـة الفاتيـكان) كان قـد أسسـه فـي مطلـع القـرن الخامس

الميـلادي، المبـدأ القائل: «الحقيقة لا تعارض الحقيقة»! مبدأ سـيتكرر ذكره كثيرًا في هذا الكتاب!

تأكيـد علمـاء أوروبا بعد ذلك بسـنوات في عصر التنويـر الحقيقة العلمية – أن المـادة تتفاعـل وتخلق بصـورة تلقائية دون تدخـل أي خالق خارجي – لـم يكـن أقل خطورة (على تعاليم الكنيسـة) من اكتشـاف الحقيقة العلمية أن كوكب الأرض ليس في مركز الكون، بل كان أشد خطورة وأعظم تأثيرًا بكثير جـدًّا؛ ذلك أنـه أدى إلى ظهور تحدٍّ لمعتقدات الكنيسـة في عصر لم يكن من الممكن إسكات فيه الرأي الآخر، عصر الحرية الفكرية الذي كان قد بدأ يهل على أوروبا في مطلع عصر التنوير!

هكذا ظهر في أوروبا جيل من المفكرين يحاول فهم التداعيات الروحانية – أو اللاروحانية – لهذه الاكتشافات العلمية التي لا تقبل الشك. جيل جديد من المفكرين الفلاسفة الباحثين عن بديل لتعاليم الكنيسة.

كان رائـد هذا الجيـل الجديد من المفكرين الفيلسـوف البريطاني توماس هوبز (1588– 1679) واحد من الفلاسـفة المهمين الذين قاموا بدور محوري في تاريخ تطور الفكر الإنسـاني. توماس هوبز هو مؤسـس «الفلسـفة المادية الحديثـة»، فلسـفة هدفت لفهـم الحقيقة – حقيقة الوجـود – من خلال منطق مسـتقل بعيدًا عن تعاليم الكنيسة، فلسـفة جديدة انطلقت من القاعدة العلمية الثابتـة أن المادة منتجة وخالقة بصورة مسـتقلة «دون أي تدخل خارجي»، بل فلسفة تطورت سريعًا لتصبح ربما أهم الفلسفات المؤثرة في فكر الإنسان في عصر التنوير ثم العصر الحديث إلى يومنا هذا!

أصـر تومـاس هوبـز علـى أن كل هذا الكـون وكل مـا يحتـوي عليه على المسـتوى «الظاهر» لأعيننـا ما هو إلا عالم مادي لا يتكون – على المسـتوى الأدق – إلا من مواد مختلفة تتفاعل معًا لتخلق مواد أخرى وكائنات حية دون

أي تدخل خارجي، ودون أي احتياج لأي خالق «منفصل» عن الطبيعة يتدخل في شئونها كما ادعت الكنيسة.

إلا أن هوبـز أصـر أيضًا علـى أن المادة تظهـر «عمقًا» محيـرًا يظهر لنا من خـلال تفاعلاتها الخلّاقة المنتجة، ألا وهو ارتباطهـا واعتمادها على «باطن» لا نراه مسـئولًا عن نظام التفاعل التلقائي الخَلّاق المتكرر بصورة «ممَنهَجَة » و«منَظَّمَة»!

هكذا أسس الفيلسوف البريطاني توماس هوبز في بداية عصر التنوير فكرًا أوروبيًّا جديدًا لا يسـتبعد وجود نظام دقيق – نظام باطن – منظم لهذا الكون، فكـرًا لا يسـتبعد وجود «مصـدر باطن» رغم إصراره على رفـض مبدأ الخالق المنفصـل عن المخلوقات المتدخل في شـئونهم من خارجهم. هكذا أسـس هوبـز «الفلسـفة الماديـة» وهكذا ظهر الماديـون (غير الملحديـن حتى الآن) المؤمنون بأن نظام الكون قد يدل على باطن أعمق.

لكـن سـريعًا أيضًـا ما أصبح تومـاس هوبز – أبـو الماديـة الحديثة – أحد أقل الفلاسـفة المفهومين وربمـا أحد أكثر الفلاسـفة المظلومين في التاريخ، وسـريعًا ما انقسم الماديون من بعد توماس هوبز إلى فريقين متنازعين فكريًّا؛ ذلـك أن رفـض «الفلسـفة المادية» المتـوارث التاريخي الداعـي إلى الإيمان بخالق «منفصل» عن الطبيعة ترتب عليه نوع من الخلط بعد استيعاب البعض له على أنه رفض شامل لمبدأ الخالق برمته، إرساءً لمبدأ أن الطبيعة تعمل دون حاجـة إلى أي نظـام (أي خالق) من أي نوع، بما في ذلـك مبدأ النظام الباطن (مبدأ الخالق الباطن) المستَشَـف نوعًا ما من فكر توماس هوبز مؤسـس هذه الفلسفة. وهكذا تطورت الأمور لتأخذ منعطفًا جديدًّا أدى إلى ظهور «المادية الإلحاديـة» كإحدى الفرق المادية التي سـريعًا ما أصبح لهـا الكلمة العليا في أوروبا إلى يومنا هذا.

أشـهر الماديـين الملحدين – الذين عرفـوا أيضًا باسـم الماديين المتطرفين – هما الفرنسـيان ديـدرو (1713–1784) ودولبـاخ (1723–1789) اللذان رفضا جملـةً وتفصيلًا مبدأ وجود أي «باطـن» منظّم للمادة والطبيعة، مصرين على أن «الصدفة» هي ما مكّن ويمَكّن – في كل آن وحين – المادة من أن تصبح كيانات متفاعلـة ومنتِجة، أن نشـأة الحياة من المادة – على سـبيل المثـال – لم تكن إلا نتيجة لسلسلة طويلة من التجربة والخطأ في تفاعلات أنواع المادة التي أنشأتها!

ما يدعو إلى التسـاؤل والاسـتغراب هو أن الماديـين الملحدين لم يفطنوا إلـى أن مجـرد ظهور «نتيجة» لأي تفاعل مادي يحتّـم لا محالة وجود «نظام» (نظام باطن) مسـئول «أصلًا» عن توفير نتيجة للتفاعل بدلًا من أن يصبح هذا التفاعل مجرد تلامس عقيم للمادة (مثل تلامس حبات الرمال).

دع جانبًـا الحقيقـة العلمية القائلة بـأن مجرد تكرار وتوافق النتائج نفسـها عند تكرار التفاعلات نفسها دليلٌ صريح على وجود «نظام كوني واحد مطلق شـامل» (نظام واسع لكل شيء محيط بكل شـيء) فهذا ما يمَكِّن بل ويضمن تكرار النتائج نفسها عند تكرار التفاعلات نفسها!

التحليـل ممتـد. النظـام الباطـن هو أيضًـا ما مكّن إنشـاء الإنسـان العلوم المختلفة، فدون هذا «النظام الباطن» – الضامن لتوافق التجارب عند تكرارها كل مـرة في المعمل – ما كانـت علوم مثل علوم الفيزيـاء والكيمياء والأحياء والطب لتنشأ أصلًا.

مبدأ الصدفة مبدأ يتطلب نتائج عشوائية غير متوافقة – تكرارًا – عند إعادة التجارب نفسها، الحديث عن الصدفة حديث يرفضه العقل تمامًا كما يرفض العلم أي حديث عن مبدأ الخالق المنفصل عن خلقه!

في جميع الأحوال، هكذا نشأ الإلحاد في عصر التنوير.. إلحاد قائم على «الافتراض» أن المادة هي المكوّن «الأصلي» للكون، مكوّنه الذي يتفاعل وينتج (يخلق) عن طريق الصدفة، مكونه «المستقل» الذي لا يعتمد على أي مصدر باطن. إلحاد يدافع عن المبدأ الذي أرساه الفرنسي ديدرو: إذا عجز «المنطق» (العلم) عن اكتشاف خالق فلا جدوى من البحث عنه أو الإيمان به.

وعليه، شهدت السنوات والقرون اللاحقة صراعًا فكريًّا بين هذه الأطراف الثلاثة - الكنيسة، الماديون، والماديون الملحدون.. نزاعًا فكريًّا وعقائديًّا استمر دون فصل فيه قرنين من الزمان.. كل ذلك قبل أن يظهر فجأة - في منتصف القرن العشرين - اكتشاف علمي جديد غير متوقع بالمرة؛ ليقلب موازين هذا النزاع رأسًا على عقب.

عالم ما تحت الذرة:
سقوط المادية الإلحادية

شـهد منتصـف القرن العشـرين ثـورة علمية مفاجئـة وغيـر متوقعة قلبت الموازين والأسس التي أقام عليها الملحدون الماديون منطقهم الرافض مبدأ اعتماد المادة على مصدر «باطن» (خالق باطن) مصدرًا لوجودها ولتفاعلاتها التلقائية الخلّاقة.

كانـت مقدمات هذه الثورة العلمية قد بدأت مع اكتشـاف غير مقصود قام به العالم البريطاني تومسـون (1856–1940) قبل بداية القرن العشـرين بثلاث سـنوات في عـام 1897، وذلك أثنـاء قيامه بتجارب ومحـاولات عديدة لفهم طبيعة ظاهرة «الكهرباء» التي مثل اكتشافها آنذاك نقلة حضارية جديدة (يكفي أن نتخيّل حياة الإنسان على كوكب الأرض دون كهرباء).

أدت تجارب تومسـون إلى اكتشـاف الحقيقة العلمية أن الكهرباء ليست إلا ناتـج مـرور «شـيء غامـض» بين الـذرات المتصلـة المكوّنة للأسـلاك المعدنيـة. وعندمـا حاول العالـم البريطاني فهـم ما هذا الـذي يمر «داخل» هذه الذرات المتصلة على هيئة سلك معدني، اكتشف تومسون وجود شيء أصغـر من الـذرة أطلق عليه لقب «الإلكترون» Electron (اسـم مشـتق من Electricity والتـي تعني كهرباء بالإنجليزية)، فالكهرباء ليسـت إلا ظاهرة مرور الإلكترونات من ذرة إلى أخرى داخل الأسلاك المعدنية.

اكتشاف العالم البريطاني تومسون أخذ علماء العالم بالدهشة؛ ذلك أنهم اكتشفوا أن الافتراض بأن الذرة هي أصغر وأدق تكوين في هذا الكون ما هو إلا افتراض قديم خاطئ، أسطورة من الماضي لا تمت للحقيقة العلمية بأي صلة.

تبع اكتشاف الإلكترون ببضع سنوات اكتشاف البروتون، ثم اكتشاف النِيوترون، مكونات الذرة الثلاث، وهكذا بدأ العلماء في اكتشاف عالم ما تحت الذرة (جميع الذرات تتكون من بروتونات وإلكترونات في المقام الأول، ولن نتحدث كثيرًا عن النِيوترون الذي يطابق البروتون في كل شيء إلا أنه عديم الشحنة كما سنرى).

الإلكترون تكوين عجيب يظهر «شحنة» كهرومغناطيسية طبيعية يطلق عليها العلماء لقب «الشحنة القطبية السلبية»، وهو دائم الانجذاب بفضل هذه الشحنة الكهرومغناطيسة إلى البروتون الموجود في نواة الذرة.

البروتون تكوين عجيب آخر يظهر شحنة كهرومغناطيسية طبيعية مضادة (لشحنة الإلكترون) يطلق عليها العلماء لقب «الشحنة القطبية الإيجابية». (البروتون يتكون بدوره من ثلاث وحدات أصغر يطلق عليها العلماء لقب «الكوركس» كما اكتشف بعد ذلك في ستينيات القرن العشرين كما سنرى).

التجاذب التلقائي بين هاتين الشحنتين القطبيتين الطبيعيتين (الشحنة الإيجابية والشحنة السلبية) هو تحديدًا ما ينشئ التجاذب والتفاعل الكهرومغناطيسي بين البروتونات والإلكترونات، لتنشأ بذلك الذرات المختلفة على هيئاتها المادية المتنوعة التي نشاهدها في الطبيعة. أبسط أنواع الذرة هي ذرة الهيدروجين التي تتكون من بروتون واحد وإلكترون واحد، ويعتمد نوع كل ذرة من الذرات المختلفة على عدد (متكافئ) خاص به من البروتونات والإلكترونات المتجاذبة المتفاعلة معًا.

ذرة الكربـون مثـلاً تتكـون من سـتة بروتونـات وسـتة إلكترونـات.. ذرة الأكسجين تتكون من ثمانية إلكترونات وثمانية بروتونات. كل هذا الاختلاف الجذري بين طبيعة (شكل وخصائص) الكربون من جانب وطبيعة الأكسجين مـن جانب آخر ينتـج عن اختلاف عددي يـكاد لا يذكر في عـدد البروتونات والإلكترونات المكونة لكل ذرة منهما!

ذرة الحديد ذرة متوسـطة الحجم نسـبيًّا تتكون من سـتة وعشرين بروتون وسـتة وعشـرين إلكتـرون.. ذرة الذهـب ذرة كبيـرة نسـبيًّا تتكـون من تسـعة وسـبعين بروتون وتسعة وسـبعين إلكترون.. كل هذا الاختلاف الجذري بين الذهب والحديد ينتج بسبب اختلاف عدد البروتونات والإلكترونات المكوّنة لكل منهما!

هناك سرٌّ ما. السر مفاجأة كبرى!

اكتشـاف عالـم ما تحـت الـذرة أقنع العلمـاء بضرورة إنشـاء علـم جديد متخصص في دراسـة مكوناتها.. وهكذا أنشـأ علماء الفيزياء في مطلع القرن العشرين ذلك العلم الذي أصبح يعرف حتى الآن تحت ثلاثة أسماء مختلفة: الاسم الأول هو علم «فيزياء الذرة»، الاسم الثاني هو علم «جزيئات الفيزياء»، الاسم الثالث هو علم «الكوانتم» كما أصبح يشار إليه خصوصًا بعد الطفرات والاكتشافات العلمية الأحدث.

إنـه تحديـدًا ذلك العلم الـذي تطور كثيرًا بعـد ذلك فـي أربعينيات القرن العشـرين حتى اكتشـف الحقيقـة العلمية أن «شـطر الذرة» يولـد طاقة هائلة، فجـاءت بذلك القنبلة الذرية التي ألقيت علـى اليابان وأنهت الحرب العالمية الثانيـة (البحـث العلمـي هو مـا مكّن انتصار فريـق دول على الآخـر، وهو ما يمَكن أيضًا ريادته التكنولوجية والاقتصادية اليوم).

ربمـا يندهـش القـارئ إذًا عندما يعلـم أن هـذا العلم واجـه صعوبات بل وإخفاقات كثيرة في بدايته، إلا أن درس التاريخ الأهم يؤكد لنا مرارًا وتكرارًا أن هـذا هو حـال أغلب البدايات بصفة عامة: الفيصـل على طريق النجاح هو دوام السعي والمحاولة!

جـاء الإخفـاق فـي البداية – بـل وخلال الأربعين سـنة الأولـى من القرن العشـرين – بسـبب اعتمـاد علمـاء هـذا العلـم الناشـئ آنـذاك علـى نمـاذج وافتراضـات خاطئـة فـي دراسـتهم جزيئات الـذرة؛ ذلـك أنهم اعتقـدوا في البداية ولمدة عشـرات السـنوات أن الجزيئـات المكوّنة للـذرة (البروتونات والإلكترونات) هي نفسها أجسام مادية صغيرة – أي أنواع أدق من المادة.

وهكـذا ظـل علماء الفيزياء يحاولون دراسـة عالم ما تحـت الذرة – عالم الجزيئـات المكوّنـة للـذرة – من خـلال نموذج خاطـئ مازال شـائعًا خارج الدوائـر العلمية المتخصصة إلى يومنا هذا. إنـه تحديدًا ذلك النموذج القديم المفترض أن الإلكترونات تدور حول البروتونات الواقعة في مركز (أي نواة) الذرة تمامًا كما تدور الكواكب بفعل الجاذبية حول الشمس الواقعة في مركز المجموعـة الشمسـية.. نمـوذج لم ينجح فـي تحقيق أي فهـم حقيقي لطبيعة جزيئـات الذرة أو كيفية إنتـاج تجاذبها معًا لأنواع الذرات المختلفة من حديد أو ذهب... إلخ.

بـدأت الثورة العلمية الكبـرى – في علم الكوانتم – فـي أربعينيات القرن العشـرين بعد أن عصفت نتيجة تجربة واحدة فجأة بمشـمول الفكر والمنطق المعتاد في دراسـة الجزيئـات المكوّنة للذرة تمامًا كمـا عصفت نتيجة تجربة واحدة قبل ذلك (قياس سرعة الضوء) بفيزياء نيوتن!

كانت التجربة قد تمت كالتالي: تم وضع فيلم (من أفلام كاميرات التصوير التقليدية القديمة) داخل علبة معتمة لا توجد بها إلا فتحتان في واجهتها. بعد

ذلك قام العلماء بإطلاق إلكترون – كما تطلق الرصاصة – في اتجاه الفتحتين في واجهة العلبة. كانت هذه بكل بساطة هي التجربة.

بعد تحميض الفيلم وطبعه – للتعرف على سلوك الإلكترون أثناء الحركة – فوجئ العلماء بأن الإلكترون لا ينتقل كما تنتقل المادة عندما تقطع المسافة بين نقطتين: الإلكترون دخل العلبة من الفتحتين في الوقت نفسه! أما الأعجب فهو أن الإلكترون عاد مجددًا إلكترونًا واحدًا (لا يتجزأ) بعد دخوله العلبة من الفتحتين معًا!

هكـذا فوجئ العلماء بـأن طبيعة الإلكترون أبعد ما تكون عن طبيعة المادة مهمـا صغـرت أو كبرت، فالمادة – الرصاصة مثـلًا – لا يمكنها دخول العلبة من الفتحتين في الوقت نفسه! طبيعة الإلكترون – أثناء التنقل – شبيهة بطبيعة النور كطاقة تتنقل على هيئة أشعة (موجات كهرومغناطيسية).

إلا أن العلمـاء فوجئـوا أيضًا بأن طبيعة الإلكتـرون – بعد التنقل – أبعد ما تكـون عن طبيعة النـور: ذلك أن الإلكتـرون تحوّل مجددًا إلـى «كتلة واحدة متماسـكة» بعد دخوله العلبة من الفتحتين معًا، وهذا أبعد ما يكون عن طبيعة النور، وأقرب ما يكون إلى طبيعة المادة!

كادت النتيجـة – فـي أول الأمر – تذهـب بعقول العلمـاء كما حدث قبل ذلك عند قياس سـرعة الضوء، بل إن هذه النتيجة لوّحت مجددًا بمشكلة شبه أزلية (مشـكلة قد لا تقبل الحل أبدًا)، بعد أن جاءت هذه النتيجة هي الأخرى مناقضة لمنطق الإنسان! وهكذا انطلق علماء الكوانتم في رحلة بحثية جديدة لحل هذا اللغز الخاص بطبيعة «جزيئات الذرة»، وظلوا يحاولون دون جدوى بضـع سـنين. إلا أنه بسـبب دوام السـعي والمحاولة تحسـن الطالع، وتحول الفشل إلى نجاح!

قبـل نهايـة أربعينيات القرن العشـرين تمكّن عالم أمريكـي متخصص في علـم الكوانتم يدعى ريتشـارد فايمان (1918–1988) من حـل هذه المعضلة، وحصـل علـى جائـزة نوبل فـي العلوم نظيـر اكتشـافه العلمي غير المسـبوق مثلما حصل آينشـتاين من قبله على الجائزة نفسها بعد اكتشافاته ونظريته التي أعادت تأسـيس علم الفيزياء، بل إن اكتشاف فايمان العلمي غير المسبوق في فهـم طبيعـة الأجزاء المكونة للذرة شـكّل ثورة علمية في فهـم عالم ما تحت الذرة – وإعادة تشـكيل علم الكوانتم – تمامًا مثلما شـكّل اكتشـاف آينشتاين «نظرية النسـبية العامة» ثورة علمية غير مسـبوقة في فهم وإعادة تشـكيل علم الكون كما سنرى.

جـاء إنجاز فايمـان التاريخي بعد أن أدرك أن عالم مـا تحت الذرة – عالم أجـزاء الذرة –يرتبـط هو الآخر بمسـتوى آخر من الواقع الـذي يصعب على عقـل الإنسـان تصـوره، واقـع ليس لـه أي علاقة بالمنطـق المعمـول به على مستوى حياتنا اليومية تمامًا كما هو الحال مع التفاعلات الكونية الأعظم كما أسس آينشـتاين قبل ذلك. محاولة فهم عالم ما تحت الميكروسكوب الذري (مسـتوى الذرة) – تمامًا مثل محاولة فهم عالم ما وراء التلسـكوب (مستوى الكون) – تتطلب التحرر من المنطق التقليدي للإنسان!

اكتشـف فايمـان أن ما ظنـه العلماء وأسـموه «أجزاء الذرة» ليسـت أصلًا «أجـزاء من المـادة»، وإنما هي فـي الحقيقة «أشـكال من الطاقـة» (كوانتم)، تكوينات مشتقة من النور! إنها حالات من الوجود التي لا يمكن تخيلها أصلًا على مسـتوى خبرتنا أو مشـاهدتنا اليومية، حالات من الوجود تتوسـط طبيعة النور من جانب وطبيعة المادة من جانب آخر!

هـذا تحديـدًا ما دفع فايمان إلى اسـتحداث اسـم جديد لها فـي القاموس العلمـي: «الموجـات الجزئية». طبيعـة «الموجات الجزئيـة» العجيبة – تلك

الطبيعـة التي تتوسـط طبيعـة النور من جانب وطبيعة المـادة من جانب آخر – هي تحديدًا ما جعل الإلكترون يظهر لنا (أثناء التجربة) صفات من الموجات وصفات من الجزيئات، أي صفات من «النور» وصفات من «المادة».

لـم تقـف الأمور عند هذا الحد.. لم يكن هذا الاكتشـاف إلا بداية سلسـلة طويلة من المفاجآت التي كانت على وشك أن تقلب منطق الإنسان (على هذا المستوى أيضًا) رأسًـا على عقب، اكتشافات علمية كانت تقترب رويدًا رويدًا – دون قصد – من اكتشاف تفاصيل المراحل الأولى في قصة الخلق، تقترب من اكتشاف قصة نشـأة هذه الموجات الجزئية التي أنشأت الذرات المختلفة، ذلك قبل أن تنشـئ هذه الذرات المختلفـة بدورها أنواع المادة على اختلافها، وقبل أن تنشئ أنواع المادة هذه الكائنات الحية، كل ذلك كما سنرى.

كان الطالع حسنًا بسبب استمرار تطوير أدوات وتقنيات البحث العلمي.. تطويـرًا مدهشًـا من بعـد تطوير مدهش. نحن الآن في السـنوات التي سـبقت وصول الإنسـان إلى سـطح القمر – في ستينيات القرن العشرين – واستمرت بعد انطلاق رحلات الفضاء إلى أماكن أبعد داخل المجموعة الشمسية. تقدم علمي مذهل يزداد سـرعة، معامل عملاقة مجهـزة بمختبرات قياس وتصوير – تمتـد تحـت الأرض كيلـو مترات عديدة دون انقطاع – لدراسـة وتصوير «الموجات الجزئية» (الكوانتم) أثناء تنقلها على سـرعاتها الطبيعية المشـابهة لسـرعة الضوء (بما إن هذه الموجات الجزئيـة طاقة من نور)، معامل عملاقة أتاحت اكتشافات علمية جديدة متلاحقة زادت العلماء ذهولًا ودهشة.

سلسـلة المفاجآت العلمية التي كشـفت في النهاية عـن تفاصيل المراحل الأولـى فـي قصـة الخلـق – بـدأت باكتشـاف عجيب غيـر متوقـع: النور هو المصدر الذي أنشأ الموجات الجزئية (البروتونات والإلكترونات) من باطنه!

يمكن أن ينقسـم شعاع النور تحت ظروف خاصة جدًّا كما يحدث داخل هذه المختبرات العملاقة ليتحول بذلك النور – هو ذاته – إلى زوج (أي اثنين) من الموجـات الجزئية، موجتين جزئيتين متطابقتين في الحجم والتكوين وجميع الصفات، متضادتين في الشـحنة الكهرومغناطيسية (واحدة إيجابية والأخرى سلبية).

الإلكتـرون والبوزيتـرون مثـلًا (مختلـف عـن البروتون) همـا أحد أطقم (زوج) الموجات الجزئية التي يمكن أن تنتج عن عملية انقسـام (فتق) شـعاع النـور. الإلكتـرون والبوزيتـرون موجتـان جزئيتـان متطابقتـان فـي التكوين، متضادتـان فـي الشـحنة الكهرومغناطيسـية، الإلكتـرون يظهر شـحنة سـلبية والبوزيترون يظهر شحنة إيجابية، وعملية الفتق المسئولة عن إنشائهما تسمى «تفاضل النور» في لغة الفيزياء والرياضيات.

كان الاكتشـاف ثورة علمية جديدة أغرب مـن الخيال، ثورة علمية تخبرنا بـأن النور ليس مجرد موجات كهرومغناطيسـية أو ضوء كمـا ظن العلماء في الماضـي ويظـن الناس بصفة عامة إلى يومنا هذا! ثورة علمية تخبرنا بأن النور يشمل ما هو أكثر بكثير مما نعتقد!

ثـورة علميـة تخبرنـا بـأن النـور – فـي حقيقتـه العلميـة الأدق – ليـس إلا «الظاهـر» مـن نظام باطن عجيـب مُتَجَلٍّ على هيئة نـور: «نظام باطن» ذي قدرة عجيبة على إنشاء الموجات الجزئية من «باطن» هذا النور!

يعتمـد نوع كل موجـة جزئية على قدر (كثافة) الطاقـة النورانية المتفاضلة إنشـاءً لهـذه الموجة الجزئيـة تحديدًا، تفاضـل موجات النور كثيفـة الطاقة – أشـعة إكس مثـلًا – ينتج موجـات جزئية من نـوع مختلف تمامًـا عن تفاضل موجات النور الأقل كثافة مثل الأشعة تحت الحمراء.

الإلكتـرون و«البوزيترون» (وليس البروتون) المنبثقـان من «باطن» النور لم يبقيا في المختبر العملاق إلا جزءًا لا يذكر من الثانية؛ ذلك أن التطابق التام فـي تكوينهمـا إضافة إلى أن التضاد التام بين شـحنتيهما يـؤدي إلى تجاذبهما فور تكونهما ليتحدا بصورة «تامة»، وهكذا «يبطلان» بعضهما بعضًا؛ ليتحولا مجـددًا إلى شـعاع من النـور تمامًا كما كانوا قبـل عملية تفاضل شـعاع النور إنشاءً لهما!

إلا أن تجربة «تفاضل النور» ظَلَّت إنجازًا علميًّا رائعًا كافيًا للكشـف ليس فقط عن الحقيقة أن النور هو «المصدر» المسئول عن إنشاء الموجات الجزئية كطاقة نورانية ثانوية عجيبة مسئولة بدورها عن إنشاء الذرة (وبالتالي المادة ثم الكائنات الحية)، بل للكشف أيضًا عن الحقيقة أن كل ذرة (وبالتالي كل مادة وكل حياة) موجودة في هذا الكون تعتمد في اسـتمرار وجودها على طاقة من نور تمكنها من ذلك!

كان الاكتشـاف ثورة علمية جديدة في المعرفة، الذرة ليسـت شـيئًا أصليًّا كما ظن الماديون الملحدون، الذرة – هي ذاتها – شـيء ثانوي التكوين تمامًا مثل الكائنات الحية. العبارة القائلة نفسها بأن الكائنات الحية ليست أول أنواع الوجـود – إن الكائنـات الحية تعتمد على المادة (وبالتالـي على أنواع الذرة) في تكوينها واستمرار وجودها – يمكن تكريرها فيما يخص الذرة:

الـذرة «ليسـت» أول أنـواع الوجـود، الذرة تعتمـد على الكوانتـم (تعتمد علـى طاقة من نور) في تكوينها وفي اسـتمرار وجودهـا.. وهكذا تبدأ المادية الإلحادية – بل المادية برمتها – في السقوط!

لم تكن نتيجة تجربة «تفاضل النور» في المختبرات العملاقة بالطبع نظرية في النشـأة (لم تكن نظرية في الخلق) بصورة شـاملة رغم كونها خطوة مهمة

فـي هـذا الاتجاه. أي نظرية في نشـأة الكون كان يجب أن تكـون نظرية كاملة متكاملة على جميع المستويات، بما في ذلك المستوى الأشمل مستوى نشأة الكون – بما يشـمله من فضاء وزمن ونجوم وأجرام سـماوية وظواهر طبيعية – وليس فقط ما يشـمله من ذرات ومادة وحياة. أي نظرية في نشأة الكون كان يجب أن تجيب أيضًا عن السـؤال: من أين جاء أصلًا هذا النور المنشـئ لهذه الموجات الجزئية المنشئة بدورها للذرة ثم الكائنات الحية؟!

الاتحـاد التام بين الإلكترون والبوزيترون (وليـس البروتون) – وزوالهما بعد إبطالهمـا بعضهما بعضًا عند تجاذبهما في المختبر العملاق – هو بالطبع النقيـض التام لمـا يحدث أثناء تجـاذب وتفاعل البروتون والإلكترون إنشـاءً للذرة. حقيقي أن الإلكترون والبروتون موجتان نورانيتان تتجاذبان معًا بسبب تعاكس شحنتيهما تمامًا مثلما يحدث بين الإلكترون والبوزيترون في المختبر العملاق، إلا أن عـدم تطابق قدر الطاقة النورانية المكوّنة لكل منهما يمنعهما من الاتحاد التام وبالتالي يمنعهما من البطلان والزوال!

الطاقـة النورانيـة المكوّنـة للبروتـون أكبـر مـن الطاقـة النورانيـة المكونة للإلكترون حوالي ألفي مرة! هذا الاختلاف الجوهري في قدر النور المنشـئ لـكل منهما هـو تحديدًا مـا يمنعهما من الاتحـاد التام، ويمنعهمـا بالتالي من البطلان والزوال، بل يؤدي على العكس تمامًا من ذلك إلى حفظهما واستمرار تفاعلهما معًا –نورانيًّا كهرومغناطيسـيًّا– إنشـاءً للذرة. النور ليس فقط النظام المنشـئ للبروتـون والإلكترون مـن باطنه، وإنمـا أيضًا «المانـع» الذي يمنع بطلانهما، و«الحفيظ» القائم على حفظهما من الزوال!

قدر النور المنشـئ للاختلاف بين الإلكترون والبروتون سـخرهما إنشـاءً للـذرة – علـى عكس ما يحـدث بيـن الإلكتـرون والبوزيترون، لتنشـأ بذلك

الـذرة، ولتكون بدورها وحدة إنشـاء كل تكوين مادي في هـذا الكون بما في ذلك الكائنات الحية.

الاختلاف في قـدر النور المكوِّن للبروتون مقارنة بالإلكترون هو تحديدًا مـا أتـاح وجودنـا اليوم لنكتـب ونقرأ هـذا الكلام! فمـا نحن (ومـا الكائنات الحية جميعًا) إلا تكوينات متكوّنة على المسـتوى العلمي الأدق من مليارات البروتونات والإلكترونات!

فـارق الحجـم الرهيب بيـن البروتـون والإلكترون هو أيضًا مـا يؤدي إلى انطلاق الإلكترون (الشـحنة السلبية) اتجاه البروتون (الشحنة الإيجابية) أثناء تجاذبهمـا، وهـو ما يضع بالتالي الشـحنة الإيجابية في أهم مـكان في الكون: مركـز أو نـواة الـذرة، أهم مكان في الكـون بما إن الذرة هي وحدة إنشـاء كل تكويـن موجـود في هـذا الكون، بما في ذلـك النجوم والكواكـب والكائنات الحية! كل ذلك كما سنرى.

انجذاب وتفاعل الإلكترون مع البروتون تفاعل نوراني عجيب منافٍ (هو أيضًا!) لمنطق الإنسان وخبرته المحدودة بما يحدث على مستواه. الإلكترون ينطلق في اتجاه البروتون على هيئة موجة من نور، إلا أنه يقطع المسافة الواقعة بينه وبين البروتون دون قطع المسـافة بينهما! الإلكترون يختفي فجأة (اختفاءً يدوم جزءًا لا يذكر من الثانية) قبل أن يظهر فجأة مجددًا!

الأعجب – والمنافي هو الآخر لمنطق الإنسان وخبرته – هو طريقة ظهور الإلكتـرون مجـددًا؛ ذلـك أن الإلكتـرون يظهر في مـكان آخـر جديد (حول البروتـون المكوّن لنواة الذرة) مكان مختلف تمامًا عن المكان السـابق الذي كان قد شـهد اختفاءه قبل ذلك، ظهور في مكان جديد دون قطع المسـافة بين نواة الذرة وهذا المكان الجديد!

فشل الإلكترون في الاتحاد التام مع البروتون المكوّن لنواة الذرة ينتج عنها تكرار مستمر متجدد للمحاولة بسبب استمرار عملية التجاذب القطبي الكهرومغناطيسي بينهما، لتستمر بذلك عملية اختفاء وظهور الإلكترون مجددًا حول نواة الذرة (في مكان مختلف في كل مرة). كل ذلك وكأن الإلكترون في حالة «نبض» نوراني حول نواة الذرة (حول البروتون)! نبض نوراني متكرر دومًا وأبدًا، لا يستهلك أي قدر من الطاقة!

إنها عملية الاتحاد والبطلان والزوال التي لا تتم وتفشل في كل مرة تتكرر فيها لعدم تطابق قدر النور المكوّن للإلكترون مع قدر النور المكوّن للبروتون!

النبض النوراني ينشئ «تيارًا» نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا بين الإلكترون والبروتون (أو الإلكترونات والبروتونات) المكوّنة لكل ذرة من الذرات تمامًا كما تنشئ البطارية تيارًا كهربائيًّا. الفارق طبعًا هو أن التيار الكهرومغناطيسي هذا تيار نوراني سارٍ بين الإلكترونات والبروتونات المكوّنة للذرة والتي (البروتونات والإلكترونات) هي بدورها ليست إلا موجات نورانية أصلًا!

هذا النبض النوراني – وهذا التيار النوراني – هو تحديدًا ما ينشئ الذرة! إنه سر وجودها وبالتالي سر وجود كل شيء في هذا الكون! التيار النوراني الناتج عن تكامل وتفاعل الموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات) المكوّنة لها معًا هو تحديدًا ما ينشئها (الذرة) على ما هي عليه من طبيعة مادية!

الذرة في حقيقتها العلمية الأدق ليست إلا «تيارًا نورانيًّا» كهرومغناطيسيًّا (وليس تيارًا كهربائيًّا!). الذرة ما هي إلا «دائرة نورانية كهرومغناطيسية طبيعية» متكوّنة من موجات نورانية، و«التيار النوراني» هو –وهو فقط– ما أنشأ الذرة بعد أن لم تك شيئًا!

النبض النوراني – المسئول عن إنشاء التيار النوراني المنشئ للذرة – نبض متكرر بسرعة نورانية لا يمكن بطبيعة الحال تخيلها! سرعة تتحول معها الثانية الواحدة (على مستوى الذرة) إلى زمن طويل جدًّا يفوق الآلاف من السنين مقارنة بسرعة نبض الإنسان (على سبيل المثال وليس الدقة)! سرعه فائقة لا تمكّن الإنسان من ملاحظة أي تغير في حال الذرة أو المادة! لتبدو لنا بذلك في هيئة مادية، وكأنها لا تنبض!

إنه نبض الذرة (نبض المادة) الذي سبق نبض الحياة! بل إن هذا النبض النوراني هو تحديدًا – وهو فقط – ما سيمكّن بعد ذلك تَجَلّى نبض الحياة من باطن المادة (تكوينات الذرة) كما سنرى، لينشأ بذلك نبض «الحي» من نبض «النور» ولتنشأ بذلك الحياة من المادة!

اقتربنا الآن من المفاجأة الكبرى: كنَّا قد ذكرنا أن عدد البروتونات والإلكترونات هو تحديدًا ما يحدد «نوع» كل ذرة، أن ذرة الكربون تتكون من ستة إلكترونات وستة بروتونات، وأن ذرة الأكسجين تتكون من ثمانية بروتونات وثمانية إلكترونات. لغز محيِّر أن يكون كل هذا الاختلاف الجوهري المذهل بين طبيعة الكربون وطبيعة الأكسجين اختلاف ناشئ بسبب تغير يكاد لا يذكر في عدد البروتونات والإلكترونات!

كنَّا قد ذكرنا أيضًا أن ذرة الحديد تتكون من ستة وعشرين بروتون وستة وعشرين إلكترون، وأن ذرة الذهب تتكون من تسعة وسبعين بروتون وتسعة وسبعين إلكترون، لغز محيِّر أن يكون كل هذا الاختلاف المذهل بين طبيعة الحديد وطبيعة الذهب اختلافًا ناشئًا لمجرد تكون ذرة الذهب من عدد أكبر من البروتونات والإلكترونات!

لغـز عجيب أن يكون كل هذا الاختلاف الشـديد المذهل بين أنواع جميع الـذرات الموجـودة في هـذا الكون مجـرد اختلاف فـي «عـدد» البروتونات والإلكترونات المتفاعلة معًا تكوينًا لكل نوع من أنواع هذه الذرات!

ذكرنـا أيضًـا أن الذرة ليسـت فـي حقيقتها العلميـة الأدق إلا تيـارًا نورانيًا كهرومغناطيسيًا!

حـل هـذا اللغز العجيب - المفاجـأة الكبرى - يكمن فـي فهم طبيعة هذا التيار النوراني المنشـئ للذرة: كل نوع من أنـواع الذرة يتكون من تيار نوراني كهرومغناطيسـي «فريد» في قـدره وتكوينه. ذرة الكربون مثـلاً ما هي إلا تيار نوراني فريد في قدره ناتج من دائرة نورانية كهرومغناطيسـية متكوّنة من سـتة بروتونات وسـتة إلكترونات. ذرة الأكسجين ليست إلا تيارًا نورانيًّا آخر فريدًا أيضًا في قدره - تيار نوراني مختلف - ناتج من دائرة نورانية كهرومغناطيسية متكوّنة من ثمانية بروتونات وثمانية إلكترونات.

الفارق بين ذرة الأكسجين وذرة الكربون لم ينشأ بسبب زيادة عددية جوفاء في عـدد البروتونات والإلكترونـات المكوّنة لكل منهما، بل نشـأ لتكون كل ذرة منهمـا من تيار نوراني مختلف، أي لتكوّن كل ذرة منهما من قدر مختلف من النور المنشئ لها!

كذلـك الفـارق بيـن طبيعة الحديـد وطبيعة الذهب لم ينشـأ لمجـرد تغير سـطحي فـي عـدد البروتونـات والإلكترونات المكونـة لكل منهما، بل نشـأ لاختـلاف قـدر التيار النوراني - قدر النور - المنشـئ لكل منهما. قدر محدد مـن النور هـو -وهو فقط- ما ينشـئ الحديد، قدر آخر مختلـف من النور هو -وهو فقط- ما ينشـئ الذهب! أي إن قدر التيار النوراني (قدر النور) المنشئ لكل ذرة هو -وهو فقط- ما يحدد نوعها!

هنا تبدأ أولى مستويات المفاجأة الكبرى: التيارات النورانية المختلفة ما هي – في حقيقتها العلمية الأدق – إلا تيارات نورانية «معلوماتية» مسئول كل تيار مختلف منها عن إنشاء نوع مختلف من أنواع الذرات!

والبروتونات والإلكترونات المكَوّنة لكل تيار من هذه التيارات النورانية المعلوماتية المختلفة بالتالي ليست إلا وحدات نورانية «معلوماتية»، وكأنها حروف «لغة باطنة» قائمة على إنشاء كل نوع من أنواع الذرة تمامًا كما تنشأ حروف اللغة المنطوقة الكلمات!

أي أن النور ما هو –في حقيقة العملية الأدق– إلا مظهر تَجَلّي «مصدر معلوماتي باطن» قائم على إنشاء و «تعريف» كل نوع من أنواع الذرات الموجودة في هذا الكون!!! «مصدر معلوماتي باطن» قائم ليس فقط بدور «المصدر» المسئول عن «تعريف» كل نوع من أنواع الذرات الموجودة في هذا الكون، ولكن أيضًا بدور «النظام» المسئول عن إنشائها جميعًا وعلى اختلاف أنواعها!!! إنه المصدر والنظام معًا!!!

هذه هي المفاجأة الكبرى!!! «المصدر المعلوماتي الباطن» –المُتَجَلّي نورًا– هو المفاجأة الكبرى كما يكشف عنها «علم الكوانتم» في مطلع القرن الواحد والعشرين!!! «ثورة جديدة في المعرفة» تقلب الموازين العلمية والفلسفية الأقدم رأسًا على عقب!!!

اعتقاد الماديين الملحدين بأن الذرة (المادة) لا تعتمد على أي «مصدر باطن» منشئ لها ليس إلا أسطورة قديمة من الماضي، أسطورة لا أساس لها من الصحة. اعتقادهم في الصدفة أساس لوجود الذرة (المادة) ليس إلا جهلًا بحقيقة اعتماد الذرة على «نظام» نوراني معلوماتي دقيق جدًّا منشئ لها بطريقة ممنهجة ومنظمة دون أي تجربة أو خطأ.. علم الكوانتم يسقط المادية الإلحادية بصورة قاطعة نهائية!

هكـذا تسـقط المادية الإلحاديـة! بل هكذا تسـقط المادية برمَّتِهـا! اعتقاد الماديين بأن «المادة» هـي المكوِّن الأصلي للكون ليس إلا اعتقاد خاطئ من الماضي.

اكتشـافات علـم الكوانتم الأكثر تقدمًـا لا تدع مجالًا إلا للتسـليم بحقيقة اعتماد نشـأة كل ذرة وبالتالي كل شـيء في هذا الكون على مصدر معلوماتي مطلق – مصدر باطن – مُتَجَلٍّ على هيئة نور.

النسبية العامة:

آينشتاين يكتشف حقيقة الكون

علم الكون هو علم الأكبر والأشمل لأنه العلم المختص بدراسة الكون ككيان واحد كبير. وعلم الكوانتم هو علم الأصغر والأدق لأنه العلم المختص بدراسة مكونات الذرة.

تلاقى العِلميْن في نظرية واحدة هو حلم العلماء؛ ذلك أن النظرية التي يبحث عنها العلماء لتوحيدهم معًا - «نظرية كل شيء» كما يطلق عليها - هي النظرية الواحدة التي ستمكنهم من شرح كل ظاهرة وكل تفاعل وكل شيء في هذا الكون من علم الأصغر إلى علم الأكبر.

بالطبع هذا لم يحدث بصورة كاملة بعد، إلا أن شيئًا في هذا الاتجاه قد حدث بالفعل بفضل اتفاق نظريات هذين العلمين على الحقيقة العلمية الأهم المؤسسة لكل منهما على حدة! الحقيقة أن النور هو المصدر المنشِئ لكل ذرة وكل مادة وكل حياة بل وكل تكوين موجود في هذا الكون! النور هو -وهو فقط- ما قد يمكِّن العلماء من اكتشاف «نظرية كل شيء»!

كان علم الكون قد توصل إلى هذه الحقيقة العلمية (إن النور هو منشئ كل شيء) بصورة مستقلة تمامًا عن علم الكوانتم وعالمه الأدق - بل وقبله بحوالي نصف قرن من الزمان - اعتمادًا على نوعية مختلفة تمامًا من الاكتشافات التي بدأت على مستوى «المادة» قبل أن تمتد سريعًا لتشمل «الكون» بصورة شاملة كاملة! اكتشافات لعب آينشتاين فيها الدور القيادي.

بـدأت قصة هذه الاكتشـافات في السـنة الأولـى من القرن العشـرين بعد أن تـداول العلمـاء بحماسـة الأمـل في النجـاح في زيـادة سـرعة الإلكترون (المكتَشـف حديثًا آنذاك) إلى «سـرعة الضوء»، ذلك أن اكتشـاف الإلكترون فـي عـام 1897 كان قد شـكَّل فرصة عظيمـة لتجاربهم الهادفة دراسـة إمكانية الوصول بأي جسم إلى هذه السرعة الفائقة.

حقيقـي أن الإلكتـرون نادرًا جدًّا مـا يتواجد بصورة حـرة طليقة (حرًّا من التجـاذب مـع البروتون فـي تكويـن ذري)، إلا أنه في هـذه الحالـة النادرة – عندمـا يتواجـد الإلكتـرون حرًّا طليقًا – فإنـه يتحرك في فضاء الكون بسـرعة مهولـة تقدر بحوالي 96٪ من سـرعة الضوء! وهذا تحديـدًا ما أصاب العلماء بالحماسـة، ذلك أنه كان يكفيهم زيادة سـرعة الإلكترون 4٪ فقط من سـرعته الطبيعية حتى يصلوا به إلى هذه السرعة القصوى.

في عام 1901 قام عالم الفيزياء الألماني كوفمان بإحدى أهم هذه التجارب. حـاول كوفمان زيادة سـرعة الإلكتـرون – كي تصل إلى سـرعة الضوء – من خـلال تزويد الإلكترون في المختبر بقدر هائل من الطاقة النقية الخالصة، أي تزويده بقدر هائل من النور.

فـي النهاية لـم يتمكن الإلكترون مـن الوصول إلى سـرعة الضوء. كذلك أدرك كوفمان – كما أدرك جميع العلماء بعد ذلك – عدم إمكانة زيادة سـرعة «الأجسـام» إلى سـرعة الضوء، وذلك حتى إذا تم تزويدهـا بقدر لا نهائي من الطاقـة (جميع تفاعلات الكوانتم المكتشـفة مؤخـرًا والمحتمل تحققها على سـرعات أعلى من سـرعة مرور الضوء في الفضاء تفاعـلات نورانية أصلًا لا علاقة لها بالأجسام المادية).

إلا أن شيئًا مهمًّا جدًّا حدث أثناء التجربة، لاحظ كوفمان أنه كلما زوّد الإلكترون بأشعة الطاقة (كلما زوّده بالنور) زاد حجمه – أي كبرت كتلته «المادية» – بدلًا من زيادة سرعته المنشودة.

هذه الملاحظة كانت تحديدًا ما جعلت آينشتاين يدرك بعد ذلك بأربع سنوات – عند اكتشافه نظرية النسبية الخاصة (المعنية بدراسة الضوء) في عام 1905 – أن تجربة كوفمان تعني ببساطة أن كل الأشكال والأجسام «المادية» (بما في ذلك الذرات والمواد والنجوم والكواكب والكائنات الحية) ما هي في حقيقتها العلمية الأدق والأعمق إلا تكوينات من نور!

هكذا وببساطة شديدة حقّق آينشتاين أحد أهم الاستنتاجات العبقرية المؤسِسة لعلم الكون – في مطلع القرن العشرين – وذلك قبل أن ينجح علم الكوانتم في اكتشافها بطريقة مختلفة تمامًا كما رأينا بعد ذلك بحوالي نصف قرن من الزمان، بل هكذا وضع آينشتاين المعادلة العبقرية الأكثر شهرة في العالم $E=MC^2$ والتي تعني بكل بساطة أن كلَّ شيءٍ في الكون يتكوّن من نور.

في عام 1916 وبعد أحد عشر عامًا من البحث (من بعد ظهور نظريته الأولى «النسبية الخاصة» المعنية في المقام الأول بدراسة الضوء) توصل آينشتاين إلى إنجازه التاريخي الأعظم، ألا وهو توسيع نظريته الأولى هذه لتصبح نظرية «النسبية العامة» – النظرية التي أسست «علم الكون» الحديث في بداية القرن العشرين!

نظرية «النسبية العامة» هي النظرية المعنية بشرح تكوين الكون وتفاعلاته على المستوى الأكبر والأشمل. إنه ذلك المستوى الذي يطلق عليه العلماء لقب المستوى «التلسكوبي» (البعيد)، وذلك إشارة منهم إلى أن ما بين هذا

المستوى التلسكوبي الأشمل من جانب والمستوى «الميكروسكوبي» الأدق (عالم ما تحت الذرة) من جانب آخر تنحصر جميع العلوم، فعندما نضيف إلى هذين المستويين مستوى الكيمياء ومستوى الأحياء (مستوانا) نكون قد حصرنا المستويات الأربعة التي تدرسها جميع العلوم.

نظرية النسبية العامة نظرية معنية بشرح تكوين الكون وتفاعلاته تمامًا كما يشرح الطب تكوين جسم الإنسان وتفاعلاته، بل إن نظرية النسبية العامة في شرحها للكون أدق من الطب في شرحه لجسم الإنسان! ذلك أنها تعتمد على معادلات رياضية دقيقة في شرح طبيعة تكوين هذا الكون وتفاعلاته، وهو ما لم يحدث حتى الآن في عالم الطب: الاستدلال على الحقائق العلمية وإثباتها من خلال المعادلات الرياضية هو قمة الدقة العلمية!

هذا تحديدًا ما مكّن الاعتماد عليها (نظرية النسبية العامة) ومعادلاتها الرياضية أثناء التجهيزات التي مكّنت الإنسان من الوصول إلى سطح القمر في ستينيات القرن العشرين، ثم في استكمال رحلات اكتشاف الفضاء، هذه الرحلات التي وصلت مؤخرًا إلى خارج المجموعة الشمسية من خلال مكوك آلي.

نظرية النسبية العامة امتداد لنظرية النسبية الخاصة التي تحدثنا عنها، والتي كانت قد أسّست أولى قواعد «الفيزياء الحديثة» بعد سقوط «الفيزياء الكلاسيكية» (فيزياء نيوتن)، تلك النظرية (النسبية الخاصة) التي كانت قد اكتشفت الحقيقة العلمية أن النور هو «المطلق» الوحيد في هذا الكون، وأن كلَّ شيء آخر «نسبي».

كنّا قد ذكرنا أن النور المرئي لعين الإنسان (شعاع الضوء) ما هو إلا جزء محدود من أنواع النور الموجود في هذا الكون (بما في ذلك الأشعة غير

المرئية كأشـعة إكس والأشعة تحت الحمراء المستخدمة في التحكم عن بعد فـي التلفزيون). كنّا قد ذكرنـا أيضًا أن «الفضاء» (السـماء) ليس خلفية فارغة بل بناء من أنسـجة نورانية (أشـعة غير مرئية لعين الإنسـان) منطلقة في جميع الاتجاهات.

تخبرنـا نظريـة النسـبية العامـة أول مـا تخبرنـا أن الكون ليس فـي حقيقته العلمية الأدق إلا جسـمًا نورانيًا واحدًا كبيرًا متَكَوِّن من أنسـجة نورانية (أشعة غير مرئية) تمامًا كما يتكون جسم الإنسان من أنسجة!

هذه الأنسـجة النورانية لا تتخلل الفضاء فقط، بل تتخلل أيضًا كل الأشياء الموجودة داخله بما في ذلك الذرات والمواد والنجوم والكواكب والكائنات الحية جميعًا بما في ذلك أجسـامنا. الأنسـجة النورانية المكونة للفضاء تمثل جزءًا لا يتجزأ من تكوين كل من هذه الأشياء تمامًا كما تكون الأنسجة المكَوِّنة لجسم الإنسان جزءًا لا يتجزأ من كل عضو من أعضائه! الفارق الوحيد هو أن هذه الأنسـجة النورانية المكوّنة للفضاء وما يشمله من أشياء أنسجة غير مرئية لأعيننا.

نظرية النسـبية العامة مكّنت آينشـتاين من شـرح ظاهرة الجاذبية لأول مرة فـي التاريخ بعد أن حيّرت العلماء كثيرًا لعجزهم عن الإجابة عن السـؤال: ما سِرّ تجاذب الأجرام السماوية (الأجسام المادية) عن بعد؟!

الأنسـجة النورانية – الأشعة المتخللة لكل شيء في الكون – هي تحديدًا مـا ينشـأ ويمَكِّن ظاهـرة الجاذبيـة! هذه الأنسـجة النورانيـة التي تمثـل جزءًا لا يتجـزأ من تكوين جميع الأشـياء بمـا في ذلك الأجرام السـماوية «تَصِلها» ببعضها كما تصل الأنسـجة بين أعضاء الإنسان، لتمَكِّن بذلك تفاعلها نورانيًا معًا وتجاذبها! الجاذبية ليست في حقيقتها العلمية المجردة إلا عملية «تفاعل

نوراني» يتم عن بعد بين الأجرام السماوية من خلال أشعة النور التي تكوّنها وتتخللها جميعًا في آن واحد!

هذا –وهذا فقط– ما يمكِّن من حدوث التفاعل والتجاذب – عن بعد – بين التفاحة وكوكب الأرض، لتسقط بذلك التفاحة على الأرض.. هذا وهذا فقط ما يمكن التفاعل والتجاذب – عن بعد – بين كوكب الأرض والشمس، ليدور بذلك كوكب الأرض حول الشمس. النور هو –وهو فقط– ما ينظّم العلاقات بين الأجرام السماوية في كل مكان في الكون.

كشفت نظرية النسبية العامة أيضًا عن أن تَخَلل هذه الأشعة النورانية (المكونة للفضاء) النجوم والكواكب وبقية الأجرام السماوية – تمكينًا لظاهرة الجاذبية هو وهو فقط ما يقوم «بحَمل» كل هذه الأجرام السماوية في فضاء هذا الكون، وكأن العلم أراد أن يشير إلى أن «النور» الذي لا نراه هو أيضًا «كرسي» وسع السموات والأرض (الكون)!

الأنسجة «النورانية» المكَوِّنة للفضاء (السماء) هي تحديدًا ما يجعل من الكون كيانًا ثلاثي الأبعاد يمكن الحركة داخله (بعد الحركة إلى أعلى وأسفل، بعد الحركة إلى اليمين واليسار، بعد الحركة إلى الأمام والخلف). النور (المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا) هو ما أنشأ السماء ورفعها وبناها!!

لولا النور – لولا المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا – لما كان هناك فضاء (سماء) أصلًا، ولما كان هناك بالتالي فرصة للحركة أو للتواجد في أي صورة ثلاثية الأبعاد، لولا المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا لما كان هناك وجود أصلًا!

بـل إن السـماء (الفضاء) تتكون مـن طبقات متداخلة من الأشـعة النورانية كما يتكون النسـيج من خيوط متداخلة تَطبق بعضها على بعض، أي إن السماء التي نراها تتكوّن من سموات نورانية طِباق متداخلة (لا نميّزها على مستوانا)، وذلـك تمامًا كما يتكون أيضًا اللـون الواحد من ألوان كثيرة متداخلة لا تميزها العين!

هذه الأشعة النورانية المتداخلة (هذه السموات الطِباق) جزءٌ لا يتجزأ من كل تكويـن في هذا الكون إلكترونـًـا كان أو ذرة، كوكبًا كان أو نجمًا، نباتًا كان أو إنســانًا! الســموات الطِبـاق لا يمكن فصلها عن كوكـب الأرض مثلًا تمامًا كما يسـتحيل فصل عين الإنسان عن الأنسجة المكوّنة لها! السموات الطِباق في الأرض مثلهن!

نظريـة النسـبية العامة أثبتت أن الوجـود – الكون كله بما يشـمله من مادة ونجوم وكواكب وكائنات حية – ليس إلا تفاعلًا نورانيًّا «واحدًا» كبيرًا، تفاعل نوراني واحد ممتد يوفر لكل شـيء (من الإلكترون إلى النجم) طبيعته بما في ذلك أبعاده الثلاث وشكله وحجمه!

كل شـيء فـي الكـون ليس فـي حقيقتـه العلميـة الأدق إلا تكثيف نسـبي للنـور المكوّن لهذا الكون، تكثيف يختلف باختلاف الأشـياء، تكثيف يعتمد على تخلل النور المكوِّن لأنسـجة الفضاء للنور المكـِّون للموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات) المكونة للذرة وبالتالي لكل شـيء: الوجود كله ليس إلا نور على نور! نور أنشأ كل شيء، نور وسع كل شيء!

نظرية النسبية العامة ليست في حقيقتها المجردة إلا إثباتًا علميًّا أن المصدر الباطن – المُتَجَلّي نورًا – هو الأول والآخر والظاهر والباطن!

الفضاء والزمن

تخيَّل رائد فضاء مسـافرًا في رحلة استكشـاف للمجموعة الشمسـية لمدة خمس سـنوات على متن سـفينة فضاء منطلقة بسـرعة مقاربة لسـرعة الضوء (سـرعة نظريـة لا يمكن تحقيقها)، تخيَّل عودته إلـى كوكب الأرض في نهاية هـذه المدة ليجد أن أخاه التوءم (الذي لم يغادر كوكب الأرض) قد زاد عمره «عشـرين» عامًـا خـلال هذه السـنوات «الخمـس» التـي قضاها منطلقًـا بهذه السـرعة الفائقة، ليصبح بذلك فارق السـن بينه وبين أخيه التوءم خمسـة عشر عامًا! هل تصنف هذا التخيل كحقيقة علمية أم كخيال علمي؟

تخيل أن يخبرك أحد علماء علم الكون أن سفر الإنسان في الفضاء بسرعة الضـوء يـؤدي إلى توقف عمره عن الزيادة طوال مدة سـفره! تخيل أن يخبرك هـذا العالِم أن الزمن على كوكب المريخ له إيقاع أو سـرعة مختلفة تمامًا عن سـرعته على كوكـب الأرض! تخيل أن يخبرك هذا العالِـم أن يومًا واحدًا في مـكان ما في هذا الكون قد يعادل ألف عـام من الأعوام على كوكب الأرض! هل ستصدقه؟

مرحبًا بك في الجزء الأكثر عجبًا في نظرية النسبية العامة! جزء ينطبق عليه حديث آينشـتاين عن الظواهر التي تقع خارج نطاق خبرة الإنسان ومشاهداته اليوميـة، وبالتالي تتعدى منطقه وقدرته على الاسـتيعاب، جـزء منافٍ لعلاقة الإنسان بالزمن بل وبمفهومه أصلًا!

إنهـا «نسـبية الزمن» التي أثبتها آينشـتاين فـي عام 1916 من خـلال معادلة نظرية النسـبية العامة! إنها أيضًا «نسـبية الزمن» التي تأكـدت مجددًا بعد ذلك بنصـف قـرن من الزمـان خلال عصر رحـلات الفضاء والـذي كان قد بدأ في ستينيات القرن العشرين قبل أن يستمر إلى يومنا هذا!

إنها نسـبية الزمن! الزمن ليس له إيقاع أو سـرعة ثابتة في جميع أرجاء هذا الكون كما ظنّت الإنسانية قبل ظهور آينشتاين، بل هو ظاهرة تتغيّر سرعتها من كوكب إلى آخر، ومن مكان إلى آخر في الكون!

قد يبدو كل ذلك لأول وهلة وكأنه شيء معقد لا يمكن أن يفهمه إلا علماء الفيزيـاء وعلم الكـون، إلا أنه في حقيقة الأمر غير ذلـك، فكل ما تقدم يتضح بكل بساطة إذا ما استكملنا حديثنا عن النور والفضاء.

كنَّا قد ذكرنا اكتشاف آينشتاين الآلية المسئولة عن انتقال الضوء في الفضاء، ذكرنا أن انتقال الضوء من مكان إلى آخر في الفضاء يعتمد على تفاعل نوراني بين هذا الضوء من جانب وأشعة النور (غير المرئي) المكوِّن لأنسجة الفضاء (غير المرئية) من جانب آخر، ذكرنا أن هذا التفاعل النوراني بينهما يؤدي إلى تذبـذب أنسـجة النور المكونة للفضـاء، أن هذا التذبذب هـو تحديدًا ما يقوم بحمـل الضوء أي النـور (مثل الملك فوق العرش) ليقـوم بنقله من مكان إلى آخر في هذا الكون الفسيح.

هـذا التفاعـل النوراني بين الضوء وأشـعة النور المكَوِّنة لأنسـجة الفضاء يؤدي إلى «اسـتواء» أنسـجة الفضاء النورانيـة (غير المرئية) هذه اسـتواءً تامًّا شـبيهًا باسـتواء أوتار الآلة الموسـيقية عند شـدها في خطوط متوازية، بل إن هذا الاسـتواء التـام هو تحديدًا ما يـؤدي إلى تذبذبها عند مـرور الضوء تمامًا كمـا تتذبـذب خطوط الأوتار الموسـيقية عند لمسـها، الفـارق الوحيد هو أن

أنسـجة الفضاء (في مشمولها الكوني) شـبه لا نهائية العدد والدقة والتلاصق والتداخل والانطلاق في جميع الاتجاهات.

استواء وتذبذب خطوط أنسـجة الفضاء (استواء وتذبذب أشعة النور غير المرئـي) فـي مـكان وجود الضـوء لا يؤدي فقط إلـى نقل هذا الضـوء (النور المرئي) من مكان إلى آخر، بل يشمل أيضًا فيما يشمل عملية «حفظه» بصورة مطلقة دون حدوث أي «تغيير في حالته»، أي دون أن تنطبق عليه ظاهرة الزمن (الزمن ما هو إلا «معدل تغير» في حالة الأشياء). النور مطلق لا تمسه أي سِنَةٍ من الزمن.

هكذا بكل بسـاطة بدأ آينشـتاين في إدراك وجود علاقة عكسية بين أنسجة الفضاء من جانب والزمن من جانب آخر، فالزمن لا وجود له كما رأينا عندما تكون أنسـجة الفضاء في حالة اسـتوائها (الاسـتواء هو القيمة القصوى لحالة الفضـاء في معادلة النسـبية العامـة)، وبالفعل.. فإن حسـاب الزمن في معادلة النسـبية العامـة يسـاوي صفـرًا عندما يكـون أي موقع مـن الفضاء فـي قيمته القصوى هذه (حال مرور الضوء)!

الاسـتواء التام لخطوط أنسـجة الفضاء لا يحدث في أي موقع من مواقعه إلا أثنـاء مـرور الضوء (النور) فقـط لا غير، فمجرد وجـود أي قدر من المادة فـي الفضاء – ولو ذرة واحـدة – يؤدي تلقائيًّا إلى «انعراج» وتَكَوّر نسـبي في خطوط أنسجته في موضع وجود هذه المادة، بل إن هذا الانعراج والتكور هو ما يتيح لأنسجة الفضاء تكوين الكتلة المادية ذرة كانت أم نجمًا، كوكبًا كانت أم كائنًا حيًّا.

انعـراج وتَكَوّر خطوط أنسـجة الفضاء (في أي موقع مـن مواقعه) انعراج وتَكَـوّر نسـبي يـزداد معدله كلما زاد حجـم الكتلة الماديـة الموجودة في هذا الموقـع تحديـدًا، ذلك إلى أن يصل إلى ذروته (أقصـى معدلات التَكَوّر) كما

سنرى في كل موقع من مواقع النجوم العملاقة والتي قد يتجاوز حجم النجم الواحد منها حجم الشمس مائة مرة أي ما يعادل حجم كوكب الأرض مائة وثلاثين مليون مرة (حجم الشمس مليون وثلاثمائة ألف مرة حجم كوكب الأرض)!

انعراج وتَكَوّر خطوط أنسجة الفضاء جزء لا يتجزأ من التفاعل النوراني المسئول (كما ذكرنا) عن إنشاء شكل وصورة وحجم كل شيء مادي موجود في هذا الكون - كل عضو من أعضائه من الإلكترون أصغرها إلى النجوم أكبرها - تمامًا كما تَتَكَوَّر الأنسجة إنشاءً لشكل وصورة وحجم كل عضو من أعضاء الإنسان.

الزمن هو معدل تغير الأشياء المادية، وكل الأشياء الموجودة في هذا الكون من أصغرها إلى أكبرها (باستثناء النور) في حالة تغير مستمر، أي إن الزمن جزء لا يتجزأ من كل شيء.

الزمن (معدل التغير في الحال) يزداد سرعة كلما زاد حجم الجرم السماوي (الكوكب مثلًا) أي كلما زادت قوته الجاذبية! ذرة اليورانيوم الموجودة على سطح كوكب كبير بالغ حجم كوكب الأرض آلاف المرات قد تشهد - أثناء مرور يوم واحد من «أيامنا» على كوكب الأرض - قدرًا من التحلل الإشعاعي (أي تقدم في العمر) لا يتحقق لذرة اليورانيوم المثيلة الموجودة على سطح كوكبنا الصغير إلا بعد مرور ألف عام من أعوام كوكب الأرض! يوم مقداره ألف سنة مما تعدون!

ما قد تشهده ذرة يورانيوم ثالثة موجودة على سطح كوكب ثالث أكبر كثيرًا من الكوكب الضخم السابق من تغير في حالتها الداخلية هذه (أي تقدم في عمرها!) - أثناء مرور اليوم الواحد نفسه من أيامنا على كوكب الأرض - قد

يتطلب من ذرة اليورانيوم المثيلة الموجودة على كوكبنا خمسين ألف عام كي يتحقق لها قدر التحلل نفسه (العمر نفسه).. وهكذا.. وهكذا.

إنها «نسـبية الزمن»! سـرعة الزمن (سـرعة تقدم عمر الأشياء) ليس سرعة ثابتة منتظمة في جميع أرجاء الكون كما ظنّ نيوتن في عصر التنوير وكما يظن غير العلماء المتخصصين إلى يومنا هذا. كل كوكب (وكل جرم سماوي) في الفضاء له سرعة تغير في حالته الداخلية – أي إيقاع زمني مختلف – خاص به يعتمد على حجمه (قوة الجاذبية التي له)!

وبمـا إن حجـم كل كوكـب يتوقف بدوره علـى المسـتوى العلمي الأدق على معدل انعراج وتَكَوّر أنسـجة الفضـاء المكوّنة له، فإن الزمن – كما أدرك آينشتاين في النهاية وكما أثبتت نظرية النسبية العامة – ليس في حقيقته العلمية الأدق إلا معـدل انعـراج (وتكَوّر) في أنسـجة الفضاء النورانيـة (غير المرئية) المكونة لهذا الكون!

كانت الحقيقة العلمية التي اكتشـفها آينشـتاين أعجب من الخيال العلمي: الزمـن ليـس إلا «البعد الرابـع» للفضـاء! البعد الرابـع لأبعاد الفضـاء الثلاثة (البعـد الرابـع لأبعـاد الطول والعـرض والارتفاع)! الزمن ما هـو إلا محصلة ذلـك التفاعل النوراني القائم بين أبعـاد الفضاء النورانية الثلاثة هذه من جانب والموجـات النورانيـة الجزئيـة (البروتونـات والإلكترونـات) المكَوِّنة للذرة وبالتالي لكل شـيء في هذا الكون من جانـب آخر! الزمن هو محصلة انعراج وتَكَـوّر هـذه الأبعـاد النورانيـة الثلاثة إلـى الداخل إنشـاءً للمـادة بأحجامها المختلفة (كما يتكَوَّر النسـيج مثلًا على نفسه إنشـاءً لشكل كروي)! الزمن ما هو إلا محصلة التفاعل النوراني المسئول عن توفير شكل كل تكوين مادي في هذا الكون، وتحديد معدل تغيره!

الفضاء والزمن ليسا إلا «الظاهر» من تفاعل «نوراني» واحد شامل وسع الكون كله. أنسجة النور المكوّنة للفضاء (السماء) هي نفسها أنسجة النور المحددة للزمن! وهي نفسها أنسجة النور المسئولة عن تمكين الموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات) من إنشاء الأبعاد الثلاثة لكل شيء في هذا الكون – من الذرة إلى النجوم – كجزء لا يتجزأ من هذه الأنسجة النورانية الثلاثة!

النور هو ما أنشأ الزمن! المصدر المعلوماتي الباطن – المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشأ الزمن تمامًا كما أنشأ الفضاء وكما أنشأ كل شيء في هذا الكون من خلال تفاعل نوراني واحد كبير! كل ذلك وكأن نظرية النسبية العامة أرادت أن تؤكد على استحياء أن النور – أن المصدر الباطن المُتَجَلِّي نورًا – ليس فقط «الواسع» الذي وسع كل شيء، بل أيضًا «المقيت»!

النور مَكَّن آينشتاين من اكتشاف وتعريف الآلية النورانية المسئولة عن خلق «الزمن» وانسيابه لأول مرة في تاريخ البشرية! وهكذا نجح آينشتاين في اكتشاف حقيقة الزمن!

أبسط طريقة لاستيعاب المعدلات المختلفة لسرعة انسياب الزمن هي مشاهدة (على الإنترنت مثلًا) خطوات الإنسان على سطح القمر. خطوات الإنسان على سطح القمر تأخذ إيقاعًا أبطأ، وبالتالي زمنًا أطول لكل خطوة بمقاييس الزمن وسرعته على كوكب الأرض.

قصة نظرية النسبية العامة هي أيضًا قصة إدراك آينشتاين استحالة فصل الزمن عن الفضاء! المفهوم أن الفضاء والزمن ظاهرتان منفصلتان عن بعضهما البعض – كما يعتقد معظم الناس إلى يومنا هذا – مفهوم خاطئ لا يمت للحقيقة العلمية بأي صلة! تعامل الإنسان مع الزمن على أنه «إيقاع»

مستقل عن الفضاء ليس إلا مظهرًا آخر من مظاهر محدودية خبرتنا وقدرتنا على إبصار التفاعلات الكونية الأعمق.

بل إن قصة نظرية النسبية العامة – في ملخصها الأشمل والأعمق – هي قصة إدراك آينشتاين استحالة فصل «الفضاء والزمن» معًا عن أي من أعضاء الكون (عن أي من تكويناته المادية بما في ذلك الكائنات الحية). هذا تحديدًا ما دفع آينشتاين للامتناع عن استخدام عبارة «الكون» – مثل من سبقه من العلماء – أثناء إشارته إلى «الكون» ذاته! آينشتاين استحدث مصطلحًا جديدًا في القاموس العلمي معيدًا بذلك تسمية الكون «ممتد الفضاء–الزمني»!

نظرية النسبية العامة – النظرية المؤسسة لعلم الكون الحديث – يمكن تلخيصها في جملة واحدة: الكون بكل ما يشمله من فضاء وزمن وتكوينات مادية وحية ليس إلا الظاهر من تفاعل نوراني واحد شامل!

البج بانج:
قصة الخلق من العدم (1)

شـهدت عشـرينيات القرن العشـرين ميلاد علم جديد من علوم الكون، علـم «فيزيـاء الفضـاء»، علـم متخصـص فـي دراسـة النجـوم والكواكـب والمجرات.

تبع ذلك في عام 1924 اكتشاف عالم فيزياء الفضاء الأمريكي أدوين هابل (1889–1953) أن الكـون لا يتكـون من مجـرة واحدة كبيرة كمـا كان معتقدًا قبـل ذلك. الجـزء «المرئي» فقط من الكون يتكون ربما مـن مئات المليارات من المجرات التي تشـمل كل منها مئات المليارات من النجوم (الشمس نجم واحد منها). لك إذًا أن تحاول تخيل حجم الكون المرئي.

كذلـك أصبح العالـم الأمريكي أدويـن هابل آنذاك أول عالـم يكتشـف – مـن خلال المشـاهدة التلسـكوبية والمعادلات الرياضية معًـا – أن الكون في حالة «اتساع» مستمر، ذلك أنه ببساطة شديدة كلما قام بقياس المسافة بين أي نجميـن في أي اتجاه في الكون – ثم أعاد القياس مجددًا – وجد أن المسـافة بينهمـا قـد زادت عن القياس السـابق. هكذا وبهذه البسـاطة تأكـد العلماء أن الكـون دائـم التمدد في جميـع الاتجاهـات، دائم الاتسـاع، دائـم الزيادة في الحجم تمامًا مثل «البالونة» عندما تنفخ فيها.

توسـع الكون حدث نورانـي مَنَظَّم وتلقائي؛ ذلك أن عملية اتسـاع الكون المستمرة ليست إلا عملية تمدد في أنسجة النور (غير المرئي) المكوّن لأبعاد

وأنسجة الفضاء. النور – المصدر الباطن المُتَجَلّي نورًا – موسِع للسماء بصورة مستمرة، فإن كنّا قد أشرنا إلى أن الزمن هو البعد الرابع للفضاء، فإن «الاتساع» النوراني المستمر هو البعد «الخامس» له.

هذا البعد الخامس للفضاء يثبت أن النور (غير المرئي) المكَوِّن لأنسجة الفضاء يشمل ظاهرة دفع من الداخل (حيث مركز الكون الافتراضي) إلى الخارج في جميع الاتجاهات. لابد وأن يكون هناك سر جديد وراء ذلك، السر مفاجأة كبرى جديدة، بل ربما المفاجأة الأكبر!

اكتشاف ظاهرة توسع الكون مَكَّن بدوره العلماء من اكتشاف الحقيقة العلمية أن الكون محاط بالعدم، فهذا ما يتيح توسع الكون – دون إعاقة – في جميع الاتجاهات! العدم شيء يصعب على الإنسان استيعاب معناه، بل يصعب عليه مجرد تخَيّله، إنه إحدى تلك الظواهر التي ينطبق عليها وصف آينشتاين تخطيها منطق وقدرة الإنسان على التخيل لوقوعها خارج نطاق خبرته ومجال مشاهدته.

العدم ليس فضاء مظلِمًا أجوف كما قد يتخيل الناس بصفة عامة، فالفضاء الذي ننظر إليه ليلًا فنظنه مظلمًا أجوف هو في الحقيقة جسم من أنسجة نورانية غير مرئية ثلاثية الأبعاد كما رأينا، وهذه الأنسجة النورانية هي ما ينشأ «الفضاء» على هيئة «مكان» يمكن «الوجود» داخله! الفضاء (السماء) الذي ننظر إليه ليلًا فنظنه خلفية فارغة هو في الحقيقة العلمية عكس ذلك: «بناء» نوراني ثلاثي الأبعاد مرفوع في جميع الاتجاهات على أعمدة من نور غير مرئي.

العدم المادي هو النقيض التام لكل ذلك، النقيض التام للفضاء، فهو ما يقع خارج حدود الفضاء (خارج حدود الكون) ولا يشمل أي مساحة يمكن الوجود داخلها أصلًا! ما يقع خارج حدود الوجود! إنه حالة «اللاوجود» التي تفوق قدرة العقل البشري على التخيل! العدم المادي هو اللاوجود!

فـي عام 1927 ظهر عالم الكون الراهـب البلجيكي جورج لومتر (1894–1966) ليلفت نظر العلماء إلى أن اتساع الكون المستمر يعني – حتمًا لا محالة – وجود ارتباط أكيد بين «حجم» الكون من جانب و«عمرَه» من جانب آخر، ذلك ببسـاطة شـديدة أننا كلما عدنا بالزمن إلى الـوراء – أي كلما كان الكون أصغـر عمـرًا – كان الكون أيضًا حتمًا أقل اتسـاعًا أي أصغـر حجمًا، وهكذا ببسـاطة شـديدة توصل العالم الراهب لومتر إلى الاستنتاج أن الكون لم يكن أبدي الوجود كما كان علماء الكون يعتقدون منذ زمن بعيد.

كان لومتـر أيضًـا علـى دراية جيدة باكتشـافات آينشـتاين العلميـة (نظرية النسـبية العامـة) فضلًا عن كونهما صديقيـن، أي إن العالم الراهب لومتر كان يعلـم جيـدًا أن كل هذا الكـون – بكل ما يحتويه – ليس إلا جسـمًا واحدًا من النـور ومشـتقاته. وعليـه، قام العالـم البلجيكي جـورج لومتـر بتوحيد نظرية «النسـبية العامـة» مع نظرية «تَوَسّـع الكون» في معادلة واحدة ليسـتنتج بذلك نظرية في نشأة الكون من العدم.

جـاءت نظريـة لومتر في نشـأة الكـون من العـدم كالتالي: فـي بداية ما في الماضي البعيد جدًّا نشأ الكون من العدم على هيئة نقطة من نور ولا شيء غير ذلك (قبل تفاضل النور إنشاءً للموجات النورانية الجزئية المسئولة عن إنشاء الذرة وبالتالي كل شـيء بعد ذلك)، الكون نشـأ من العدم على هيئة نقطة من نور شـبه لا نهائية الصِغَر.. لا نهائية الكثافـة والتوهج والحرارة، نقطة من نور سـريعة التمدد والتوسـع! الحـدث الذي أدى إلى تجلّي النـور على هيئة كون في حالة اتسـاع غير معلوم. كل ما يمكن تأكيده علميًّا هو أن هذا الحدث كان حدثًا «أحاديًّا» Singularity بمعنى أنه حدثٌ «واحدٌ ووحيدٌ».

هكذا اقترح لومتر في عام 1927 النظرية التي أطلق عليها بعد ذلك في عام 1948 لقب «البج بانج» Big Bang (الانفجار العظيم) – أغلب الظن استهزاءً

– أثناء حلقة تليفزيونية مذاعة من خلال إذاعة البي بي سي (التليفزيون البريطاني)، فرغم كل هذه السنوات المنقضية – ما بين عامي 1927 و1948 – لم تكن هذه النظرية قد قبِلَت بعد، ذلك أن المبدأ العلمي – في أغلب العلوم – يحتم على كل نظرية علمية تقديم «الدليل» أي الإثبات العلمي الذي يثبت صحتها.

كان الإثبات العلمي المطلوب لتأكيد النظرية وفقًا للمعادلات الرياضية والحسابات المعنية هو العثور على «موجة إشعاع نوراني» خاصة جدًّا «كخلفية» موجودة في جميع أنحاء الفضاء، موجة ذات قياس يساوي ثلاث درجات على مقياس كلڤين، ذلك أن تجلّي النور من العدم بهذه الطريقة الفجائية (الشبيهة بالانفجار الضوئي)، كما اقترحت النظرية – إن كانت صحيحة – لابد أن يكون قد أنتج «خلفية إشعاعية» موجودة في النسيج النوراني المكوّن للفضاء؛ أي في جميع أرجاء الكون أثناء اتساعه.

وعليه، ظلّت النظرية «غير مقبولة» لعشرات السنين، ذلك أن أدوات البحث العلمي الموجودة آنذاك لم تستطع اكتشاف هذا النوع من الإشعاع في الفضاء، بل إن هذا الوضع ظلَّ هكذا ما يقرب من أربعين عامًا. كل ذلك قبل أن تشهد السنوات الأولى من ستينيات القرن العشرين تقدمًا قويًّا في أجهزة البحث العلمي.

جاءت المفاجأة الكبرى في عام 1964 تحديدًا أثناء قيام عالمين أمريكيين بتركيب نوع جديد من أطباق الاستقبال العملاقة – الستالايت – لاستقبال الموجات المستخدمة لبَث الراديو والتي تمَثِّل بدورها نوعًا آخر (بسيطًا) من أنواع النور.

عثر العالمان الأمريكيان أثناء عملهما على «موجة إشعاع خلفية»، إلا أنهما لم يفطنا إلى أهميتها بصورة فورية. محاولاتهما التخلص منها – لأنها

كانــت تعيق عَمَلِهما – أثبتت «اســتحالة» ذلك، فكلما أدارا أطباق الاســتقبال العملاقــة فــي اتجاه جديد وجدا هــذه الموجة النورانية الإشــعاعية قادمة منه. (إنها ببســاطة تلك الموجة – الشوشــرة – التي كنّا نراها بأعيننا على شاشــات التليفزيونات الأقدم كخلفية دائمة عند انقطاع الإرسال). وعندما قام العالمان الأمريكيان بقياس هذه الموجة الإشعاعية – القادمة من جميع الاتجاهات في الكون – فوجئا بأنها تســاوي ما يقرب من ثلاث درجات (2.7 درجة تحديدًا) على مقياس كلڤين.

كان الراهــب العالــم البلجيكــي جورج لومتــر محقًّا ما يقرب مــن أربعين عامًا قبل ذلك في اســتنتاجاته. كذلك حصــل العالمان الأمريكيان اللذان قاما باكتشــاف الإثبــات العلمي لنظرية «نشــأة الكون من العــدم» – التي أصبحت تعــرف باســم «البج بانج» (الانفجــار العظيم) – على جائزة نوبــل في الفيزياء نظير اكتشــافهما، ذلك قبل أن تنجح وكالة الفضاء الأمريكية ناسا NASA في عام 2002 في التقاط «صورة حرارية» لهذه الموجة الإشعاعية القادمة إلينا من كل مكان في الكون.

هكذا اكتشــف العلماء بالدليــل والإثبات العلمي القاطــع أن حدثًا نورانيًّا «أحاديًّــا» أنشــأ هــذا الكون – علــى هيئة نور مُتَجَــلٍّ من باطن العــدم – قبل ما يقرب من أربعة عشــر مليار عام طبقًا لتقديرات وكالة الفضاء الأمريكية ناســا حتى عام 2017!

علمــاء الرياضيات يطلقون على الحدث لقب «تفاضل العدم» – التفاضل المسئول عن إنتاج النور من باطن العدم، أما علماء الفيزياء فهم يسمونه «ذبذبة أحادية» – الحدث المؤدي إلى اختلال اتزان العدم وتَجَلّي النور من باطنه.

العلمـاء يشـبهّون واللغـة قاصرة عـن التعبيـر الوافي! وكيـف يمكن للغة المحدودة النسـبية أن تعبّر عن الحدث المطلـق؟! الثابت في جميع الأحوال هو أن هذين المصطلحين (المصطلح الرياضي والمصطلح الفيزيائي) متفقان في المبدأ على أن الحدث المسـئول عن خلـق الكون اعتمد على عملية «فتق في رتق العدم» (شق في وحدة واتصال العدم)!

الكـون نشـأ في البداية قبل حوالي ثلاثة عشـر مليـار وثمانمائة مليون عام على هيئة نقطة واحدة من نور مُتَجَلٍّ من باطن العدم، نقطة من نور ولا شـيء غير ذلك!

الكون نشـأ على هيئة نقطة نـور واحدة تنتفي عندها قدرة العقل البشـري على الاستيعاب أو التخيل! نقطة نور متناهية الصغر لدرجة تجعل حجم الإلكترون يبدو وكأنه مجرة ضخمة! نقطة نور متعاظمة الكثافة والضياء والتوهج والحرارة لدرجة أن المليارات من مليارات المليارات من الشموس (النجوم) تبدو رقمًا تافهًا إذا ما أردنا التعبير عن ضياء وتوهج وحرارة هذه النقطة النورانية المتناهية الصغر!

قـوة تَجَلّـي نقطة النـور هذه جعلت منه شـيئًا شـبيهًا بالانفجـار النوراني، انفجار نوراني مهول لا يمكن تحت أي حال من الأحوال تَخَيّل شدته. يكفي أن نذكـر أن حجـم الكون اتَّسـع – خلال «اللحظة الأولى» مـن الثانية الأولى فقـط مـن عمره – ليبلـغ حجمًا أكبر من حجـم مجرتنا «درب اللبّانـة» (البالغ حجمهـا خمسـمائة مليون مرة حجم المجموعة الشمسـية)، بعـد أن كان قبل ذلـك بلحظـة واحدة أصغر من حجـم الإلكترون! انفجـار نوراني عظيم فعلًا يستحيل مجرد تخيله!

دع جانبًـا محاولة تخيل الحجم الذي وصل إليه الكون اليوم بعد ما يقرب مـن أربعة عشـر مليار عام من الاتسـاع، حتى وإن علمنا أن معدلات التوسـع أخذت بعد ذلك في الانخفاض تدريجيًّا بسرعة عالية.

لم يكن تَجَلّي النور من العدم مجرد تَجَلّي ضياء في حالة اتساع، بل تَجَلّي «نِظام نوراني» كامل واحد مطلق، قائم على إنشاء وتنظيم جميع الأحداث والتفاعلات التي بدأت تكشف عن نفسها تدريجيًّا لتصبح بذلك الأحداث المسئولة عن تطوير هذا الكون الناشئ على هيئة كيان ونظام نوراني، ولتبدأ بذلك قصة إنشاء النور لكل شيء في هذا الكون كما سنرى: النور المُتَجَلّي من باطن العدم لم يكن إلا «الظاهر» من نظام «باطن».

الثانية الأولى من عمر الكون ثانية يمكن تقسيمها هي نفسها إلى ثلاثة أجزاء رئيسية، الجزء الأول كان الجزء الذي شهد نشأة الكون في صورة فضاء كما رأينا، أي الجزء الذي شهد نشأة السماء كبناء نوراني التكوين والأبعاد، بناء متعاظم الكثافة والحرارة، بناء في حالة تمدد واتساع مستمر.

أحداث الجزء الثاني من الثانية الأولى من عمر الكون بدأت بعد ذلك بعد بلوغ اتساع الكون ذلك الحجم الرهيب الذي كان أدى بدوره إلى بدء مسلسل انخفاض كثافة وحرارة الكون (كثافة وحرارة النور) القصوى إلى مستويات أقل فأقل (اتساع الكون المستمر دومًا يؤدي إلى استمرار هبوط حرارته إلى يومنا هذا).

هبوط حرارة النور المنشئ لهذا الكون مَكَّن حينئذٍ أول حدث في فضاء (سماء) الكون النوراني الوليد آنذاك بعد أن بدأت موجات النور الأعلى كثافة في الانقسام (التفاضل) إنشاءً «للكوركس»، لتصبح بذلك الكوركس أول موجات نورانية بل أول شيء يظهر من باطن النور داخل هذا الكون النوراني المستمر في الاتساع والتمدد. (الكوركس هي الموجات النورانية الأصلية التي ستتفاعل وتتكامل معًا فيما بعد إنشاءً لكل بروتون من البروتونات الموجودة في هذا الكون كما ذكرنا سريعًا قبل ذلك وكما سنرى بعد قليل).

اعتمـدت نشـأة الكوركس على هبـوط درجة حـرارة النور المكـون لهذا الكـون؛ ذلك أن درجة حرارة النور (درجة حرارة الكون) العظمى لحظة البج بانـج كانت تلك الدرجة العظمى بل المطلقة التي ينتفي عندها أي تميّز (وأي ظاهـرة) مـن أي نوع؛ فكل نوع من أنـواع التميّز والظواهـر المُتَجَلّية تدريجيًّا فـي هذا الكون بعد ذلك كما سـنرى ارتبط بهبوط درجة حرارته إلى مسـتوى أقل فأقل. بل إن كل تميز وكل ظاهرة تتلاشى مجددًا إذا تخطت درجة حرارة الفضاء الدرجة التي كانت قد مكّنت نشأتها قبل ذلك كما سنرى أيضًا.

الكوركـس نشـأت في سـتة أنواع مختلفـة يكمن الفـارق بينها فـي مقدار الشحنة الكهرومغناطيسية المرتبطة بكل منها.

النـور (المصدر المعلوماتي الباطـن المُتَجَلّي نورًا) أنشـأ الكوركس بأعداد شـبه لا نهائية في جميع أرجاء الفضاء (السـماء)، ذلك بعد أن لم تكن شيئًا على المسـتوى السـابق تمامًـا كما أنشـأ الكـون من العدم بعـد أن لم يكن شـيئًا على المستوى السابق! أو ليس هذا ما يمكن أن نسميه خلقًا (بغض النظر عن المفهوم الدارج لمعنى الخلق)؟! إنها حقًّا قصة الخلق كما ترويها الحقائق العلمية وكما سنرى تفصيلًا مبهرًا!

أحـداث الجـزء الثالث من الثانيـة الأولى من عمر الكـون بدأت بعد ذلك بعد بلوغ اتساع الكون حجمًا جديدًا، وبالتالي هبوط درجة حرارته إلى معدل جديـد أقـل ممـا كان عليه. إنه ذلـك الجزء الذي شـهد عمليـة تفاضل (فتق) موجات أخرى من النور (موجات أقل كثافة)، لتنشأ بذلك الإلكترونات (من باطن هذه الموجات النورانية المنقسـمة) بأعداد شبه لا نهائية أيضًا في جميع أرجاء الكون الفسيح المستمر دومًا في التوسع.

و هكـذا انتهـت في النهاية الثانية الأولى من عمـر الكون، الثانية الأهم في عمره بما إنها الثانية التي شـهدت نشـأة الكون بما شـمله من فضاء وموجات

نورانيـة سـتكون مسـئولة بعـد ذلك عن إنشـاء كل شـيء في هذا الكـون كما سنرى.

انتهـاء هذه المرحلـة الأولى من عمر الكـون تبعه بدء المرحلـة الثانية في عمره والتي استمرت ثلاث دقائق تقريبًا، مرحلة بدأت بدورها بعد بلوغ اتساع الكون حجمًا جديدًا أي بعد هبوط درجة حرارته إلى معدل جديد أقل.

الهبـوط الجديد في درجة الحرارة مَكَّن تَجَلّـي أول ظاهرة في هذا الكون –ظاهرة تجاذب الكوركس فيما بينها– بقوة نورانية شديدة يطلق عليها العلماء لقـب «القوة القوية» إشـارة منهم إلى أن القوة الناشـئة عن تجاذب الكوركس تشكل أقوى قوة في هذا الكون!

إنهـا تلـك القوة «النورانية» المسـئولة عن إنشـاء البروتـون وبالتالي القوة المسـئولة عـن تماسـك «نـواة» الذرة، قـوة أقـوى 137 مرة من قـوة التجاذب الكهرومغناطيسـي بين الإلكترون والبروتون والتي سـتكون مسئولة بعد ذلك عن إنشاء الذرة (ظاهرة التجاذب الكهرومغناطيسي المسئولة عن إنشاء الذرة لم تكن قد تَجَلَّت بعد)! إنها أيضًا (القوة القوية) تلك القوة المسئولة عن شدة القنبلـة النووية التي ألقتها أمريكا على اليابـان والتي تعتمد على تحرير الطاقة الكامنة في قوة تجاذب الكوركس معًا تكوينًا لنواة الذرة!

القـوة «القويـة» قوة نورانية لا تسـمح أصـلًا بوجود أي كوركـس في هذا الكـون بأي صور فردية، قوة تحتم تجـاذب الكوركس في مجموعات تتكون كل منها من ثلاثة كوركس إنشاءً لكل بروتون وكل نيوترون موجود في أرجاء هذا الكون.

هكذا قام النور (المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا) بإنشاء البروتون بأعداد شبه لا نهائية في أرجاء الكون الفسيح المستمر في الاتساع، وهكذا نشأ

البروتون تكوين «ثانوي مرَكَّب» متكون من ثلاثة كوركس في حالة تكامل من خلال تجاذب وتفاعل نوراني سريع مستمر على سرعة شبيهة بسرعة الضوء أو أسرع (حدوث التفاعلات «النورانية» على هذا المستوى على سرعة أسرع من سرعة انتقال الضوء في الفضاء احتمال قائم)، وهكذا نشأت للبروتون شحنته الإيجابية كحاصل تكامل اثنين من الكوركس الذي يظهر كل منهما ثلثي شحنة إيجابية إضافة إلى كوركس ثالث يظهر ثلث شحنة سلبية.

الكوركس أنشأت النِيوترون أيضًا كما أنشأت البروتون. الفارق بين البروتون من جانب والنِيوترون من جانب آخر هو أن النِيوترون لا يظهر أية شحنة على الإطلاق. شحنة النِيوترون معدومة لأنها حاصل تكامل كوركس واحد يظهر ثلثي شحنة إيجابية مع عدد اثنين من الكوركس يظهر كل منهما ثلث شحنة سلبية.

العجيب هو أن البروتون أظهر فور نشأته شحنة إيجابية مطابقة – بدقة مطلقة – لشحنة الإلكترون السلبية. إنه شيء عجيب لأن شحنة البروتون ليست شحنة واحدة «أولية أصلية» (منبثقة مباشرة من انقسام شعاع النور) كما هو الحال مع شحنة الإلكترون الأصلية النموذجية، إنما شحنة «ثانوية مرَكَّبَة»، حاصل ثلاث شحنات أولية أصلية (شحنات الكوركس الثلاثة)!

أما المذهل فهو أن هذا التعادل المطلق بين هاتين الشحنتين القطبيتين – «الثانوية المرَكَبَّة» من جانب و«الأصلية البسيطة» من جانب آخر – هو تحديدًا ما سيمكن بعد ذلك التفاعل والتكامل «الموزون» بين البروتون والإلكترون والذي سيكون مسئولًا بدوره بل وبصورة حصرية مطلقة عن إنشاء الذرة وبالتالي لكل شيء في هذا الكون (الذرة هي مكوّن كل شيء في الكون)! لم يكن أي شيء لينشأ في هذا الكون دون هذا التعادل المطلق بين هاتين الشحنتين!

احتمـال نشـأة مقدار شـحنة البروتـون الإيجابية بالصدفة مـن خلال مبدأ التجربـة والخطـأ – أي احتمـال تعـادل شـحنته الثانوية «المركبة» مع شـحنة الإلكتـرون الأصلية «البسـيطة» بالصدفة – منعدم إذا مـا أدركنا أن الكون كله لا يشـمل بـأي صورة مسـتقرة إلا هذه الشـحنة النموذجية. لـم تكن هناك أي تجربة أصلًا! نشـأة أول شـحنة إيجابية مسـتقرة في هذا الكون شـكلت أيضًا نشأة آخر شحنة إيجابية مستقرة فيه!

احتمال الصدفة منعدمٌ أيضًا إذا أضفنا لهذه الحقيقة الأدق الحقيقة الأشمل في أن إجمالي أعداد شحنة البروتون الإيجابية الموجودة في الكون كله يطابق إجمالي أعداد شحنة الإلكترونات السلبية الموجودة فيه!

كل ذلك وكأن هذه الحقائق العلمية الكونية أرادت أن تؤكد على استحياء وجود «هندسـة» – أي تخطيط «مسـبق» – مسئول عن إنشـاء هذا التوافق بين هذه الشـحنات النورانية! وكأن العلم أراد أن يؤكد على استحياء أن «المصدر المعلوماتي الباطن» المُتَجَلّي نورًا شـمل علمًا مطلقًا كان قد قدَّر هذا التطابق قبل إنشائه الكون!

نشـأة البروتون كانت هي نفسها نشأة أول وأبسط «نواة» ذرة (الذرة نفسها لم تكن قد نشأت بعد)؛ فذرة الهيدروجين التي ستصبح في مرحلة لاحقة أول وأبسط ذرة في الكون ذرة ستتكون نواتها بعد ذلك من بروتون واحد.

ذرة الهيدروجين لم تكن قد نشـأت بعد لسـبب بسيط هو أن حرارة الكون (حـرارة النـور المتّقـد) الموجـودة حتـى ذلـك الحيـن – تلك الحـرارة التي كانـت قد بدأت تختلف من مكان إلى آخر في أرجاء الكون الفسـيح – كانت (حتى ذلك الحين) من شـدة لا تسـمح أصلًا بظهور «قوة» تجاذب الشحنتين القطبيتين الكهرومغناطيسيتين المسئولتين عن إنشاء الذرة؛ أي لم تكن تسمح بتَجَلّي ظاهرة التجاذب «الكهرومغناطيسي» بين الإلكترون والبروتون.

لم تكن «نواة» ذرة الهيدروجين النواة الوحيدة المتَكَوِّنة خلال هذه الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون. نواة ثاني أصغر نوع من أنواع الذرة (نواة ذرة الهليوم) نشأت أيضًا آنذاك إثر تجاذب وتكامل أعداد أكبر من الكوركس في مجموعات شمل كلٌّ منها اثني عشر كوركس (لتنشأ بذلك نواة ذرة الهليوم على هيئة بروتونين ونيوترونين متكاملين معًا)، ولتمثل أنوية ذرات الهليوم بدورها حوالي 25٪ من إجمالي «أنوية» الذرات الناشئة في الكون آنذاك (أنوية ذرات الهيدروجين أي البروتونات الموجودة بصور فردية شكلت 75٪ من إجمالي أنوية الذرات الموجودة في الكون آنذاك).

وهكذا انتهت في النهاية هذه المرحلة الثانية من عمر الكون والتي كانت قد استمرت ثلاث دقائق، وهكذا بدأت المرحلة الثالثة والتي دامت حوالي ثلاثمائة ألف عام (أو أكثر قليلًا).

استمرار اتساع الكون – وبالتالي استمرار هبوط حرارته إلى معدلات أقل فأقل – نتج عنه تَجَلّي ظاهرة التجاذب «النوراني» الكهرومغناطيسي بين كل نواة من «الأنوية» المتكونة من جانب والإلكترونات من جانب آخر؛ ليقوم النور (المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا) بإنشاء أصغر نوعين من أنواع الذرة، لتنشأ بذلك ولأول مرة ذرات الهيدروجين وذرات الهليوم بأعداد شبه لا نهائية في أرجاء الكون الفسيح.

هكذا نشأت الذرة!

إلا أن نشأة هذه الذرات لم تكن نشأة مستقرة بعد؛ فكثافة وحرارة النور المكوّن لفضاء الكون – والتي كانت قد بدأت تختلف من مكان إلى آخر في فضاء الكون – استمرت في تعطيل ظاهرة التجاذب الكهرومغناطيسي بين البروتونات والإلكترونات بصورة متكررة، لتتناوب بذلك عمليات نشأة ثم تفكك هذه الذرات بصورة متكررة.

علماء الفيزياء وعلم الكون يشبهون الكون خلال هذه الفترة بـ «الحساء النوراني» (الشوربة). حساء نوراني متوهج مضيء يحتوي على أنوية ذرات وإلكترونات في حالة سباحة حرة تارة، وفي حالة تكامل تكوينًا للذرات تارة أخرى. حساء نوراني استمر حوالي ثلاثمائة ألف عام ظلّ الكون خلالها (كما كان منذ نشأته من العدم) كونًا نورانيًّا متوهج الضياء، وكأنه شمس متوهجة في حالة اتساع مستمر، وكأنه نهار طويل، وكأنه يوم واحد ممتد مضيء!

إلا أن استمرار توسع الكون أدى – في نهاية تلك الفترة الممتدة أكثر من ثلاثمائة ألف عام – إلى هبوط كثافة النور المكَوِّن لهذا الكون إلى تلك الكثافات (الترددات) التي لا تَقدِر عين الإنسان على رؤيتها، عند ذلك بدأ الكون يبدو – كما نراه اليوم عندما ننظر ليلًا إلى السماء (الفضاء) – وكأنه كيانٌ معتِمٌ، ذلك رغم استمراره دومًا وأبدًا كيانًا نورانيًّا (غير مرئي لعين الإنسان).

هكذا ظلَّ الكون (خلال الثلاثمائة ألف عام الأولى من عمره) يومًا نورانيًّا مضيئًا واحدًا طويلًا! يوم يذكرنا فجأة بحديث بعض الديانات عن أيام خلق ستة! يوم يعلمنا أن مفهوم اليوم الكوني (اليوم على مستوى الكون) لم يَمت حينئذٍ – ولا يمت إلى الآن – بأي صلة لمفهوم اليوم الأرضي (اليوم على مستوى كوكب الأرض)، والذي لم يكن قد نشأ أصلًا بعد!

المدهش هو أن العهد الذي بدأ بعد نهاية هذا اليوم الكوني كان حقًّا بمثابة بداية «يوم آخر» جديد في قصة الخلق كما يرويها العلم. إنه «يوم المادة» الذي تَلا «يوم الضياء»!

ذلك أن هبوط كثافة وحرارة الكون (النور) إلى مستويات جديدة أتاح لأول مرة حينئذٍ استقرار الذرات (أبسط أنواع المادة) بصورة دائمة بعد تحررها من الكثافة والحرارة النورانية التي كانت قد استمرت حتى ذلك

الحين في زعزعة استقرارها؛ لتنشأ بذلك ذرات الهيدروجين والهليوم (أبسط أنواع المادة) بصورة مستقرة، وليبدأ بذلك «يوم المادة»!

كان «الطبيعي» أن تظل ذرة الهليوم أكثر المخلوقات تقدمًا في هذا الكون، فلم يكن هناك أصلًا أية أنوية أكبر من نواة هذه الذرة البسيطة جدًّا في تكوينها، أي لم تكن هناك أي وسيلة تمكّن نشأة ذرات أكبر منها، كان الطبيعي أن تتوقف بذلك قصة «تطور الكون» عند هذا الحد من الأحداث!

إلا أن النظام النوراني المنشئ للكون فاجأه حينذاك بظاهرة نورانية جديدة ظهـرت بصورة غير متوقعة (فور نشـأة الذرات بصورة مسـتقرة) لتدفع عملية تطور الكون إلى مسـتويات جديدة. وكأن هذا النظـام النوراني (هذا المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا منشـئًا للكـون) نظامٌ يحتم دفع عملية تطور الكون قدمًا!

نشـأة ذرات الهيدروجيـن والهليوم بأعداد شـبه لا نهائيـة أدت تلقائيًّا إلى تَجَلّـي ظاهرة التجاذب «النوراني» فيما بينها، لتنشـأ بذلك ظاهرة «الجاذبية»؛ ولتنشـأ من خلالها القوة المسـئولة عن دفع عملية تطور الكون إلى مستويات جديدة كما سنرى.

ظاهـرة الجاذبيـة شـكّلت ثالث وآخر القـوى الأساسـية (القـوى النورانية) الموجـودة في هذا الكـون (القوة القويـة والكهرومغناطيسـية والجاذبية)، فمع ظهورهـا اكتمـل نصاب هذه الظواهـر (القوى) النورانية الثلاث، المسـئولة عن إنشـاء كل شـيءٍ في هذا الكون كما سـنرى، فـكل تفاعل (التفاعـل الفيزيائي أو الكيميائـي أو الحيـوي مثـلًا)، وكل تكويـن (نشـأة النجوم والكواكـب والمواد والكائنات الحية مثلًا)، وكل ظاهرة طبيعية أخرى (مرور السحاب ونزول المطر مثـلًا)، وكل طاقـة كامنة (البتـرول والكهرباء مثلًا) لن تكـون جميعها إلا نتيجة مباشرة لتفاعل واحدة أو أكثر من هذه القوى النورانية الثلاث كما سنرى!

النـور (المصـدر المعلوماتـي الباطن المُتَجَلّـي نورًا) قام بعـد ذلك – من خـلال الجاذبيـة النورانيـة هذه – بجـذب وبتجميع كل مجموعـة ضخمة من الـذرات معًـا في سـحابة عملاقـة تحتوي علـى عدد مـن الـذرات (مليارات المليارات التي يعجز العلم عن حصرها!) شـبيه بالعدد المسـئول عن إنشـاء الشـمس (والتـي يتعدى حجمها حجم كوكـب الأرض مليون وثلاثمائة ألف مرة!)، لتبدأ بذلك قصة إنشاء كل نجم من النجوم الموجودة في هذا الكون.

النجم ينشـأ من سـحابة عملاقة مـن الـذرات المتجاذبة معًا فـي الفضاء، سـحابة قـد يتعـدى حجمها حجـم المجموعـة الشمسـية مائة مـرة في بعض الأحيـان! تجـاذب كل مجموعة من الـذرات في اتجاه الداخـل (حيث مركز السـحابة) يسـتمر بفعـل الجاذبية ملايين كثيرة من السـنين، ليـؤدي ذلك إلى اسـتمرار انضغـاط هـذه الذرات معًـا، وليؤدي أيضًـا إلى اسـتمرار احتكاكها وبالتالـي زيـادة درجة حرارة هذه السـحابة أثنـاء تحولها التدريجـي إلى كتلة ماديـة مهولـة الحجم، وقبل أن تؤدي في النهاية هـذه الزيادة الرهيبة في درجة الحرارة والانضغاط إلى اشتعال الذرات اشتعالًا ذريًا، ليولد بذلك في كل مرة نجم جديد في السماء.

اشـتعال النجم (اشـتعال الـذرات المكونة له) اشـتعالًا ذريًّا على سـطحه ونوويًّا شـديدًا في أعماقه (الاشـتعال الذري هو اشـتعال الذرات من الخارج أما الاشـتعال النووي، فهو اشتعالها اشـتعال كامل من الداخل حيث نواتها). اشـتعال النجم اشـتعال رهيب يفوق انفجـار مليارات المليـارات من القنابل النووية في اللحظة الواحدة من الثانية الواحدة! اشتعال تتخطى درجة حرارته (في قلب النجم) المليون درجة على مقياس كلڤين! اشـتعال كفيل بحرق بل وتبخير كوكب الأرض برمَّتِه في وقت يكاد لا يذكر أصلًا!

النجـم – في حقيقتـه العلمية المجردة – ما هو إلا مصنع نوراني قائم على إنشـاء الـذرات الأكبـر من الـذرات الأصغر! مصنـع نوراني قائم على إنشـاء الـذرات الأكبـر ثم الأكبـر خلقًا من بعد خلـقٍ على أطوار (مراحـل متعاقبة)، لتنشـأ بذلـك في النهايـة جميع أنـواع الذرات الموجـودة في هـذا الكون من الليثيوم إلى اليورانيوم بما في ذلك الأكسجين والحديد والذهب، ... إلخ!

إنها قصة «تطور الذرة» التي سبقت قصة نشأة و«تطور الحياة»!

النجـم مصنع نورانـي يعتمد في إنتاجـه أنواع الذرات علـى تعاون القوى النورانية الأساسـية الثـلاث (الجاذبيـة والكهرومغناطيسـية والقـوة القوية)! الجاذبيـة تقوم في البداية بدفـع الذرات الموجودة في طبقـة النجم الخارجية (والتي قد لا تتخطى حرارتها السـتة آلاف درجة) إلى الطبقات الوسـطى من النجم حيث تؤدي درجات الحرارة هناك (والتي تبلغ مئات آلاف الدرجات) إلى تعطيل ظاهرة التجاذب الكهرومغناطيسـي المسـئولة عن نشـأة وتماسك الـذرة (تعطيـل التجـاذب بيـن الإلكترونـات والبروتونـات المكونـة لذرات الهيدروجيـن والهليوم)، لتتفكك بذلك هذه الـذرات مجددًا وتنفصل أنويتها (البروتونات) عن إلكتروناتها.

الجاذبية تسـتمر بعد ذلك في دفع هذه الأنوية (البروتونات) إلى الطبقات الداخليـة للنجـم حيث تؤدي الحرارة القصوى هنـاك (أكثر من مليون درجة) إلى اشـتعال هذه الأنوية اشـتعالًا نوويًّا يؤدي إلى تفاعـل الكوركس المكونة لهـذه الأنويـة معًا تحت ضغـط رهيب (الضغـط الموجود في قلـب النجم)، تفاعل نووي تحت ضغط يمَكِّن القوة القوية (الكامنة في تجاذب الكوركس) من إنشاء «أنوية» أكبر ثم أكبر يتكون كل منها من عدد مختلف من البروتونات، لتتعدد بذلك أحجام وأنواع هذه الأنوية الجديدة الناشئة تباعًا!

يدفع الضغط الحراري إلى الخارج بعد ذلك (في مراحل مختلفة) هذه «الأنوية» الجديدة المختلفة الأحجام إلى الطبقات الخارجية – قرب سطح النجم – حيث درجات الحرارة الأقل نسبيًّا والتي تتيح للقوة الكهرومغناطيسية (المسئولة عن تجاذب البروتونات والإلكترونات) من الظهور مجددًا، وهكذا تقوم كل نواة من هذه الأنوية المختلفة بجذب عدد من الإلكترونات يعادل عدد البروتونات (الشحنات الإيجابية) الموجودة في نواتها، لتنشأ بذلك جميع أنواع الذرات الموجودة في هذا الكون على اختلافها.

هكذا نشأت الذرات خلقًا من بعد خلقٍ.. هكذا نشأت من ذرة الهيدروجين البسيطة في البداية كميات إضافية من ذرة الهليوم، قبل أن تنشأ منها الذرات الأكبر تباعًا، لتنشأ بذلك ذرة الليثيوم (ثالث أصغر ذرة) بأعداد مهولة داخل النجوم المختلفة، ولتنشأ بعدها تدريجيًّا بقية أنواع الذرة، بما في ذلك الكربون والأكسجين والنحاس والحديد والذهب واليورانيوم، ... إلخ.

نشأة كل نوع جديد من أنواع الذرة لم تكن كما رأينا – في الحقيقة العلمية الأدق – إلا نشأة دائرة «نورانية» كهرومغناطيسية جديدة فريدة، نشأة كل نوع جديد من أنواع الذرة لم تكن إلا نشأة «تيار نوراني» جديد فريد في تكوينه. نشأة ذرة الحديد مثلًا وكما ذكرنا لم تكن في حقيقتها العلمية الأدق إلا نشأة تيار نوراني فريد في قدره لتَكَوّنَه من ستة وعشرين بروتون وستة وعشرين إلكترون (البروتونات والإلكترونات ليست إلا موجات «نورانية» كما رأينا).

النور (المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا) هو –وهو فقط– ما أنشأ جميع أنواع الذرات على اختلافها، وهو ما أعطاها طبيعة خلقها – بصورة فورية تلقائية – وكأنه يتحدث لغة نورانية تقول للذرة «كوني فتكون»!

لكل نجم «عمر» يبلغ مليارات قليلة من السنين، فكل نجم ينفجر – في نهاية عمره – بعد تفوّق الضغط الحراري إلى الخارج على قوة الجاذبية

المسئولة عن تماسكه، تفوّق ينتج في النهاية بعد أن يؤدي احتراقه المستمر إلى استهلاك كميات ضخمة من الذرات المكونة لـه، وهو ما يضعف بدوره في النهايـة قوته الجاذبيـة المعتمدة بصورة مباشـرة على حجـم النجم (عدد الذرات المكونة له)، لينفجر بذلك النجم في النهاية.

طـول عمـر كل نجـم يتوقف – عكسـيًّا– علـى حجمه، فكلمـا زاد حجم النجم زادت قوة جاذبيته وأصبح بالتالي كل شـيء أسـرع، بما في ذلك سرعة الاشتعال والاحتراق، لينتهي بذلك عمرَه بصورة أسرع.

ما يدعو إلى الدهشـة والتفكر معًا هـو أن انفجار النجم ليس في الواقع إلا استكمال لعملية إثراء الكون بأنواع الذرات المنتَّجة داخله (داخل النجم). لو لم يكن نظام التفاعل النوراني المنشئ للنجم وتفاعلاته نظامًا يحَتِّم انفجاره في النهاية لظلت الذرات المصنَّعة بأنواعها المختلفة محبوسـة داخل النجوم إلى الأبـد، ولما أتيحت أصلًا فرصة تطور الكون بعـد ذلك إنتاجًا للمواد المركبة ثم الكواكب (المتكونة من هذه المواد) ثم أشكال الحياة كما سنرى!

قصـة تطور الـذرة قصة «سـيمفونية نورانية» متشـعّبة اشـتركت في عزفها القـوى النورانيـة الثـلاث، والتواصل في قصـة الخلق لم ولـن ينقطع، وكيف ينقطـع وانفجـار النجـوم في نهايـة عمرهـا – توزيعًـا لمحتواها مـن الذرات فـي الفضـاء – لن يكون بدوره إلا نقطـة البداية في التفاعـلات الكيميائية بين الـذرات والمسـئولة بدورهـا عـن إنشـاء أنـواع المادة ثـم الحياة كما سـنرى (التفاعـل الكيميائي ليس إلا مسـتوى متقدمًا من مسـتويات التفاعل النوراني الكهرومغناطيسي كما سيتضح).

الحديـث عـن الصدفـة حديث لا يعـي جميـع هـذا التفاصيـل «المُنظَّمة نورانيًّـا»! حديث لا يعـي تتابع بل وتناغم الخصائص والأحـداث «النورانية»

المسـئولة عن إنشـاء الكون ثم أنواع الذرة ثم أنواع المادة ثم أنواع الحياة كما سنستمر في الاكتشاف.

التطـورات التـي تحـدث في «مواقـع النجوم» فـي نهاية عمرهـا تطورات عجيبـة تقـع هـي الأخرى خـارج نطاق خبـرة الإنسـان وبالتالـي «منطقه» بل وقدرته على التخيّل!

مواقع النجوم المتوسطة الحجم مثلًا (حجم الشمس أو أكبر عشرات قليلة من المرات) تشهد معدلات «جاذبية» نورانية رهيبة استثنائية (تتم في المنطقة الداخلية من النجم قبل انفجاره) بسبب كمية الذرات الرهيبة الموجودة هناك (تزداد الجاذبية وتشـتد كلما زادت كميـة المادة كما رأينا)، معدلات الجاذبية الاستثنائية هذه تنشئ ظاهرة منافية لمنطق الإنسان: علاقة عكسية بين «كمية» الذرات المنضغطـة معًا و«حجمها»! فكلما «زادت» كمية الذرات المنضغطة فـي مركز النجم «قل» حجمها على عكس مـا يحدث في جميع أرجاء الكون وعلى عكس المنطق والطبيعة كما نعرفهما!

و هكذا يترك كل نجم من هذه النجوم المتوسطة في موقعه – بعد انفجاره فـي نهاية عمـره – كمية شـبيهة بكميـة المادة المسـئولة عن تكويـن «كوكب الأرض» مثـلًا منضغطة في حجـم مثل حجم «الجبل» الصغيـر، وكأن المادة المكونة لكوكب الأرض يمكن ضغطها لتصبح جبلًا!

بـل إن تدرّج نقصان هذا الحجم يزداد كلما زادت كمية المادة! فإذا زادت كمية الذرات (المادة) المضغوطة معًا في قلب النجم الضخم – بفعل الجاذبية المهولة الموجودة داخله – اسـتمر التكوين (والذي قد يشـمل آلاف أضعاف كمية المادة المكونة لكوكب الأرض) في الصغر إلى أن يصبح الحجم شبيهًا بحجـم كـرة القدم مثـلًا! أي إن الجاذبيـة المهولة هذه تضغـط حجم أكبر من كوكب الأرض آلاف المرات ليصبح في حجم كرة قدم!

السبب وراء ذلك هو أن معدلات الجاذبية (معدلات الانضغاط) القصوى تصبح من الشدة لدرجة تبدأ معها المسافة بين الإلكترونات والبروتونات المكوّنة للذرة في الانهيار تدريجيًّا إلى أن تختفي نهائيًّا هذه المسافة الفاصلة بينهما والتي تمثل ربما أكثر من 99٪ من حجم الذرة! وذلك إلى أن تنضغط الإلكترونات والبروتونات معًا في نواة الذرة، ويتحولان معًا إلى نيوترونات عديمة الشحنة الكهرومغناطيسية! لتنشأ بذلك في مواقع هذه النجوم المتوسطة الحجم هذه الكيانات العجيبة التي يطلق عليه العلماء «النجوم النِيوترونية»!

وهكذا «تتحول» الذرة – في مواقع النجوم المتوسطة – إلى كيان جديد يتخطى عالم المادة كما نعرفه، وهكذا يصبح «ثقل» حجم معادل لكرة قدم أكبر آلاف المرات من «ثقل» كوكب الأرض برمته!

مواقع النجوم «العملاقة» – التي قد يتعدى حجمها حجم الشمس ربما «مائة» مرة – تشهد ما هو أعجب من ذلك: معدل جاذبية مطلق يؤدي في النهاية إلى اختفاء الذرات المنضغطة معًا وتلاشيها تلاشيًا تامًّا، بل اختفاء وتلاشي نسيج الفضاء برمته في هذه المنطقة الداخلية من مركز النجم، لينشأ بذلك شيء يتخطى الوجود المادي برمته، إنه ما يطلق عليه علماء الكون لقب «الثقب الأسود»!

«الثقوب السوداء» ثقوب في الفضاء! ثقوب في «أنسجة الفضاء» النورانية (غير المرئية) كان آينشتاين قد تنبأ بوجودها في عام 1916 – كما حتّمت معادلة نظرية النسبية العامة – قبل اكتشاف علماء فيزياء الفضاء له فعليًّا خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

«الثقب الأسود» ثقبٌ ينتج عن معدلات الجاذبية الداخلية القصوى في «قلب» النجم العملاق والتي تؤدي إلى انضغاط الذرات المكونة له إلى الداخل بصورة لا نهائية، وهو ما يؤدي بدوره إلى «تكوّر» لا نهائي (إلى

الداخل) في أنسجة الفضاء (نظرية النسبية العامة كما رأينا) يؤدي إلى اختفاء نسيج الفضاء نفسه (في هذا الموقع من قلب النجم العملاق أثناء انفجاره)!

المذهل هو أن تلاشي أنسجة الفضاء - أي نشأة الثقب الأسود في موقعه - يؤدي تلقائيًّا إلى تلاشي كلّ ذرة من الذرات الموجودة داخل منطقة هذا الثقب! اختفاء تام دليل على فقدان هذه الذرات - أي فقدان المادة - خصائصها المادية! لتبلغ بذلك مرحلة جديدة من الوجود لا نعرفها في هذا الكون! مرحلة متقدمة تتخطى الوجود المادي برمَّته!

مرحلة جديدة لا يمكن لعلم الإنسان استبيانها لتخطيها حدود الوجود كما نعرفه! مرحلة جديدة ناشئة عن تَبَدّل طبيعة السماء (الفضاء) في مواقع النجوم العملاقة! كل ذلك وكأن الثقوب السوداء بوابات إلى «عالم آخر» - أي نوع آخر من الوجود - يتخطى جميع أشكال الوجود المادي كما نعرفه في هذا الكون.

المراحل الأخيرة في عمر النجم العملاق - أثناء تحوله إلى «نجم ثاقب» للفضاء (للسماء) - تشمل (كما اكتشف العلماء) إصدار هذا النجم الكبير أصوات «طرق» (خبط)، أي إن النجم العملاق يتحول إلى «نجم طارق» قبل أن ينتهي به الحال إلى «نجم ثاقب». إنها قصة «السماء والطارق» - «النجم الثاقب» - الذي ما كنَّا لندري بوجوده وماهيته لولا هذه الاكتشافات العلمية الأحدث!

الثقب الأسود الناشئ في مواقع النجوم العملاقة حدث «عظيم» تقوم التفاعلات النورانية (يقوم المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا) من خلاله بتبديل طبيعة السماء (الفضاء) إنشاءً لحالة أخرى من الوجود! ذلك أن الثقب الأسود تكوين يتخطى حدود الفضاء والزمن كما نعرفهما - بل يتخطى

حدود الكون كما نعرفه – إلى عالم جديد، عالم أبعد من حدود المادة، وكأنه بوابة إلى عالم لا مادي!

إنه العجب العجاب الذي يشير إلى إمكانية إنشاء النور (المصدر المعلوماتي الباطن المُتَجَلّي نورًا) عالمًا آخر، عالمًا لا يستطيع العلماء دراسته أو حتى مجرد تخيله!

المذهل أيضًا هو أن المعادلة الرياضية الخاصة بنظرية «النسبية العامة» – والتي كانت قد تنبأت نظريًّا بوجود الثقوب السوداء قبل اكتشافها بنصف قرن من الزمان تقريبًا – معادلة رياضية تدل على بلوغ قيمة الزمن (داخل هذه الثقوب السوداء) قيمة «لا نهائية»، وكأن الثقوب السوداء بوابات إلى عالم آخر ذي طبيعة «أبدية»! وكأنها بوابات إلى عالم آخر يتخطى حدود الفضاء والزمن كما نعرفهما! وكأنها بداية «يوم آخر» (حال آخر) من الوجود!

قيمة الزمن «اللا نهائية» هذه – إضافة إلى تَبَدل طبيعة السماء وتَبَدل طبيعة المادة داخل هذه الثقوب السوداء – تدفعنا إلى تأمل الثقوب السوداء وتأمل نظرية النسبية العامة على مستوى جديد، مستوى يجعل منهما «نبوءة علمية» تذكرنا بحديث بعض الديانات عن وجود «أبدي» قادم تختلف طبيعته اختلافًا جذريًّا عن طبيعة الكون كما عرفه الإنسان عبر تاريخه، يدفعنا إلى تذكر حديثها عن تبدل طبيعة السماء (الفضاء) – في نهاية عمر هذا الكون – إنشاءً «للدار الآخرة» دار المستقر الأبدي. مجرد دعوة إلى التأمل العلمي الروحاني.

بالطبع نحن لا نعلم حقيقة الثقب الأسود؛ أي لا نعلم ماذا يحدث داخله للمادة بعد تَبَدّل طبيعة السماء، إلا أن الثقب الأسود سيظل «دليلًا علميًّا» قائمًا إلى الأبد.. إن الحال المادي الذي نعرفه ليس نهاية المطاف بالنسبة لهذا الكون!

الثقب الأسـود دليلٌ على أن التفاعل «النوراني» قادرٌ على أخذ هذا الكون «المـادي» إلـى مرحلة تتخطى عالم الوجـود كما نعرفه إلى عالـم آخر، وهذا دليـل أن المصـدر المعلوماتي الباطـن - المُتَجَلّي نورًا - هـو «نور العالمين» وليس نور هذا العالم فقط!

مازلنـا فـي بداية قصة خلق الكـون من العدم.. مازلنا فـي بداية قصة تطور الكـون.. مازلنـا في بداية قصة إنشـاء المصدر الباطـن - المُتَجَلّي نورًا - كل شيء في هذا الكون خلقًا من بعد خلقٍ على أطوار.

الكون وجه الخالق

أكبـر تحدٍّ علمـي واجه علماء الكـون والفيزياء حول العالـم – بعد ثبوت نظرية البج بانج عام 1964 وسـقوط النظرية القديمة المعتقدة في أزلية الكون – هو محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما الذي أنشـأ النـور من باطن العدم؟ ما مصدر هـذا النور الذي تجلى من باطـن العدم لينشـئ الكون بمـا فيه؟ كيف احتـوى النور مسـبقًا على كل هذه «المعلومـات» المُتَجَلِّيَـة بدورهـا من باطن هذا العدم إنشـاءً تدريجيًّا (إنشـاءً وتصويرًا وتوصيفًا) لكل شـيء في هذا الكون بما في ذلك أنواع الذرات على اختلافها ثم أنواع المواد المتقدمة ثم الكائنات الحية انتهاءً بالإنسان؟ ما طبيعة هذا «المصدر المعلوماتي الباطن» المُتَجَلّي نورًا منشئًا للكون؟

الحقائق العلمية التي عرضناها عن نشأة الكون من العدم مَكَّنت في النهاية علماء الفيزياء وعلم الكون من تقديم إجابة علمية جزئية عن هذه الأسئلة:

حقيقي أن الكون نشأ من العدم، إلا أن «العدم» – أو بصورة أكثر دقة «العدم المادي» كما يطلق عليه علماء الفيزياء وعلم الكون – ما هو إلا مصطلح يعَبِّر عن عجز العقول عن استيعاب أو وصف ذلك «المصدر اللامادي» الذي أنتج النـور من «باطنه» قبل أن يصبح النور بدوره مصدرًا معلوماتيًّا مطلقًا مسـئولًا عن إنشاء كل شيء.

معـادلات الفيزياء وعلم الكـون تصف هذا «المصدر الـلا مادي الباطن» قائلة إنه «التناسـق التام» Perfect Symmetry بمعنى «الكمال المطلق» الذي كان قـد احتوى في باطنه – في هيئـة لا مادية – «جميع المعلومات» المُتَجَلّية إنشاءً تدريجيًّا «لكل شيء» في هذا الكون!

إنـه «التناسـق التـام» – الكمـال المطلـق – لاحتوائـه مسـبقًا جميـع هذه التفاصيـل المعلوماتيـة «النسـبية» – بصـورة مطلقة – يختفي فيهـا أي «تميز» وبالتالـي أي «ظهـور» وأية «نسـبية»! هـذا تحديدًا ما يجعل مـن هذا المصدر الباطن الكمال المطلق!

التناسق التام – الكمال المطلق – هو ذاته النظام المطلق الذي مَكَّن حدث البـج بانـج ومكن العدم مـن أن يصبـح حدثًا منتجًـا للنور بدلًا مـن أن يكون عدمًـا معدومًا فارغًا من الحدث والنتيجـة. «الكمال المطلق» هو ذاته «النظام المطلـق» الذي مَكَّن النور من إنشـاء أنواع الذرة بدلًا مـن أن يكون هذا النور مجرد ضياءٍ فارغٍ من المضمون عديم الإنتاج!

العلماء يوضحون أن هذا «التناسـق التام» – هذا المصدر الباطن المُتَجَلّي نـورًا منشـئًا لهذا الكون – هو «الشـأن الأزلي» المطلق السـابق لنشـأة وبداية «الزمـن» بمـا إن الزمـن لم يبـدأ بطبيعة الحال إلا بعـد تَجَلّي النـور كما رأينا. «الشـأن الأزلـي» – السـابق لبداية الزمن – والـذي تتوقف عنـده بذلك قدرة العقل البشري على التحليل، بل وتعجز عن مجرد التخيّل بما إن العقل البشري لا يعـرف ولا يسـتوعب منطقه إلا الأشـياء ذات البداية الزمنيـة، وبما إنه يقع خارج نطاق خبرة وبالتالي منطق الإنسان النسبي المحدود.

دع جانبًا عجز الإنسان أصلًا عن استيعاب مفهوم «المطلق»! وكيف يمكن للعقل النسبي المحدود اسـتيعاب المصدر المطلق اللامحدود الذي يتخطى كل المفاهيم بما في ذلك النور ذاته؟!

الاكتشـافات والحقائق العلمية الثابتة اليوم فـي الفيزياء وعلم الكون (في مطلـع القـرن الواحد والعشـرين) تدل على وجـود مصدر باطن مسـئول عن «إنشـاء» الكون بما يشـمله على أطوار أي بطريقة تدريجيـة، أي تؤكد في لغة أخـرى وجـود «خالـق باطن» مسـئول عـن عملية الإنشـاء هذه، هـذا وإن لم يستخدم العلماء مصطلح «الخالق» لسببين:

السـبب الأول هو أن مصطلح «خالق» مصطلح روحاني يقع خارج نطاق القاموس العلمي. السـبب الثاني هو أن كلمـة «الخالق» لا تعني بأي حال من الأحوال الشيء نفسه لنفس الناس: أغلب علماء الغرب يرفضون (على حقٍ) مبدأ «الخالق» كما هو مسـتخدم ومتوارث لديهم ككيان أسـطوري «منفصل» عـن الطبيعة وعن الأشـياء يخلقها من خارجها على طريقة السـحرة (الظهور المفاجـئ) رفضًـا تامًّا، وهو ما خلـق بذلك تعارضًا لا يمكـن توفيقه بين مبدأ الخالق (كما توارثوه وكما رفضوه) من جانب ومبدأ «المصدر الباطن» (الذي اكتشفوه) من جانب آخر!

العلم يعيش اليوم أحداثًا مهمة ومشكلات كانت لازمة لتطوره ولتصويب المفاهيـم الروحانيـة والدينيـة على مسـتوى العالم أجمع، وهـذا في حد ذاته تطور إيجابي سـعيد. سـقوط مبدأ الخالق الأسـطورة – المنفصل عن الطبيعة – لا يمنـع بالطبـع ثبوت مبدأ «المصدر الباطـن» كحقيقة علمية لا تقبل أي تشكيك من أي نوع كما تؤكد نظرية البج بانج وكما تؤكد الاكتشافات العلمية الأخرى كما رأينا.

«المصدر الباطن» المسـئول عن إنشـاء الكون (في لغـة العلم) هو بطبيعة الحـال «الخالـق الباطن» (في لغتنـا اليومية)، وإن اختلـف المصطلح العلمي عـن المصطلح الديني والفلسـفي، فالمهـم هو المعنى وليـس المصطلحات المستخدمة من قبل البعض أو البعض الآخر!

اللغة ما هي إلا وسيلة تعبير! المصدر الباطن - الخالق الباطن - التناسق التام - الكمال المطلق - ليست جميعًا إلا مصطلحات لغوية متّفقة حول حقيقة واحدة، مصطلحات لغوية يمكن استخدام أيٍّ منها للتعبير عن الحقيقة العلمية نفسها:

وجود مصدر ليس كمثله شيء مسئول عن إنشاء الكون من العدم المادي، وجود مصدر - مُتَجَلّي نورًا - منشئ للكون والفضاء والزمن والذرة (ثم المادة والحياة كما سنرى)، مصدر باطن - مُتَجَلّي نورًا - مستمر دومًا وأبدًا في تمكين وجود كل شيء؛ ليصبح بذلك أقرب إلى الأشياء منها إلى نفسها. هذا هو «الخالق الباطن»!

بل إن ثبوت وجود «مصدر معلوماتي باطن» مسئول عن إنشاء الكون وما يشمله يمكننا من تخطي التناظر السطحي الثقافي الصبغة -حول وجود «خالق» للكون من عدمه - إلى ما هو أبعد وأعمق كثيرًا، ألا وهو اكتشاف صفات هذا المصدر الباطن، اكتشاف صفات هذا «الخالق الباطن»:

المصدر الباطن «مصدر معلوماتي مطلق» في لغة الفيزياء وعلم الكون، أي خالق باطن «عليم» في لغة الفلسفة والأديان!

المصدر الباطن «شمل كل شيء وكل نتيجة مسبقًا في هيئة معلوماتية مطلقة» كما أثبتت معادلات البج بانج وكما تتحدث لغة الفيزياء وعلم الكون، أي إن الخالق «وسع كلَّ شيء علمًا» من قبل تجليه نورًا خالقًا للكون كما تتحدث لغة الفلسفة والأديان!

يبقى إذًا سؤال واحد أخير، السؤال الأشهر الذي سألناه جميعًا صغارًا، السؤال الأكثر تحييرًا للمؤمنين أنفسهم قبل المتشككين والملحدين، السؤال: من خلق الخالق؟ ما «مصدر» المصدر (إذا سألنا السؤال في لغته العلمية)؟

السؤال: من خلق الخالق؟.. سؤال نابع من محدودية عقل الإنسان وعجزه عن فهم الحقائق التي تقع خارج نطاق خبرته المحدودة بحدود المادة (كما تحدث آينشتاين)، محدودية عقله وخبرته المرتبطة بالأشياء المخلوقة أي الأشياء النسبية المحدودة بحدود الزمن والذي لم يبدأ إلا مع بداية عملية الخلق! سؤال لا يتوافق منطقه «النسبي» أصلًا مع «المطلق»: المطلق - أي الخالق - الذي يتخطى كل نسبية!

رأينا حتى الآن ظواهر كثيرة تقع خارج نطاق خبرة الإنسان وقدرته على التخيل والاستيعاب رغم كونها - هي ذاتها - ظواهر نسبية (طبيعة الموجات الجزئية مثلًا) ورغم وقوعها داخل نطاق الكون بما في ذلك نطاق الزمن، فما بالك بالمطلق الذي يقع خارج نطاق الكون ونطاق الزمن؟! عدم استطاعتنا فهم ذاته اللا مادية المطلقة لا ينفي بأي حال من الأحوال وجودها! سذاجة حقًّا أن نفكر عكس ذلك!

من المستحيل بل من السطحية والغرور أن يحاول عقل الإنسان استيعاب المصدر المطلق - الخالق - المسئول عن خلق هذا الكون! من المستحيل أن يستوعب النسبي (الإنسان) المطلق (الخالق)! كل ما يستطيعه الإنسان هو الاستدلال على وجوده «كحقيقة علمية» تقع خارج قدرته على الاستيعاب، ثم التسليم بها تمامًا كما سَلَّم العلماء قبل ذلك بالحقائق العلمية (النسبية!) التي تقع خارج نطاق قدرتنا على الاستيعاب!

هذا هو الخالق الحق كما نكتشفه في الآفاق، هذا هو الخالق الباطن العليم الذي وَسِع كل شيء علمًا مطلقًا (مجردًا من أي شكل مادي) من قبل بدء عملية الخلق، هذا هو الخالق المُتَجَلّي نورًا منشئًا للكون والمسئول عن تطوره، هذا هو الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا منشئًا للفضاء والزمن، هذا

هـو الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا منشـئًا للذرة والمسـئول عن تطورها إنشـاءً لأنواعها المختلفة، وكل ذلك كما رأينا حتى الآن (والبقية تأتي)!

أي حديـث عن غياب الخالق إما حديثٌ جاهلٌ للحقائق العلمية الأحدث ومعانيهـا الأعمـق كما عرضناها، وإما فكرٌ تائهٌ مسـجونٌ داخـل الحدود التي تفصـل بيـن العلـوم كمـا سنكتشـف معًا (كمـا حدث مـع داروين مثـلًا)، إما موروثٌ ثقافيٌ محبوسٌ داخل التعريف الأسـطوري للخالق ككيان «منفصل» عـن الخلـق رافض لـه دون الإلمام بغيـره، إما هـدفٌ مغرضٌ لسـبب أو آخر (كهدف أباطرة الثورة الصناعية في التخلص من دور الكنيسة إرساءً للمجتمع الاستهلاكي في أوروبا كما سنرى).

في الاتجاه العكسـي أيضًا، فـإن أي حديث عن أي خالق حقيقي لا يمكن أن يكون إلا حديثًا عن هذا الخالق «الباطن» - المُتَجَلّي نورًا منشئًا لكل شيء على أطوار- والأقرب بذلك إلى الكائنات منها إلى نفسها كما أثبتت الحقائق العلميـة. أي حديث عـن أي خالق من أي نوع آخر إما حديث أسـطوري غير مسـتنير، أو خدعـة نفسـية ذاتية، إما متـوارثٌ متعصـبٌ لما وجد عليـه الآباء والأجداد بغض النظر عن الحقيقة العلمية.

الحقيقة لا تعارض الحقيقة.

الحقائق العلمية إسقاط للأساطير والمفاهيم الخاطئة جميعًا.

قصة الخلق من العدم (2):
نشأة كوكب الأرض

يشتمل الكون اليوم على مئات المليارات من المَجَرّات. كل مجرة منها تتكون من مئات المليارات من النجوم إضافة إلى عدد أكبر من الأجرام السماوية والأتربة والغازات - المتجاذبة جميعًا فيما بينها - والدائرة معًا كمجموعة واحدة أثناء توسع الكون المستمر.

في البداية قبل ثلاثة عشر مليار وخمسمائة مليون عام - حينما كان الكون مازال وليدًا لا يتعدى عمره ثلاثمائة ألف عام تقريبًا - لم يكن هناك أية مجرات، لم يكن هناك إلا عددًا شبه لا نهائي من الذرات التي كانت قد بدأت تتجاذب معًا تكوينًا للنجوم كما رأينا وتكوينًا أيضًا لبقية الأجرام السماوية (الكواكب والأسترويدات والنيازك والشهب) كما سنرى.

عمليات التجاذب النوراني عن بعد بين هذه الأعداد المهولة من النجوم والأجرام السماوية - أثناء تكونها - هو ما أدى إلى بدء دوران كل مجموعة ضخمة جدًّا من هذه النجوم والأجرام السماوية معًا في الفضاء (بالإضافة إلى الذرات الواقعة بينها كأتربة وغازات)؛ لتتكون بذلك كل المَجَرات تدريجيًّا. التجاذب بعد ذلك بين المجرات هو ما أدى في مرحلة لاحقة إلى بدء دوران كل مجموعة ضخمة من المجرات معًا أثناء توسع الكون المستمر إلى يومنا هذا.

مَجَرَتنا - المَجَرَّة التي تشمل فيما تشمل المجموعة الشمسية - هي مجرة «درب اللَبّانة» كما يطلق عليها، مجرة متوسطة الحجم تكوّنت في طرف من

أطراف الكون الدائم التوسـع، مجرة يقدر عمرها بما يقرب من عشـرة مليارات عام، أي إن تكونها بدأ بعد حوالي أربعة مليارات عام من نشأة الكون من العدم.

تشـمل مجرتنـا كميات مـن المادة تعـادل حوالي «خمسـمائة مليون» مرة حجـم المـادة المكونة للمجموعة الشمسـية. لك إذًا أن تتخيـل تناهي الصغر للمجموعـة الشمسـية مقارنة بحجم المجـرة، فما بالـك إذًا بمقارنتها بحجم الكـون الـذي يفوق الجـزء المرئي فقط منـه حجم مجـرة درب اللَبّانة «مئات المليارات» من المرات!

بدأت نشـأة المجموعة الشمسية قبل حوالي خمسة مليارات عام؛ أي بعد حوالي تسـعة مليارات عام من نشـأة الكـون من العدم وبعد خمسـة مليارات عـام من تكـوّن مجرتنا، وذلك في طرف مـن أطراف مجرتنـا الواقعة بدورها في طرف من أطراف الكون. إن أي ادعاء بأن المجموعة الشمسية (أو كوكب الأرض) هي مركز الكون ادعاء يجهل الحقائق الكونية.

الشـمس والمجموعة الشمسية بأسـرها دائمة الدوران حول مركز المجرة والتـي بدورهـا دائمـة الـدوران حول مركـز الكـون (الافتراضـي) الدائم في الاتسـاع، كل ذلك وكأن الشمس تجري في اتجاه ما، وكأنها تجري في اتجاه مستقر لها لم يتحقق بعد.

المجموعـة الشمسـية مجموعة حديثة نسـبيًا بما إن تكونها بدأ بعد تسـعة مليارات عام من نشـأة الكون. هذا تحديدًا هو سـبب تكونها من أنواع مختلفة عديدة من الذرات (المصنعة في النجوم الأقدم قبل انفجارها)، بالإضافة إلى مواد مرَكبة (مثل الماء) بل ومواد عضوية متقدمة (سنتطرق إليها لاحقًا) كانت قد نشـأت وتكونـت تدريجيًا من الـذرات (من تفاعلها وتكاملهـا معًا) خلال هذه الفترة الطويلة.

كميات المادة المتجاذبة معًا (تكوينًا للمجموعة الشمسية وأجرامها بما في ذلك الشمس) كانت قد كونت في البداية بفعل الجاذبية (التفاعلات النورانية) سحابة عملاقة كروية الشكل بالطريقة نفسها التي تتكون بها كل سحابة من السحب العملاقة المسئولة عن تكون كل نجم من النجوم الموجودة في هذا الكون كما رأينا. دوران هذه السحابة العملاقة حول نفسها بفعل الجاذبية (إضافة إلى دورانها حول مركز المجرة) أدى إلى تحولها تدريجيًّا من الشكل الكروي إلى الشكل الدائري (الشبية بالطبق) الذي آلت إليه في النهاية.

وهكذا استمر تجاذب حوالي تسعين بالمائة من الذرات والمواد المكوّنة لهذه السحابة العملاقة – من أتربة وغازات ومواد مختلفة – إلى الداخل نحو مركزها بفعل الجاذبية (التفاعلات النورانية) إلى أن تكون الشمس في النهاية نجمًا بعد اشتعال المواد المكونة له تمامًا كما تشتعل النجوم بفضل التفاعلات النورانية كما رأينا. التفاعلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشأ المجموعة الشمسية، وهو ما أشعل الشمس نجمًا!

اشتعال الشمس نجمًا تمّ على مراحل كما يحدث لجميع النجوم أثناء تكوّنها، اشتعال بدأ في نقطة المركز الداخلي قبل أن ينتقل تدريجيًّا إلى طبقاتها الوسطى ثم الخارجية التي كانت قد استمرت في هذه الأثناء في التكون بفعل الجاذبية.. كل ذلك إلى أن اكتمل حجم الشمس واشتعالها – كما هو الوضع الآن – ربما بعد أكثر من مليار عام من بدء عملية تكونها.

تقدر درجة الحرارة على سطح الشمس بحوالي خمسة آلاف وثمانمائة درجة على مقياس كلفين (أي حوالي ستة آلاف درجة على مقياس سلسيوس الذي نستخدمه لقياس درجات الحرارة بصفة عامة)، إلا أن هذه الحرارة «الرهيبة» تعد حرارة «تافهة» عند مقارنتها بالحرارة الكامنة في مركز الشمس والتي تقدر بأكثر من مليون درجة!

الشمس نجم متوسط الحجم يدور حول نفسه أثناء دوران جميع الأجرام السماوية والأتربة والغازات المكوّنة للمجموعة الشمسية حوله. الشمس وبقية مكونات المجموعة الشمسية تدور أيضًا حول مركز المجرة، وكل ذلك بفعل الجاذبية (التفاعلات النورانية). التفاعلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو وهو فقط ما يحرك الشمس والكواكب وبقية مكونات المجموعة الشمسية كما يحرك جميع الأجرام السماوية المكوّنة لهذا الكون.

الشمس مصنع ذري ينشئ أنواعًا مختلفة من الذرات تمامًا كما تفعل بقية النجوم، مصنع ذري يعتمد على عمليات التفاعل الذري والنووي التي تتم داخله، وضوء الشمس الذي يصل إلينا ليس إلا الطاقة النورانية المحررة كنتيجة لهذه التفاعلات النووية والذرية الواقعة داخله وعلى سطحه، ضوء يصل إلى كوكبنا بعد ثماني دقائق فقط.

العشرة بالمائة الباقية من المادة المكوّنة للسحابة العملاقة المكونة للمجموعة الشمسية لم تستمر مثل بقية كميات المادة في الاتجاه نحو مركز هذه السحابة تكوينًا للشمس، بل استّقرت في هذه الأثناء بفعل الجاذبية (النورانية) في مجموعات مختلفة في مواقع مختلفة بعد اتزان معدلات الجاذبية بينها من جانب وبينها وبين الشمس من جانب آخر، لتبدأ بذلك قصة تكون الكواكب.

نشأة الكواكب وبقية الأجرام السماوية في مواقعها (في محيط دورانها حول الشمس) تمت بصورة موازية لعملية تكوّن الشمس، واعتمادًا على الآلية نفسها المسئولة عن إنشاء الشمس، أي اعتمادًا على الجاذبية (النورانية) بين المواد المكونة للمجموعة الشمسية. أي إن التفاعلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو وهو فقط ما أنشأ الكواكب وبقية الأجرام السماوية

تمامًا كما أنشأ كل شيء قبل ذلك.

نشأة الأجرام السماوية الأصغر نسبيًّا (الأسترويدات والنيازك والشهب) سبقت نشأة الكواكب قبل أن تلعب هذه الأجرام السماوية الدور الرئيسي في إنشاء هذه الكواكب، أجرام نشأت من التجاذب (النوراني) بين الأتربة والغازات وبقية المواد المكوّنة للمجموعة الشمسية.

الأسترويدات أكبرها، وغالبًا ما يشمل الأستروُيِد الواحد مواد عضوية (سنتطرق إليها لاحقًا). حجم الأسترِويِد شبيه بحجم سلسلة كبيرة جدًّا من الجبال الضخمة التي يتعدى طولها العشرات من الكيلومترات! الأسترويد الواحد شبيه بمجموعة متحدة من الجبال الطائرة في السماء (فضاء المجموعة الشمسية)، جبال تَمر في فضاء المجموعة الشمسية تمامًا كما يمر السحاب في سماء (فضاء) كوكب الأرض، وذلك طبعًا بفعل التفاعلات النورانية بطبيعة الحال (الجاذبية والكهرومغناطيسية)! التفاعلات النورانية - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - يمَرِّر الجبال في السماء مرور السحاب!

أغلب هذه الأسترويِدات موجود اليوم في المنطقة الواقعة بين كوكب المريخ وكوكب الزهرة الأقرب إلى الشمس من كوكبنا، أي إن كوكب الأرض في مأمن نظريًّا من التصادم معها.

لم يكن هذا بالطبع الحال قبل مليارات السنين، فاصطدام أعداد كبيرة من الأسترويِد ببعضها شكّل في ذلك الحين نواة ذلك التكوين الصغير جدًّا الذي أصبح في النهاية كوكب الأرض! الأسترويدات لعبت أيضًا دورًا رئيسيًّا في تزويد كوكب الأرض (أثناء تكوّنه) بأنواع من المواد المكوّنة له والتي ستكون مسئولة بعد ذلك عن نشأة الحياة عليه كما سنرى.

النيازك أجرام سماوية أخرى أصغر حجمًا من الأسترويِد، فطولها لا يتعدى الكيلومترات القليلة، جبال أصغر تمر هي أيضًا في فضاء المجموعة

الشمسية مرور السحاب في سماء كوكب الأرض.

الفارق الأكبر بين الأسترويد والنَيزَك هو أن تكوين النَيزَك – من المواد – يختلف اختلافًا جذريًّا عن تكوين الأسترويِد، وذلك بسبب اختلاف موقع نشأة كل منهما داخل سحابة المادة التي كانت قد كوّنت المجموعة الشمسية، فكل مكان داخل هذه السحابة العملاقة احتوى عند نشأتها على تشكيلة مختلفة من المواد، بل إن هذا الاختلاف في المواد المكوّنة لأماكن هذه السحابة هو سر الاختلاف الجذري في تكوين الكواكب المختلفة.

النَيَازِك تكوّنت في المنطقة الخارجية من السحابة العملاقة التي كونت المجموعة الشمسية على عكس الأسترويِدات التي تكونت في منطقتها الداخلية. مواقع تكوّن النيازك هي بدورها سبب احتواء أغلب النَيازك على الماء على هيئة ثلج، ذلك أن الماء كان متوافرًا بكثرة في أماكن نشأة النيازك في ظل صقيع شديد جدًّا. والنيازك هي أيضًا تلك الأعداد المهولة من الجبال (الحجارة) التي تشققت ليخرج منها الماء بعد ارتطامها بكوكب الأرض أثناء تكوّنه كما سنرى، لتلعب بذلك دورًا مهمًّا كمصدر للماء الموجود على كوكبنا!

بعض النَّيَازك المنطلقة في الفضاء لها غلاف ثلجي، فإذا اقترب النَّيزَك من الشمس ذاب الثلج وبدأت المواد والغازات المحبوسة داخله في الاحتراق بفعل الحرارة. إنه تحديدًا سبب حديث الأقدمين عن رؤيتهم أجسامًا عجيبة – ذات ذيل من لهب – منطَلِقة في السماء!

أما الشّهب فهي أصغر الأجرام السماوية حجمًا، فبعضها يزن كيلوجرامات قليلة وبعضها الآخر لا يزن أكثر من بضعة جرامات. كثير من الشّهب تكوّنت – تمامًا مثل الأسترويِد والنَّيَازك – من تجاذب أنواع مختلفة من المواد

الموجـودة داخل المجموعة الشمسـية، إلا أن بعضها نتـج (ومازال ينتج) من تصادم الأسترويِدات والنَّيَازك ببعضها البعض.

الشّـهب هي الأجرام السماوية الوحيدة التي مازالت تصل إلى كوكبنا إلى يومنـا هـذا. بل إن ما يقـرب من حوالـي ثلاثمائة طن من هذه الشـهب يتقابل محيط دورانها حول الشـمس مع محيط دوران كوكب الأرض حوله، وعندما يبلـغ أحد هذه الشـهب الغلاف الجـوي لكوكـب الأرض فإن سـرعته الكبيرة إضافـة إلـى الاحتـكاك بينه وبيـن المـواد الغازية والأتربـة المكوّنـة للغلاف الجـوي لكوكبنا تؤدي إلى احتراقه أثناء طَيَرانه. إنه تحديدًا ما قد نشـاهده في السماء ليلًا فنظنه نجمًا يسقط من موقعه في الفضاء قبل أن يختفي فجأة، ذلك أن الشّهب تَحتَرق تمامًا قبل وصولها إلى سطح كوكب الأرض.

تكـوّن «كواكـب» المجموعـة الشمسـية بدأ قبل أكثـر من أربعـة مليارات وسـتمائة مليون عام أي بعد حوالي أربعمائة ألف عام من بدء تكوّن الشمس. التفاعلات النورانية (الجاذبية) هي ما أنشـأ كل كوكب تدريجيًا في موقعه من المجموعة الشمسية وهي ما نَظَّمت عملية دورانها حول الشمس. التفاعلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشـأ الكواكب جميعًا، وهو ما يحركها بصورة مستمرة.

إجمالـي عـدد الكواكب التـي تكوّنت مـن السـحابة العملاقـة – المكَوِّنة للمجموعـة الشمسـية – والمكتشـفة حتـى الآن يقـدر اليـوم بثمانيـة أو أكثـر (اكتشـاف كواكب جديدة احتمال قائم علميًّا). هذا الرقم «تقديري» جدًّا طبقًا للمواصفـات –التـي يضعها العلماء فـي كل عصر– والتي يتحـدد من خلالها «قرارهم» تصنيف الجرم السماوي على أنه كوكب. «بلوتو» مثلًا جرم سماوي تم حذفه من قائمة الكواكب مؤخرًا بعد مراجعة معايير تصنيف الكواكب.

جميع كواكب المجموعة الشمسية مقَسَّمة في مجموعتين طبقًا لقربها أو بعدها عن الشمس. الكواكب الأقرب إلى الشمس يطلق عليها لقب «الكواكب الداخلية»، الكواكب الأبعد من الشمس يطلق عليها لقب «الكواكب الخارجية».

كوكب الأرض هو خامس أكبر كواكب المجموعة الشمسية حجمًا، وهو ثالثها في الترتيب بعدًا عن الشمس، كوكب ينتمي بذلك إلى مجموعة «الكواكب الداخلية» التي تشمل أيضًا كوكب المريخ أقرب الكواكب إلينا، والأقرب إلى الشمس من كوكبنا (الكواكب الداخلية ثلاثة آخرها الأرض والكواكب الخارجية خمسة حتى الآن).

كوكب الأرض بدأ تكوّنه قبل حوالي أربعة مليارات وستمائة مليون عام تقريبًا في مكان محدد من سحابة المادة المكوّنة للمجموعة الشمسية، وذلك إثر تجاذب أنواع محددة من المواد (الأتربة والغازات والمواد العضوية وخلافه) أثناء دوران هذه المواد حول الشمس التي كانت هي الأخرى آنذاك في طور التكوين. وبعد فترة وجيزة جدًّا – لا تتعدى ربما عشرة آلاف عام من بدء تكونه – بدأ كوكب الأرض يأخذ شكل جرم سماوي صغير لا يتعدى قطره عشرة كيلومترات (مقارنة بما يقرب من ثلاثة عشر ألف كيلومتر بعد اكتمال تكوّنه!)، ليصل بذلك حجم التكوين الناشئ إلى حجم الأسترويد تقريبًا.

استمر بعد ذلك حجم كوكب الأرض في الزيادة بفضل الجاذبية حوالي أربعين مليون عام. زيادة حجم الأرض تمت بسرعة مضطردة، فكلما زاد حجمها بفعل الجاذبية زادت قوتها الجاذبية، وقامت بالتالي بجذب كميات أكبر ثم أكبر من المادة.

الأسترويدات والنيازك والشهب لعبت دورًا كبيرًا في تكوين كوكب الأرض وزيادة حجمه بعد اصطدامها به واتحادها معه بفعل التفاعلات

النورانيـة (الجاذبيـة). التفاعـلات النورانية – الخالـق الباطـن المُتَجَلِّي نورًا – أرسـل على كوكبنا مـواد محلقة كالطير ترميه بحجارة مـن أماكن بعيدة في المجموعة الشمسـية! .. حديث بعض الديانات عن قدرة الخالق على إرسال حجارة (في هيئة صلبة أو مشـتعلة) على كوكب الأرض حديث علمي وليس أسطورة من الأساطير.

كذلـك لعبت هذه الأجـرام السـماوية دورًا كبيرًا في تزويـد هذا الكوكب (وبقية الكواكب) بأنواع عديدة من المواد، بما في ذلك مواد سـيكون لها بعد ذلك أدوارًا مهمة في نشـأة الحياة عليه كما سـنرى. بل إن هذه الأسـترويدات والنيـازك قامت بدور رئيسـي في تنوع تكوينه، ليشـمل بذلك مـواد قادمة من أماكن بعيدة جدًّا في المجموعة الشمسية، إضافة إلى الأتربة والغازات والمواد القريبة التي كانت قد استمرت في الوصول إلى الكوكب أثناء انكماش سحابة المادة المكَوِّنة للمجموعة الشمسية إلى الداخل بفعل الجاذبية.

هكـذا وصل كوكـب الأرض بعد حوالي أربعين مليون عـام تقريبًا وبفعل الجاذبية (التفاعلات النورانية) إلى حوالي تسـعة وتسـعين بالمائة من الحجم الـذي هو عليه الآن. وهكذا أيضًا حصـل كوكب الأرض على جميع مكوناته مـن المواد.. مواد كانت على وشـك أن تبدأ رحلـة طويلة جدًّا من التفاعلات الكيميائيـة المسـئولة عن إنشـاء الكائنات الحيـة عليه فيما بعد، فهـذه المواد القادمة من السـماء (تكوينًا لكوكب الأرض) هي نفسـها بطبيعة الحال المواد التي أنشأت الحياة عليه فيما بعد كما سنرى.

جميع المواد المكوِّنة لكوكب الأرض «نزلت» إليه من السماء! نزلت إليه من الفضـاء بفعل الجاذبية (النورانية)! التفاعـلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّـي نورًا – أنزل من السـماء المواد التي أنشـأت كوكب الأرض! هكذا

مثلًا «أنـزل الحديد» (الحديد هـو المكوّن الأعظم لكوكـب الأرض)، هكذا أيضًا «أنزل الماء من السماء» إلى كوكب الأرض أثناء تكوّنه!

قصـة تكوّن القمر لم تثبت بصورة علمية قاطعة بعد، إلا أن عصر رحلات الفضاء وتمكن الإنسـان من الوصول إلى سـطح القمر وحصوله على عينات مـن صخـوره تطابقت مع الصخـور المكوّنـة لكوكـب الأرض – إضافة إلى معطيات أخرى – ترجح نظرية هي اليوم الأكثر قبولًا بين العلماء.

نظريـة تقترح أن القمر «انشـق» عن كوكب الأرض فـي مرحلة متقدمة من مراحـل تكـون الكوكب إثر اصطـدام كوكب آخر تحت التكويـن (آنذاك قبل مليارات السـنين) بكوكب الأرض، ليصبح بذلك هذا الكوكب الصغير جزءًا مـن كوكـب الأرض، ولينفصـل إثر هـذا الاصطدام جزء مـن كوكب الأرض منطلقًـا فـي اتجاه الفضاء، قبـل أن يؤدي تـدرج انخفاض سـرعته إضافة إلى الجاذبية بينه وبين الأرض إلى ثبات هذا الجسـم المنشـق عن كوكب الأرض علـى مسـافة قريبة منه نسـبيًّا، لينشـأ بذلك القمـر وليبدأ دورانـه حول كوكب الأرض بفعل الجاذبية.

لـم يكن كوكب الأرض – عند تكوّنه – شـبيهًا بالكوكـب الذي نحيا عليه اليوم في أي شـيء، بل كان كوكبًا مختلفًا اختلافًا جذريًّا! يكفي أن نذكر مثلًا أن «الماء» لم يكن موجودًا على «سـطح» الكوكب كما هو الحال الآن. الماء لم يكن موجودًا في البداية على هيئة محيطات وبحار وأنهار، بل كان موجودًا في «باطن» الكوكب (صعود الماء إلى سطح الأرض حدث في مرحلة لاحقة كما سنرى). ذلك أن المواد (بما في ذلك الغازات) التي نزلت من الفضاء إلى كوكب الأرض إنشـاءً له لم تكن مرَتَّبـة طبقًا لوزنها (كما هو الحال الآن)، بل كانت مرَتَّبة طبقًا لأسبقية وصولها إلى كوكب الأرض أثناء تكوّنه.

كذلك لم يكـن الغلاف الجوي (الهواء) الأصلـي المكوّن لكوكب الأرض يشـبه الغـلاف الجوي الموجـود الآن في أي شـيء. الغـازات المكوّنة للغلاف الجوي الأصلي لكوكب الأرض - عند اكتمال تكوّنه - تكوّنت في المقام الأول من غاز «أول» أكسـيد الكربون (غاز سـام للكائنات الحية!). (الغازات المكوّنة للغلاف الجوي مواد متَكَوِّنة من ذرات في حالة غير مرئية لعين الإنسان).

أضـف إلـى ذلك أن كوكـب الأرض كان في البداية (بعد انتهـاء تكوّنه) في حالـة غليان مسـتمر؛ ذلك أن ارتطام المـواد المكونة له وتجاذبهـا إلى الداخل -في اتجاه باطن الكوكب- كان قد أدى إلى عمليات احتكاك رهيبة بين كميات الحديد المهولة النازلة إلى باطن الكوكب، وهو ما أدى بدوره إلى زيادة الحرارة فـي باطن الكوكب إلـى أن تعدّت الحرارة هناك في باطنه السـبعة آلاف درجة، لينصهر بذلـك الحديد الموجود في باطن الكوكب (وكما هو الحال الآن)، بل وليصبح في حالة غليان، لتنشأ بذلك البراكين بما تشمله من حمم (حديد سائل في حالة غليان على درجة حرارة تتعدى الألف درجة مئوية).

السـبعة آلاف درجـة فـي باطـن كوكب الأرض تفـوق السـتة آلاف درجة على سـطح الشـمس! إلا أن هذه الحرارة لا تقارن بالطبع بالمليون درجة في مركز الشـمس، والتي تـدل فيما تدل على فارق الحجم المهول بين الشـمس والأرض، فحـرارة كل جـرم في السـماء تعتمد على كمية المـادة المكونة له. صغـر حجـم المـادة المكَوِّنة لـلأرض هو تحديدًا مـا حال دون اشـتعال هذه المادة - اشـتعالًا ذريًّا - كما تشـتعل كميات المادة الضخمة المكوّنة للنجم، وهذا تحديدًا ما جعل من الأرض كوكبًا وليس نجمًا.

كل هـذه العوامـل الأولـى -ترتيب المـواد المكَوِّنـة له، غيـاب الماء من على سـطحه، غليانـه وبراكينه الموجودة فـي كل مكان، مناخـه العام ونوعية الغـازات المكَوِّنـة لغلافـه الجوي- جعلـت مـن «الطبيعة» الأولـى المكونة

لكوكـب الأرض طبيعـة مختلفة لا تمت للطبيعـة الحالية بأي صلـة: الطبيعة «منتج ثانوي» متغيّر يعتمد اعتمادًا مباشرًا على التفاعلات النورانية – أي على الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا منشئًا لها!

«طبيعـة» كوكب الأرض الأولى هذه كانت لتحول دون نشـأة الحياة عليه تمامًا كما حالت «الطبائع» الأخرى دون نشأتها على الكواكب الأخرى!

لـم يكن مـن «الطبيعي» أن تنشـأ الحياة علـى كوكب الأرض. قصة نشـأة الحياة من المادة – قصة نشأة الحي من الميت – بعد ذلك على كوكب الأرض هي أيضًـا قصة تلك التفاعلات النورانية (الجاذبية والكهرومغناطيسـية) التي أعادت إعداد «قوت الأرض» أي مكوناتها بطريقة عجيبة كما سنرى. إنها قصة «تطور كوكب الأرض» بعد نشـأته، والتي كانـت قد تَلت قصة «تطور الكون» بعد نشأته، قصة نورانية الأحداث بدأت فور انتهاء نشأة هذا الكوكب.

الجاذبيـة (النورانية) هي ما بدأ مراحل تطويـر كوكب الأرض، تطويرًا بدأ بدفعها الحديد الموجود على سـطح الكوكب إلى النـزول إلى باطنه تدريجيًّا (لثقـل وزنه)، ليحل بذلـك الحديد مكان المواد الأخف وزنًـا (بما فيها الماء والغـازات) الموجـودة حتـى ذلك الحين تحت سـطح الكوكـب وفي باطنه، ليقوم بذلك الحديد بدفع هذه المواد إلى الصعود إلى أعلى، ولتسـتمر بذلك الجاذبيـة (النورانيـة) في ترتيبها المواد المكوّنة لكوكـب الأرض طبقًا لوزنها فـي المقـام الأول، ولتنِشـئ بذلـك هـذه الجاذبيـة (النورانية) سـطحًا جديدًا وغلافًا جويًّا جديدًا لكوكب الأرض.

التفاعـلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلِّي نـورًا – هو ما أعاد ترتيب كوكب الأرض، والحديد الذي أنزله إلى باطن الكوكب كان فيه «بأس شديد» قائـم علـى دفع المواد جميعًا إلى أعلى؛ لتأخذ بذلك الأرض شـكلها الجديد آنذاك!

قصة «تطور» كوكب الأرض قصة شملت فيما شملت عملية تخليص هذا الكوكـب من غلافـه الجوي الأصلي والذي كان ليعوق نشـأة ثم تطور الحياة علـى مسـتويات عـدة، نذكر منها على سـبيل المثـال أن هذا الغـلاف الجوي الأصلي لم يكن ليسـتطيع الاحتفاظ بالماء (الـذي لم يكن قد خرج من باطن الأرض بعـد) حـال تبخره بسـبب الحـرارة كما يحـدث الآن بفضـل تكثيف الغلاف الجوي الموجود حاليًّا الماء «المتبخر» من البحار إنشاءً للسحاب!

ذلـك أن عمليـة احتفـاظ كوكـب الأرض بالمـاء علـى هيئـة سـحاب عمليـة تتطلـب غلافًا جويًّـا متكوّنًا من غـازات معينة ذات خصائـص نورانية كهرومغناطيسـية محددة (تفاعلات كهرومغناطيسـية مـن طبيعة خاصة) ذات قدرة على منع بخار الماء من المرور إلى الفضاء، لتتم بعد ذلك عملية تكثيفه على هيئة سـحاب ولتتيح بذلك انخفاض حرارته، ثم نزوله على هيئة أمطار، عملية خاصة غير يسيرة كما قد نفترض اليوم.

تخليـص كوكـب الأرض من غلافـه الجوي الأصلي حـدث بفعل تفاعل نوراني عجيب جاء من حيث لا نحتسـب: سـطح الشـمس! اشـتعال الشمس نجمًـا (فـي هـذه الأثناء) أدى إلـى هبوب «الرياح الشمسـية» - ريـاح نورانية كهرومغناطيسـية شديدة القوة تتكون من «موجات جزئية» مثل الإلكترونات، قـدوم هذه الرياح إلـى كوكب الأرض قام بدفع غلافه الجـوي الأصلي بعيدًا ملقيًا به في أماكن بعيدة من المجموعة الشمسـية! وهكذا خَلَّصت التفاعلات النورانيـة - هكـذا خَلَّص الخالق الباطن المُتَجَلّي نـورًا - كوكب الأرض من غلافه الجوي الأصلي!

خـروج الغازات المحبوسـة فـي باطـن الأرض - بعد نـزول الحديد إليه ودفعـه هـذه الغـازات لأعلى - أنشـأ بعـد ذلك غلافًـا جويًّا جديـدًا لكوكب الأرض (مختلفًـا عـن الغلاف الجوي الحالي)، غلافًا جويًّـا تكوّن في المقام

الأول مـن غاز «ثاني» أكسـيد الكربون الذي يختلف اختلافًـا جذريًّا عن غاز «أول» أكسيد الكربون (رغم تشابه الاسمين).

خصائـص ثاني أكسـيد الكربون النورانيـة الكهرومغناطيسـية هي تحديدًا مـا مكّنته من القيام بدورين رئيسـيين في قصة «تطور كوكب الأرض» ونشـأة الحيـاة عليها. الـدور الأول هـو تكوينه غلافًا جويًّـا قادرًا علـى تكثيف الماء المتَبَخِـر من المحيط والاحتفاظ به على هيئة سـحاب منعًـا لفقدانه في اتجاه الفضـاء كما حدث على كوكـب المريخ مثلاً. التفاعـلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشـأ بذلك السـحاب، وهو ما يستمر بذلك في إنزال الماء مجددًا من السماء على هيئة أمطار!

الـدور الثانـي هو تكويـن غلاف جوي قـادر على تنظيم عمليـة الاحتفاظ «المثالـي» بالحرارة القادمة من الشـمس إلى كوكب الأرض على هيئة أشـعة نورانية؛ ذلك أن خصائص «ثاني» أكسيد الكربون النورانية الكهرومغناطيسية تمكّنه من القيام بدور شبيه بالدور الذي تقوم به الصوبة الزراعية في الاحتفاظ بالحرارة والرطوبة.

ما يدعو إلى الذهول هو تزامن «اشـتعال» الشمس نجمًا مع «انتهاء» تكوّن كوكب الأرض! لو أن اشتعال الشمس نجمًا – وبالتالي هبوب الرياح الشمسية بكثافة على كوكب الأرض – كان قد تم قبل انتهاء الجاذبية من تكوين كوكب الأرض وبالتالي أيضًا قبل انتهاء تكوّن غلافه الجوي الأصلي لما تخلّص هذا الكوكب من هذا الغلاف الجوي الأصلي.

في الاتجاه العكسـي أيضًا، لو أن اشتعال الشمس نجمًا – وبالتالي هبوب الرياح الشمسـية بكثافة على كوكب الأرض – كان قـد تم بعد انتهاء الجاذبية من دفع غاز ثاني أكسـيد الكربون مـن باطن كوكب الأرض إلى أعلى لقامت

هـذه الريـاح الشمسـية بإزالـة غاز ثاني أكسـيد الكربـون أيضًا، ولما اسـتطاع كوكـب الأرض الاحتفـاظ بالمـاء، ولما حصل علـى درجة الحـرارة المثالية اللازمة لنشأة الحياة عليه.

تناغم الأحداث وتوقيتها متشـعب لدرجة مدهشة. هبوب الرياح الشمسية وتخلـص كوكب الأرض من غلافه الجوي الأصلي مَكَّن كوكب الأرض من التخلص سـريعًا من حرارته الشـديدة قبل خروج غاز «ثاني» أكسـيد الكربون مـن باطـن الأرض تكوينًـا لغلاف جوي ذي قـدرة على الاحتفـاظ بالحرارة. لـو كان خـروج المـاء من باطن كوكـب الأرض تم قبل تخلـص الكوكب من حرارتـه الشـديدة وغليانه المسـتمر لتبخر المـاء في اتجاه الفضـاء بقوة تفوق قدرة الغلاف الجوي الجديد على الاحتفاظ به، ولما نشأت الحياة عليه!

سـيمفونية نورانيـة رائعة تناغمت مـن خلالها التفاعـلات والأحداث في باطـن الشـمس وعلى سـطحه مع التفاعـلات والأحـداث في باطـن كوكب الأرض وعلى سـطحه، لتنشأ بذلك «الطبيعة» اللازمة لإنشاء الحياة بعد ذلك بمئـات كثيرة من ملايين من السـنين كما سـنرى! كل ذلـك كأن العلم أراد أن يؤكد على اسـتحياء أن الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا منشـئًا ومنظمًا لجميع التفاعلات المسـتمرة على مسـتوى كوكب الأرض والمجموعة الشمسـية – قَدَّر كلَّ تفاعل فأحسنه تقديرًا!

صعـود المـاء من باطن الكوكب إلى سـطحه أنشـأ –أول ما أنشـأ– كوكبًا مغطـًى بالماء بدلًا من سـطحه الجاف القديم، ليتحـول بذلك كوكب الأرض إلـى كوكـب مغطًى تمامًـا بالماء أي محيـط مائي واحد كبيـر! ظهور الأرض اليابسة فوق سطح الماء – تكوينًا للقارات – شيء حديث نسبيًا لم يحدث إلا قبل أقل من مليار عام مقارنة بعمر كوكب الأرض البالغ أربعة مليار وسـتمائة مليون عام.

هكـذا استمرت التفاعـلات النورانيـة – هكـذا استمر الخالـق الباطـن المُتَجَلِّـي نورًا – في تبديل «الطبيعة» إنشـاءً لطبيعـة جديدة لكوكب الأرض، وهكذا استقرّت حرارة الأرض عند متوسط سنوي يعادل أربعين درجة مئوية (أي ضعف متوسـطها السنوي الحالي) بعد أن كانت قد انخفضت إلى درجة قاربت درجة التجمد بعد التخلص من غلافها الجوي الأول (متوسط الحرارة الجديد كان أساسيًّا في عملية تمكين التفاعلات المسئولة عن نشأة الحياة بعد ذلك).

إلا أن الخطر القادم من الرياح الشمسية لم يكن قد توقف تمامًا رغم هبوط معدلاتهـا بصـورة قويـة (الرياح الشمسـية مسـتمرة إلى يومنا هـذا بمعدلات ضعيفـة)، فهذه الرياح كانـت لتقضي على الغلاف الجـوي الجديد بعد فترة، وإن كانت لتبلغ أضعاف فترة قضائها على الغلاف الجوي الأقدم.

جـاءت حمايـة الغـلاف الجـوي الجديـد لكوكـب الأرض مـن موجات الرياح الشمسـية من آخـر مكان يمكن أن يتوقعه أي إنسـان، جاءت من باطن كوكـب الأرض! ذلـك أن نـزول الحديد إلى باطـن كوكـب الأرض نتج عنه تفاعل كهرومغناطيسي (نوراني) بين هذه الكميات المهولة من ذرات الحديد المكوّنة له، وهو ما أنشـأ بدوره مجالًا كهرومغناطيسـيًّا فريـدًا من نوعه حول الكوكب، مجالًا كان على وشك أن يقوم بدور الدرع الواقي من هذه الرياح.

إنه تحديدًا ذلك المجال الذي يمَكِّن «البوصلة» من الاستدلال على اتجاه الشـمال على كوكب الأرض. إنه أيضًا ذلك المجال الاستثنائي غير الموجود (أغلب الظن) على الكواكب الأخرى.

التفاعـل النورانـي الكهرومغناطيسـي بين الموجـات الكهرومغناطيسـية المكَوِّنـة للرياح الشمسـية مـن جانب وموجـات المجال الكهرومغناطيسـي

لكوكب الأرض أدى – بل ويؤدي إلى يومنا هذا – إلى رد وطرد مكونات هذه الرياح الشمسية في اتجاه الفضاء الخارجي.

«بأس» الحديد النازل من السماء إلى كوكب الأرض لتكوينه كان متعدد المنافع، ذلك أنه لم يقتصر على إعادة ترتيب المواد المكَوِّنة لهذا الكوكب وتكوين غلاف جوي جديد وسطح مغطى بالماء، بل كان أيضًا ذلك «البأس الشديد» القائم على حماية هذا الكوكب من الرياح الشمسية إلى يومنا هذا!

ارتطام الرياح الشمسية بالمجال الكهرومغناطيسي لكوكب الأرض هو تحديدًا ما قد نشاهده اليوم في بعض مناطق الكرة الأرضية على هيئة برق وصواعق، ظاهرة تكررت بصورة شبه مستمرة خلال المليار عام الأولى من عمر كوكب الأرض؛ لتقوم بذلك بتزويد كوكب الأرض بمقادير من الطاقة والحرارة كانت لازمة آنذاك لدفع عمليات التفاعلات الكيميائية المسئولة عن نشأة الحياة في نهاية تلك الفترة.

هكذا حصل كوكب الأرض على مليار عام من الطاقة المجانية! ما يدعو إلى الدهشة والذهول معًا هو أن الرياح الشمسية نفسها التي كانت لتقضي على فرص نشأة الحياة تحوّلت هي نفسها – تلقائيًّا بفضل هذه التفاعلات النورانية – إلى ذلك العامل «المساعد» القائم على توفير الطاقة المسئولة عن دفع التفاعلات المسئولة عن إنشاء الحياة قدمًا!

وكأن هذه الاكتشافات العلمية أرادت أن تخبرنا فيما تخبرنا أن الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا منَظِّمًا لجميع هذه الأحداث – ذا قدرة عجيبة على تسخير الضار ليصبح نافعًا! وكأنها أرادت أن تخبرنا أنه «الضار النافع»! وكأنها أرادت أن تخبرنا أنه «المهيمن» على كل حدث وكل نتيجة.

نزول الحديد إلى باطن الأرض كان كما ذكرنا ذلك البأس الذي قام بدفع جميع المواد بأنواعها المختلفة إلى أعلى، لتتخذ بذلك كثير من هذه المواد موقعها في قاع المحيط المائي الكبير الذي كان قد أحاط بسطح كوكب الأرض، ولتبدأ بذلك بينها داخل الماء التفاعلات الكيميائية المسئولة عن إنشاء الحياة من المادة – إنشاء الحي من الميت – بعد ذلك بحوالي ثمانمائة مليون عام كما سنرى.

هكذا بدأ الماء في القيام بدور «الرحم» المحتضن للتفاعلات الكيميائية التي ستكون مسئولة عن إنشاء الحياة، وهكذا أيضًا بدأ الماء في القيام بدور «الدرع» الواقي القائم على حماية هذه التفاعلات من تقلبات المناخ – خارجه – والتي كانت لتقضي على هذه التفاعلات.

الأدوار التي قام بها الماء شملت قيامه بدور الدرع الواقي للتفاعلات من موجات الصقيع والتجمد الموسمية؛ ذلك أن خصائص الماء النورانية الكهرومغناطيسية تجعل منه تلك المادة العجيبة الاستثنائية التي لا تسقط طبقتها المتجمدة (الثلج) إلى قاع طبقتها السائلة كما يحدث مع بقية المواد.

طفو الثلج على سطح الماء هو تحديدًا ما شكّل «الطبقة العازلة» للصقيع الموسمي، الطبقة العازلة للبرودة مُمكنة بذلك بقية كميات الماء من الاستمرار سائلًا في أعماق المحيط، لتستمر بذلك التفاعلات الكيميائية دون انقطاع رغم الصقيع (هذه الطبقة العازلة مستمرة إلى اليوم في حماية الكائنات الحية الموجودة في الماء تحت الثلج في القطبين الشمالي والجنوبى).

المدهش هو أن الماء قام أيضًا – في الاتجاه العكسي – بحماية هذه التفاعلات الكيميائية من الحرارة العالية بفضل دورته البيئية؛ ذلك أن سطح الماء يتَبَخَّر بعد استهلاكه الحرارة الموسمية – وعزله لها عن الأعماق – لتظل بذلك حرارة أعماق المحيط مستَقِرة.

بل أكثر من ذلك، يقوم الماء المتَبَخِر بعد ذلك بإنشاء السحاب الذي يقوم بدوره بحجب أشعة الشمس وبالتالي حرارتها، ليؤدي ذلك إلى انخفاض الحرارة، ذلك بالطبع قبل أن ينزل مجددًا على هيئة أمطار ليعود بذلك إلى مكانه في المحيط بعد أن يكون قد أدى مهمته بنجاح، وكأن شيئًا لم يحدث! دورة بيئية كاملة تعتمد بصورة حصرية تامة على شيء واحد فقط: الخصائص النورانية الكهرومغناطيسية للماء!

دع جانبًا أن هذه الدورة هي أيضًا ما سيمَكِّن وصول الماء على هيئة أمطار إلى الأرض اليابسة – بعد ظهورها من داخل المحيط المائي الكبير بعد ذلك بمليارات السنين – لتمكن بذلك دورة الماء انتقال الحياة إلى هذه الأرض اليابسة بعد نشأتها في أعماق المحيط كما سنرى، ولتتحول بذلك الحرارة المسئولة عن تبخير المياه من المحيط من خطر «ضار» للتفاعلات المسئولة عن إنشاء الحياة إلى ظاهرة «نافعة» قائمة على إنشاء الحياة وتطورها على الأرض اليابسة!

قيام التفاعلات النورانية – قيام الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – بتسخير الضار ليصبح نافعًا لا ولن ينتهي! وحديثنا عن تناغم هذه التفاعلات بل هذه «السيمفونية النورانية» المسئولة عن نشأة الحياة فيما بعد حديث ممتد إلى مستويات يعجز العقل ويعجز العلم عن الإلمام بها بأي قدر يوفيها حقها!

يكفي أن نذكر سريعًا الدراسة التي قام بها العالم الأمريكي مايكل هارت أحد علماء وكالة الفضاء الأمريكية – ناسا NASA – في عام 1977 أثناء محاولته فهم المعطيات التي مكّنت نشأة الحياة على كوكب الأرض مقارنة بالكواكب الأخرى. أثبتت دراسة مايكل هارت فيما أثبتت أن أي تغير بسيط – لا يتعدى واحد بالمائة قربًا أو خمسة بالمائة بعدًا عن الشمس – كان ليؤدي حتمًا إلى فقدان المعطيات التي أدت إلى نشأة الحياة على كوكب الأرض!

أي مسافة أقصر – بين كوكب الأرض والشمس – كانت لتؤدي إلى زيادة درجات الحرارة بصورة قصوى تتخطى الحرارة الموسمية وقدرة الماء على القيام بدورته البيئية، وبالتالي تَبَخر الماء من على كوكب الأرض كما حدث على كوكب المريخ، وما كانت الحياة لتنشأ أبدًا على هذا الكوكب.

أي مسافة أطول – بين كوكب الأرض والشمس – كانت لتؤدي إلى هبوط درجات الحرارة بصورة قصوى تتخطى الصقيع الموسمي بكثير، وبالتالي تجمد الماء الموجود على سطح الكوكب تجمدًا تامًّا كما هو الحال في أطراف المجموعة الشمسية بعيدًا عن حرارة الشمس، وما كانت الحياة لتنشأ أبدًا على هذا الكوكب.

العلاقات الكونية ممتّدة، فالمسافة الدقيقة بين كوكب الأرض والشمس اعتمدت بدورها على مقدار الجاذبية (النورانية) بينهما والتي اعتمدت بدورها على حجم المادة المكوّنة لكل منهما! لو كان حجم الشمس أو حجم كوكب الأرض مختلفًا لاختلفت قوة الجاذبية بينهما، ولأصبح كوكب الأرض أقرب أو أبعد مما هو عليه، ولاختلفت بالتالي درجات الحرارة عليه، ولما نشأت الحياة عليه أبدًا. التناغم الدقيق بين حجم الشمس من جانب وحجم كوكب الأرض من جانب كان أحد معطيات نشأة الحياة عليه!

التحليل ممتدّ، اعتمد حجم كوكب الأرض بدوره على كمية الحديد المكوّنة له بما إنه كوكب يتكوّن في المقام الأول من الحديد الذي يمثّل أكثر من تسعين بالمائة من وزنه الافتراضي (وحوالي خمسة وثلاثين بالمائة من إجمالي المواد المكوّنة له إذا ما وضعنا في الاعتبار الغلاف الجوي بغازاته)، أي إن الحديد النازل من السماء لتكوين كوكب الأرض كان فيه بأس شديد على هذا المستوى أيضًا، بأس شديد قائم على تثبيت كوكب الأرض في

موقعه من المجموعة الشمسية لتكتمل مقومات نشأة الحياة عليه. وكأن العلم أراد أن يشير إلى أن التفاعلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – ألقى في الأرض رواسي كي لا تميد عن موقعها!

هنا تتملكنا الدهشة مجددًا حينما نعلم أن الحديد – الذي يمثل حوالي خمسة وثلاثين بالمائة من إجمالي المادة المكوّنة لكوكب الأرض – لا يمثل إلا واحدًا بالألف من إجمالي المادة المكوّنة للمجموعة الشمسية؛ أي إن الموقع الدقيق الخاص الذي تكوّن فيه كوكب الأرض من المواد المختلفة – بفعل الجاذبية (النورانية) – أتاح له الحصول على ثلاثمائة وخمسين ضعف ما كان يمكن أن يشمله من خلال آلية توزيع منتظمة!

أثبتت دراسة هيئة الفضاء الأمريكية أيضًا أن أي اختلاف في كمية الحديد المكوّن لكوكب الأرض كان ليؤدي – على مستوى مختلف تمامًا – إلى اختلاف معدل جاذبية كوكب الأرض للماء الموجود على سطحه وكذلك معدل جاذبيته للغازات الموجودة في غلافه الجوي.

لو كانت كميات الحديد المكَوِّنة لكوكب الأرض أقل لقلت قوة جاذبيته للماء والغازات، ولفقد الكوكب قدرته على الاحتفاظ بالماء والغازات تمامًا كما حدث مع تلك الكواكب الأخرى التي فقدت الغازات والماء في اتجاه الفضاء (كوكب المريخ مثلًا)، ولما نشأت الحياة عليه.

والعكس صحيح، لو كانت كمية الحديد المكَوِّنة لكوكب الأرض أكبر لزادت قوة جاذبيته للماء والغازات، ولانضغطت وزادت بالتالي كثافة الغازات المكوّنة للغلاف الجوي إلى درجة منعت أشعة الشمس من الوصول إلى الأرض بالقدر الكافي، ولاختلفت بذلك درجات الحرارة وكثير من العوامل الطبيعية الأخرى، ولما نشأت الحياة عليه.

المدهـش بل الرائع الـذي يتخطى قدرة العقل على الاسـتيعاب فهو ذلك التناغم – بل التطابق الدقيق – بين قدر الجاذبية الأمثل على مستوى المجموعة الشمسـية (كميـة الحديد اللازمة لتحديد المسـافة المثلى بين كوكب الأرض والشـمس) من جانب وقدر الجاذبية الأمثل على المستوى الداخلي لكوكب الأرض (كمية الحديـد المطلوبة لتمكين كوكب الأرض من الاحتفاظ بالماء والغازات كما ينبغي)!

تناغـم يتخطـى حديثنـا عـن سـيمفونية التفاعـلات النورانيـة (الجاذبيـة والكهرومغناطيسـية) المسـئولة عن إنشـاء كل ذلك إلى ما هو أأصل وأعمق: الذهـول التـام أمـام قـدرة هـذا العلـم الباطن (هـذا الخالـق الباطـن العليم) المسـئول عن تقدير وهندسـة تناغم الخصائص التفاعلية (النورانية) للذرات والمواد مسـبقًا قبل تَجّلّيه نورًا منشـئًا لكل هذا الكون وكل هذه الذرات وكل هذه المواد!

السـيمفونية متشعبة، كمية الحديد نفسـها (قدر الجاذبية نفسها) المسئولة عن إنشـاء تناغم جميع هـذه المعطيات المثلى التي ذكرتها أنشـأت أيضًا هي نفسـها – على مسـتوى ثالث مختلف تمامًا – المعدل المثالي لدوران كوكب الأرض حول الشمس. أي معدل أسرع أو أبطأ (أي كمية مختلفة من الحديد) كان ليـؤدي إلـى اختلاف طول كل فصـل من الفصول الأربعـة ليصبح أطول أو أقصـر مـن اللازم، ولاختلفت بذلك العوامل الطبيعية المسـئولة عن نشـأة وتطور الحياة (بما في ذلك عمليات النمو والتكاثر).

تناغم العلاقات التفاعلية (النورانية) ممتدّ، مقدار كمية الحديد نفسها هذه (قـدر الجاذبية نفسـها) حدّدت أيضًا – على مسـتوى رابع مختلف – المعدل المثالي لدوران كوكب الأرض حول نفسـه. أي معدل سـريع لدوران كوكب

الأرض حـول نفسـه كان ليـؤدي إلـى دورة للنهار والليل أسـرع مـن اللازم، ولقلـت بالتالـي كميـات الضـوء والحـرارة التي لزمـت بدقة بعد ذلك لنشـأة وتطور الحياة. في الاتجاه العكسـي، أي معدل بطيء لدوران كوكب الأرض حول نفسـه كان ليؤدي إلى نهار طويل جدًّا وحار جدًّا وليل طويل جدًّا وبارد جدًّا، ولفُقِدَت بالتالي المقومات المناخية اللازمة لنشأة وتطور الحياة.

أن يكون قدر الجاذبية (كميات الحديد النازل من السماء) اللازمة لتحديد درجة الحرارة المثلى على كوكب الأرض هو القدر اللازم نفسه لتحديد كمية الضـوء المثلى له، هو نفس القـدر اللازم لتحديد احتفاظه بالماء على الطريقة المثلـى، هو نفـس القدر الـلازم لتحديد احتفاظـه بالغازات بالكثافـة المثلى لغلافـه الجوي، هو نفس القدر اللازم لدوران كوكب الأرض حول الشـمس بالمعدل الأمثل، هو نفس القدر اللازم لدوران الأرض حول نفسـها بالسرعة المثلـى، لا يـدع بعـد ذلك فرصـة للحديث عـن الصدفة على هذا المسـتوى أيضًـا! الحديث عن الصدفة حديث سـطحي يجهل الحقائـق العلمية الأدق، بغض النظر عن اسم أو شهرة العالم المتحدث بها!

بل إننا على العكس التام من ذلك مواجهون بتناغم نوراني – بل سيمفونية نورانيـة كونية متشـعّبة لا يمكن بأي حال من الأحـوال توفيتها قدر إعجازها. سـيمفونية نورانية مذهلة – متشعّبة على مستويات عديدة – لا تربطها ببعضها أية علاقة مباشـرة سـوى اعتمادها جميعًا على النـور – اعتمادها على الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – في كل شيء، بدءًا بخصائصها الباطنة مرورًا بتفاعلاتها الظاهرة وانتهاءً بنتائجها الملموسة.

سـيمفونية نورانية متشعّبة لم تكن لتتواجد أصلًا لو لم ينشِئ النور – لو لم ينشِـئ الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – خصائـص الذرات ثم المواد والأجرام السـماوية على هـذه الصورة التي هي عليهـا أو لم ينشـئ تفاعلاتها ونتائجها

طبقًا لهذا النظام النوراني التي هي عليه، لنتأكد بذلك – على هذا المستوى أيضًا – أن الخالق الباطن وسع كل شيء علمًا، تقديرًا وتخطيطًا مسبقًا!

كل شيء متَّصِل عودة في الماضي، نشأة وتطور الحياة على كوكب الأرض اعتمدت على مواده وتكوينه وحجمه وموقعه من المجموعة الشمسية التي اعتمدت بدورها في موادها وتكوينها على موقعها من مجرة درب اللَّبَّانة التي اعتمدت بدورها في موادها وتكوينها على موقعها من الكون الذي كان قد اعتمد في نشأته ونظام تطوره على تَجَلّي النور من العدم: كل شيء متصل عودة في الماضي إلى لحظة تَجَلّي الخالق الباطن نورًا منشِئًا لهذا الكون!

قصه الخلق من العدم (3):
نشأة الحياة

كيف نشأت الحياة؟ متى نشأت؟ وما معنى وجودها؟ لغز حيّر الإنسان منذ فجر التاريخ.

شهد عصرنا الحديث خلال القرون القليلة الماضية تنافس خمسة معتَقَدات رئيسية أثناء محاولة حلّ هذا اللغز. هذه المعتَقَدات الخمسة شملت معتَقَدين «علميين» لخصا اختلاف العلماء حول حل هذا اللغز، بالإضافة إلى معتَقَدين «دينيين» لخصا اختلاف الديانات حوله، وأخيرًا معتَقَد خامس قائل بأن الحياة أزلية (لا بداية لها) وأنها جاءت إلى كوكب الأرض في الماضي البعيد جدًّا من الفضاء.

معتَقَد الفريق الأول من العلماء هو المعتَقَد الذي عرف باسم «الإنتاج التلقائي» Spontaneous Generation، معتَقَد مفاده أن الحياة مازالت تَنشَأ من المادة – في كل عصر وزمان إلى يومنا هذا – بصورة فورية تلقائية عند تفاعل أنواع محددة من المادة (بغض النظر عن علمنا أو جهلنا بهذه المواد).

معتَقَد الفريق الثاني من العلماء هو المعتَقَد القائل بأن الحياة نشأت من تفاعل المادة في الماضي البعيد – فقط لا غير – تحت ظروف خاصة جدًّا يستحيل تكرارها اليوم، رافضين بذلك نظرية «الإنتاج التلقائي».

معتقدا الفريقين الدينيين هما هذان المعتقدان اللذان كانا قد اتفقا بصورة عامة حول المبدأ القائل بأن الحياة نشأت من تراب (مبدأ مقبول علميًّا عندما ندرك أن الذرات هي أدق أنواع التراب، تراب لا يرى بالعين المجردة). إلا أنهما أيضًا هذان الفريقان اللذان اختلفا اختلاف النقيضين في تفاصيل هذا المبدأ.

المعتَقَد الديني الأول هو ذلك المعتَقَد المؤمن بوجود ربّ خالق – ربّ منفصل عن الطبيعة – قام بخلق كل كائن من الكائنات الحيّة من التراب بصورة مباشرة فجائية دون أي مراحل إنشائية من أي نوع كيميائيًّا كان أو حيويًّا (رافضين مبدأ خلق الكائنات الحية من التراب على أطوار).

المعتَقَد الديني الثاني معتَقَد اختلف مع معتَقَد الفريق الديني الأول في إصراره أن الخالق الذي خلق كل كائن من الكائنات الحية لم يكن خالقًا «خارجيًّا» يمكن الفصل بينه وبين الطبيعة أو بينه وبين أيٍّ من هذه الكائنات الحية، أن الخالق «باطن» أقرب إلى الطبيعة وأقرب إلى الكائنات الحية منها إلى نفسها.

هذا المعتقد الثاني أصرّ أيضًا على أن قصة خلق كل كائن حي من التراب لم تكن أبدًا قصة تحوّل مفاجئ لهذا التراب (لم يكن تحولًا فجائيًّا شبيهًا بأعمال السحرة)، إنما عمل إنشائي متدرّج قام به الخالق «الباطن» الذي لا يمكن الفصل بينه وبين الطبيعة أو بينه وبين المادة، أي إن قصة خلق الكائنات الحية تمّت على أطوار (مراحل) عديدة، هذا بغض النظر عن علمنا أو جهلنا بهذه المراحل.

معتَقَد الفريق العلمي الأول – والذي عرف تحت اسم «الإنتاج التلقائي» – كان المعتَقَد الأكثر شيوعًا بين علماء أوروبا حتى منتصف القرن التاسع

عشـر لتمتعه آنذاك بتأييد مجموعة من أقوى وأشـهر علماء «التاريخ الطبيعي» (علم «الأحياء» كما كان يطلق عليه حتى نهاية القرن التاسع عشر).

هـؤلاء العلمـاء كانـوا قـد شـملوا فيما شـملوا العالـم الفرنسـي الكونت دو بوفـون أحـد أهم مؤسسـي علـم «التاريخ الطبيعـي» في أوروبـا في عصر التنويـر فـي القـرن الثامن عشـر (الفترة نفسـها التي أسـس فيها نيوتـن قوانين الفيزيـاء الكلاسـيكية)، علمـاء كانوا قد شـملوا من بعـده (في القـرن التالي) العالـم البريطاني تشـارلز داروين والـذي كانت نظريته في «تطـور الحياة» قد جعلت منه أحد أشهر الشخصيات العلمية في منتصف القرن التاسع عشر.

اعتمـد هـذا الفريق مـن العلماء المؤمنيـن بنظريـة «الإنتـاج التلقائي» في دفاعهم عن هذه النظرية على تجربة كان العالم الراهب الكاثوليكي البريطاني چون نيدهام (1713–1781) قد قام بها في عام 1745.

قـام نيدهـام بخلـط مجموعـة من مـواد مختلفة فـي محلول داخـل أنبوبة مختَبَـر، ذلـك قبل أن يقـوم بغلقها ثـم بتعَريضَها لحـرارة عالية لقتـل أي نوع من الحياة الميكروسـكوبية (أي شـكل من أشـكال الحياة التي لا ترى بالعين المجردة) والتي ربما قد تكون انتقلت من الجو إلى المحلول. نيدهام قام بعد ذلـك بتـرك الأنبوبة مغلقة فترة من الزمن ليتيح تفاعـل أنواع المادة الموجودة فـي المحلـول معًا. فـي النهاية جـاءت النتيجة لتبين نشـأة كائنـات حية دقيقة (كائنات ميكروسـكوبية مثل البكتيريـا) داخل أنبوبة المختبر، وهكذا اعتبرت تجربة نيدهام إثبات أن الحياة مازالت تنشأ من تفاعلات المادة – تلقائيًّا – في كل زمان (وإلى يومنا هذا).

إلا أن العالم الإيطالي لازارو سبالانزي (1729–1799) أعلن رفضه وتحديه هذه النتائج بعد ذلك بثلاثين عامًا. العالم سبالانزي كان قد قام بإعادة التجربة

نفسها دون أن تظهر أي كائنات حية في المحلول، وعليه افترض سبالانزي أن نيدهام لم يحكم غلق أنبوبة المختبر؛ أي إن أشكال الحياة الدقيقة التي ظهرت في أنبوبة نيدهام انتقلت إليها من الهواء.

نظرية «الإنتاج التلقائي» للحياة استمرت - رغم اعتراض العالم الإيطالي سبالانزي - في التمتع بشعبية كبرى بين العلماء بسبب مساندة العالم الفرنسي بوفون ثم العالم البريطاني داروين وغيرهما لها، بل إن العالم البريطاني تشارلز داروين قدمها في بداية كتابه «أصل الكائنات» - الصادر في عام 1859 والذي تضمن نظريته في «تطور الحياة» - معتقدًا أنها الآلية المسئولة عن نشأة الخلية قبل بدء عملية تطورها.

إلا أن انتصار هذا الفريق - وهذه النظرية - لم يكن نهائيًا، فعلى الجانب الآخر كان يقف عالم من أعظم علماء الكيمياء والطب في التاريخ متحديًا إياها. إنه العالم الفرنسي الشهير لويس باستير (1822-1895) مكتَشِف «التطعيم» ومكتشف «البسترة» التي أطلق عليها اسمه والتي تستخدم إلى يومنا هذا في تعقيم اللبن والعصائر التي نشربها.

العالم الفرنسي لويس باستير قام - في عام 1862 - بإعادة التجربة تحت رقابة الأكاديمية الفرنسية للعلوم ليثبت بصورة قاطعة ونهائية أن المواد الكيميائية في أي محلول معقم جيدًا - محكم الغلق - تظل كذلك ولا تنتج أي شكل من أشكال الحياة. أثبت لويس باستير كذلك أن أشكال الحياة الدقيقة تنتقل إلى المحاليل من الهواء على هيئة بكتيريا قبل أن تتكاثر سريعًا بعد ذلك داخلها أو في أي مكان آخر تنتقل إليه.

هكذا أسقطت تجربة العالم الفرنسي لويس باستير نظرية «الإنتاج التلقائي»، وهكذا أيضًا حصل العالم الفرنسي على جائزة الهومبرت التي

منحتهـا له الأكاديمية العلمية الفرنسـية نظيـر إنجازاته العلميـة، وهكذا أيضًا تراجع داروين عن اعتقاده في هذه النظرية.

توالت بعد ذلك الاكتشافات والحقائق العلمية الحديثة في القرن العشرين؛ لتكشف عن تفاصيل لم يكن علماء القرن التاسع عشر ليحلموا أصلًا بإمكانة تحقيقها، اكتشـافات قدمت قبل نهاية القرن العشـرين حـلًّا لذلك اللغز الذي كان قـد حيَّـر الإنسـان بصفة عامـة منذ فجر التاريخ! اكتشـافات كشـفت عن تفاصيل قصة نشأة الحياة من المادة!

الاكتشـافات العلمية التي كشـفت عن تفاصيل قصة نشـأة الحياة من المادة تحققت بصور مستقلة عن بعضها من خلال علوم مختلفة؛ ذلك قبل أن تتكامل هذه العلوم وهذه الاكتشـافات معًا لتقص بذلك تفاصيل هذه القصة كما سنرى تدريجيًّـا. شـملت هذه العلوم فيما شـملت علم الچيولوچيـا Geology (علم دراسـة طبقـات الأرض بعـد تنقيبهـا)، علـم الباليونتولوچـي Paleontology (علـم تنقيب هذه الطبقات بحثًا عن الكائنـات الحية المنقرضة)، علم الكيمياء Chemistry، علـم الكيمياء الحيويـة Bio-Chemistry (علم كيمياء الحياة)، علم المايكروبايولوچي Micro-Biology (علم الأحياء الدقيق)، علم الأحياء Biology، وغيرها من العلوم المختلفة.

علم الچيولوچيا هو علم تنقيب ودراسة طبقات القشرة الأرضية (المتراكمة عبر مليارات السنين)، وعلم الباليونتولوچي هو ذلك العلم المشترك بين علم الچيولوچيا وعلم الأحياء، علم يعمل على اكتشاف تاريخ الحياة على كوكب الأرض من خلال عمليات تنقيبية متخصصة تهدف إلى اكتشاف أنواع كائنات قديمة منقرضة مدفونة تحت هذه الطبقات الأرضية.

علم الباليونتولوچي علم شـبيه بعلم الحفريات Archeology الذي مكّننا مـن اكتشـاف مدن قديمـة – مثل مـدن الفراعنة – تحـت الأرض، ذلك العلم

الذي يمكننا بذلك من اكتشاف تاريخ الحضارات الإنسانية من خلال عملياته الحفرية التنقيبية هذه.

إلا أن علم الباليونتولوچي (وعلم الجيولوجيا) يختلف عن علم الحفريات في أنه يمكننا من دراسة أزمنة أقدم كثيرًا، دراسة تلك الأزمنة البعيدة جدًّا والتي كانت قد تلت انتهاء تكوّن كوكب الأرض قبل مليارات السنين، علم يمكننا من اكتشاف أنواع الكائنات البدائية المنقرضة التي كانت قد نشأت تباعًا على سطح كوكبنا عبر تاريخه، ذلك قبل أن تموت ويتحجر بعضها (تحت ظروف خاصة) وتتراكم فوقها طبقات ثم طبقات من التربة بسبب العوامل الطبيعية تمامًا كما تراكمت التربة فوق مدن الفراعنة.

هذه العمليات التنقيبية هي تحديدًا ما مكّننا من اكتشاف أجزاء هامة من تاريخ الحياة على كوكب الأرض.. هكذا مثلًا اكتشف العلماء الهياكل العظمية لحيوانات الديناصورات بأنواعها المختلفة، وهكذا أيضًا تمكنوا من اكتشاف أن الديناصورات كانت قد نشأت قبل حوالي 240 مليون عام قبل أن تنقرض قبل حوالي 60 مليون عام.

تقدير هذه الأزمنة البعيدة جدًّا يعتمد على استخدام العلماء تَقنيات «القياس الزمني»، تقنيات تشمل فيما تشمل مثلًا تقنية قياس التاريخ الكربوني Carbon Dating، تقنية تعتمد على دراسة معدل التحلل الإشعاعي لنوع من أنواع ذرة الكربون (الموجودة في طبقات التربة بصفة عامة)، نوع يعرف باسم الكربون 14 لاحتوائه على عدد استثنائي من النِيوترونات، وهو ما يؤدي إلى تحللها طبقًا لجدول زمني معلوم يمكن العلماء من قياس عمر الكائنات الموجودة في هذه التربة تحديدًا.

جميع الكائنات المنقرضة المكتشفة من خلال علم الباليونتولوچي مصنفة في «سجل» طبقًا لتاريخها وقدر التشابه بينها. إنه ذلك السجل الشهير

المعروف باسـم «سـجل الحفريات» Fossil Record، سجل يحكي مراحل متقطعـة جدًّا من تاريخ الحياة وتاريخ تسلسـلها على كوكب الأرض (سـجل مليء بالفجوات التاريخية بسـبب محدودية الاكتشـافات)، سـجل لا يشـمل إلا حوالـي ثلاثمائة ألف كائن منقرض من إجمالي الكائنات المنقرضة والتي تقدر ما بين خمسة مليارات وأربعين مليار كائن.

ربمـا كانـت أهم إنجـازات علـم الباليونتولوچـي – وعلوم أخـرى – هو اكتشاف أول وأبسط شكل من أشكال الحياة على كوكب الأرض: الخلية.

الخليـة فـي لغة العلم هـي «النّطفة» فـي اللغـة العربية؛ ذلـك أن «النّطفة» مصطلح مستخدم تاريخيًّا بالفعل في توصيف أنواع مختلفة تمامًا من «الخلية» كمـا هو الحال في القرآن المتحدث عن ثلاثة أنواع من النّطف: «النّطَفة» التي يمنيها الرجل (الحيوان المنوي لا يتكون كما كشف العلم إلا من خلية واحدة غيـر مخصبة)، «النّطفة» كأول مرحلة من مراحـل تكون الجنين في رحم الأم (الجنين يبدأ على هيئة خلية واحدة مخصبة بعد تلاقي وتكامل الخلية الذكرية (الحيـوان المنـوي) مـع الخلية الأنثوية (البويضة) كما كشـفت الاكتشـافات العلميـة الحديثـة)، وأخيرًا وليـس آخرًا «النّطفـة» ذلك الكيان الذي نشـأ من التراب قبل أن ينشأ منه الإنسان (نبوءة خلق آدم) كما سنرى.

اكتشـاف أعـداد غفيرة مـن «الخلية» متَحَجِّـرة (كما تتحجر الأشـجار مع مـرور الزمـن) في أماكـن مختلفة من كوكبنـا – تحت طبقـات أرضية معلومة الزمـن – أثبت نشـأة الخلية مـن المادة لأول مـرة قبل حوالي ثلاثـة مليارات وثمانمائـة مليون عـام تقريبًا، اكتشـافات أثبتت أيضًا أن الخليـة (النّطفة) هي أول كائن حي نشأ على كوكب الأرض!

الخلية تتكون كما اكتشف العلماء من أنواع محددة من المواد كما سنرى. اكتشـاف أجيال متدرجة التعقيد من هذه المواد – وبصور مسـتقلة عن بعضها

– فـي طبقات التربة الأقدم (طبقات أقدم من تلك التي شـهدت ظهور الخلية لأول مـرة) أثبـت للعلمـاء بصورة قاطعة أن نشـأة الخلية (بأعـداد غفيرة) من الذرة (التراب غير المرئي بالعين المجردة) لم يتم بصورة فجائية، إنما اعتمادًا علـى مراحل متعاقبة مـن التفاعل والتكامل الكيميائي بيـن الذرات ثم المواد الأكثر ثم الأكثر تعقيدًا.

الخلية (النّطفة) ليست فقط أول وأبسط كائن حي نشأ على كوكب الأرض، بل هي أيضًا الكائن الحي الوحيد الذي نشأ مباشرةً من عمليات التفاعل والتكامل بين الـذرات (التراب غير المرئي بالعين المجردة) والمواد الناشـئة عنها، ذلك قبل أن تصبح الخلية (الخلايا) بدورها نقطة الانطلاق في عملية إنشاء الكائنات الأكثر تقدمًا (نقطة الانطلاق في قصة تطور الحياة) كما سنرى.

هكذا سـقط المعتَقَد الديني الأول المعتَقِد في نشأة كل كائن من الكائنات الحية الحديثة مباشـرة من التراب (الذرة) – فجأة – دون أية مراحل إنشـائية! هكـذا سـقط أيضًا المعتقد الخامس – المعتقد أن الحيـاة أزلية الوجود، وأنها جـاءت إلـى كوكـب الأرض من الفضـاء بعد ثبـوت نشـأة الحياة مـن المادة الموجـودة على كوكب الأرض، وهكذا تراجع عدد النظريات المتنافسـة إلى اثنيـن بـدلًا من خمسـة بعد أن سـقط قبلهما المعتقـد العلمـي الأول –معتقد الإنتاج التلقائي للحياة– كما رأينا.

النظرية العلمية المتبقية (أن الحياة نشأت من تفاعلات المادة في الماضي البعيـد تحت ظروف لا يمكـن تكرارها اليوم) والمقتـرح الديني المتبقي (أن النّطفة نشـأت على أطوار من التراب قبل أن تصبح بدورها نقطة الانطلاق في عملية إنشـاء الكائنات الحديثة مثل الإنسـان) ليسـا إلا وجهين لعملة واحدة! المشكلة لم تكن أبدًا في تعارض المقترحين، بل إما في جهل كل فريق منهما بمقترح الفريق الآخر، أو في أسلوب استيعابه له!

التقدم العلمي المذهل في العقود الأخيرة من القرن العشـرين يقص علينا اليوم أدق تفاصيل قصة تطور الذرة (التراب) خلقًا من بعد خلقٍ إنشـاءً لأنواع من المادة أكثر ثم أكثر تقدمًا وتعقيدًا إلى أن نشأت في النهاية الخلية (النّطفة) خلقًـا آخـر! قصة تتضـح معالمهـا ومعانيها الأعمـق تلقائيًّا بمجرد اسـتيعابنا طبيعة التفاعل المسئول عن إنشاء أنواع المواد من الذرات ثم الخلية من أنواع المواد: ما يطلق عليه العلماء لقب التفاعل «الكيميائي».

جميع أنواع التفاعل الكيميائي –التفاعل المسـئول عن إنشاء أنواع المادة جميعًا ثم الحياة من المادة على هيئة خلية –يمكن تلخيصها بطريقة أبسط مما نتخيل؛ ذلك أن هذه التفاعلات الكيميائية جميعًا ليست –في حقيقتها العلمية الأدق– إلا محصلة شيء واحد فقط: عدد الإلكترونات المكوّنة للذرات!

كنَّا قد ذكرنا تكوّن كل نوع من أنواع الذرة من عدد متكافئ من البروتونات المكوِّنة لنواتها والإلكترونات «النابضة» حولها بصورة مستمرة، كنا قد ذكرنا أيضًـا أن الإلكترونـات (هذه الموجـات النورانية) تختفي أثنـاء نبضها لتظهر مجددًا في كل مرة في مكان آخر حول نواة الذرة.

نبـض الإلكترونـات حـول النـواة ينشـئ للذرة «مجـال» – مجـال كروي الشكل – مسئول عن تحديد حجم وحدود كل ذرة من الذرات المختلفة. ذرة الهيدروجيـن مثلًا (أصغـر ذرة في الكون) تتكون كما رأينا من إلكترون واحد في حالة نبض حول نواتها (المتَكَوِّنة من بروتون واحد)، نبض هذا الإلكترون ينشِـئ لهذه الذرة مجـالًا خارجيًّا صغيرًا، هذا المجـال الصغير هو تحديدًا ما ينشئ ذرة الهيدروجين على حجمها الصغير جدًّا.

ذرة الهليـوم (ثانـي أصغر ذرة فـي الكون) تتكون مـن إلكترونين في حالة نبض حـول نواتها (المتَكَوِّنة مـن بروتونين). نبض هذيـن الإلكترونين حول

هذه النواة هو ما ينشئ لذرة الهليوم مجالها الصغير، وبالتالي حجمها الصغير أيضًا.

حجم ذرة الهليوم هو حجم ذرة الهيدروجين نفسه (وإن كان وزنها أكبر لتكونها من عدد أكبر من البروتونات)؛ ذلك أن مجال ذرة الهليوم مطابق في الحجم لمجال ذرة الهيدروجين، مجال يمكن أن يسع لإلكترونين كحد أقصى كما هو حال ذرة الهليوم، فإن زاد عدد الإلكترونات المكَوِّنة للذرة على اثنين نشأ لها تلقائيًّا مجال جديد.

ذرة الليثيوم مثلًا والتي هي ثالث أصغر ذرة في هذا الكون – لتكونها من ثلاثة بروتونات وثلاثة إلكترونات – تتكوّن من مجالين: مجال داخلي متكوّن من إلكترونين كحده الأقصى، ومجال خارجي أكبر محيط بمجالها الداخلي، لتَنشأ بذلك ذرة الليثيوم بحجم أكبر نسبيًّا من حجم الذرتين الصغريين.

هذا المجال الثاني يمكن أن يستوعب ثمانية إلكترونات كحد أقصى (إضافة إلى الإلكترونين المكوّنين للمجال الأول)، فإن زاد عدد الإلكترونات المكوّنة لنوع الذرة على عشرة نشأ لها مجال ثالث كمجال خارجي محيط بالمجالين السابقين.. وهكذا وهكذا من جديد مجال من بعد مجال يمكن أن يستوعب كل منها عدد ثمانية إلكترونات بحد أقصى.

ذرة الأكسجين مثلًا –والتي تتكون من ثمانية بروتونات في نواتها وثمانية إلكترونات دائمي النبض حول هذه النواة – تتكون من مجالين: مجال أول يشمل إلكترونين (حده الأقصى)، ومجال ثانٍ خارجي يشمل الإلكترونات الستة الباقية.

ذرة الذهب مثلًا تتكون من تسعة وسبعين بروتونًا وتسعة وسبعين إلكترونًا مقسمين في أحد عشر مجالًا، مجال أول يتكون من إلكترونين (حده

الأقصى)، تسعة مجالات متعاقبة يتكون كل منها من ثمانية إلكترونات (الحد الأقصى لكل منهم)، ومجال عاشر أخير - مجالها الخارجي المتَكَوِّن من الإلكترونات الخمسة المتبقية.

جميع أنواع التفاعلات الكيميائية بين جميع أنواع المواد الموجودة في الكون - بما في ذلك تلك المسئولة عن نشأة الحياة على هيئة خلية (من التفاعل الكيميائي بين أنواع المادة) - ليست في حقيقتها العلمية الأدق إلا نتيجة مباشرة لشيء واحد فقط: «عدد» الإلكترونات الواقعة في المجال «الخارجي» لكل ذرة من الذرات المتفاعلة معًا!

السبب بسيط جدًّا، جميع الذرات تتجاذب نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا بهدف «استكمال» الحد الأقصى لعدد الإلكترونات الموجودة في مجالها «الخارجي»؛ ذلك أن استقرار الذرة (نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا) لا يتحقق إلا عندما يكون مجالها الخارجي مكتمل العدد من الإلكترونات.

أي إن التفاعل الكيميائي ليس في حقيقته العلمية الأدق إلا نوعًا متقدمًا من التفاعل و«التكامل» النوراني الكهرومغناطيسي: التفاعلات النورانية - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هو وهو فقط من ينشئ التفاعلات الكيميائية وهو ما يدفعها قدمًا!

دعونا نأخذ «ملح الطعام» مثلًا. ملح الطعام هي مادة كلورايد الصوديوم كما يطلق عليه العلماء، مادة تتكوّن بسبب التفاعل و«التكامل» بين ذرة كلورايد وذرة صوديوم تعاونًا منهما على استكمال المجال الخارجي لكل ذرة منهما؛ ذلك أن المجال الخارجي لذرة الكلورايد يتكون من سبعة إلكترونات بينما يتكوّن المجال الخارجي لذرة الصوديوم من إلكترون واحد. التجاذب والتكامل بين نواة كل ذرة منهما وإلكترونات الذرة الأخرى يمكن اشتراك هذه الذرات

الخارجية الثماني في تكوين مجال خارجي «واحد» مشترك بينهما (استكمالًا للحد الأقصى من الإلكترونات)، ليتحقق بذلك لكل ذرة من الذرتين استقرارها النوراني الكهرومغناطيسي (من خلال هذا الاتحاد الكيميائي)!

هذا التكامل النوراني الكهرومغناطيسي بين ذرة الكلورايد وذرة الصوديوم من خلال هذا المجال الخارجي المشترك بينهما – والذي يطلق عليه العلماء لقب «الاتحاد الكيميائي» – هو تحديدًا ما ينشئ مادة «ملح الطعام» التي نأكلها!

دعونا نأخذ أيضًا «الماء» كمثال آخر.. الماء كما نعلم مادة تتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين. ذرة الهيدروجين تتكون من إلكترون واحد، أي ينقصها إلكترون آخر لاستكمال الحد الأقصى لمجالها الخارجي الصغير (اثنين). ذرة الأكسجين ذرة يتكون مجالها الخارجي من ستة إلكترونات، أي ينقصها إلكترونين لاستكمال الحد الأقصى لمجالها الخارجي (ثمانية).

التجاذب والتكامل النوراني الكهرومغناطيسي بين نواة ذرة الأكسجين من جانب وإلكترون كل ذرة من ذرتي الهيدروجين (كل على حدة) من جانب آخر يمكّن ذرة الأكسجين من الحصول على الإلكترونين اللازمين لاستكمال الحد الأقصى لإلكترونات مجالها الخارجي.

في الاتجاه العكسي أيضًا، التجاذب بين نواة كل ذرة من ذرتي الهيدروجين (كل منهما على حدة) من جانب وإلكترون من إلكترونات المجال الخارجي لذرة الأكسجين من جانب آخر يحقّق لكل ذرة منهما هدفه في الحصول على الإلكترون اللازم لاستكمال الحد الأقصى لإلكترونات مجالها الخارجي الصغير (إلكترونين). وهكذا يصبح المجال الخارجي لذرة الأكسجين مجالًا مشتركًا بين هذه الذرات الثلاث، لتتم بذلك عملية الاتحاد الكيميائي بينهما!

هـذا التكامـل النوراني الكهرومغناطيسـي (هـذا الاتحـاد الكيميائي) بين ذرتـي الهيدروجيـن وذرة الإكسـجين هو تحديدًا ما ينشـئ مـادة «الماء» التي نشربها! إنه ما ينشِئ الماء مادة جديدة لم تكن موجودة على المستوى السابق قبل تكامل هذه الذرات الثلاث معًا!

خلاصـة كل ذلك هـو أن النظـام «النوراني» الكهرومغناطيسـي المنشـئ للـذرات يدفـع عملية تجاذبها وتكاملهـا في مجموعات طبقًـا لقواعد «ثابتة» منظمـة (غير عشـوائية)، منشـئًا بذلك كل مـادة من المواد الموجـودة في هذا الكـون كمجموعة مترابطة من الذرات: النـور - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا منشِئًا ومنَظِّمًا للتفاعلات النورانية - هو وهو فقط «خالق» كل تفاعل كيميائي فـي هذا الكـون بصورة تلقائية «مُنَظَّمة» لا عشـوائية ولا صدفـة فيها! النور - الخالـق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هو من ينشـئ من الذرات خلقًا جديدًا لتَنشـأ بذلك جميع المواد الموجودة في هذا الكون!

هذه ببسـاطة شـديدة هي «الكيمياء»! هذا هو الاتحاد الكيميائي المسئول عـن نشـأة جميع المواد الموجـودة في الكون على اختـلاف أنواعها وتفاوت أحجامهـا، بـل هذا هـو الاتحـاد الكيميائي الذي سـيكون مسـئولًا فـي نهاية المطاف عن إنشاء الحياة من المادة كما سنرى.

نشـأة المـاء أو الملـح مثـلًا - هـذه المـواد المتكوّنـة من عـدد صغير من الذرات - لم يكن إلا نقطة البداية في سلسلة التفاعلات الكيميائية التي كانت قـد بدأت فـي الفضاء (في أرجـاء الكون) بين الـذرات قبل مليارات السـنين قبـل أن تسـتمر على كوكب الأرض بعد نشـأته وقبل أن تـؤدي في النهاية إلى نشـأة الخلية عليه؛ ذلك أن عمليات الاتحاد بين الذرات المسـئولة عن إنشـاء المواد البسيطة (الماء أو الملح مثلًا) تستمر إلى أن تظهر فرصة تكامل نوراني كهرومغناطيسـي أقـوى (تفاعل جديد)، تكامل نوراني يشـمل عـددًا أكبر من

أنويـة الـذرات (البروتونات)، وهو ما قد يحقق قوة تماسـك واسـتقرار أقوى للذرات ومجالاتها الخارجية.

هكذا اسـتمرت التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسية في دفع التفاعلات الكيميائيـة، هكذا اسـتمر الخالق الباطـن – المُتَجَلّي نورًا – في إنشـاء المادة خلقًا من بعد خلقٍ! إنه «تطور المادة» الذي سبق نشأة الحياة!

الـذرات (أنواع التراب غير المرئي بالعين المجردة) هي وحدة بناء المواد جميعًا، فكل مادة من المواد الموجودة في هذا الكون ما هي إلا تركيبة خاصة –تركيبـة فريـدة من نوعها– من أعداد وأنواع محـددة من الذرات المتكاملة نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا معًا.

اللغـز العلمـي الأكثـر تحييرًا للعلمـاء – على هـذا المسـتوى – هو قدرة الاتحـاد الكيميائـي بين الذرات على إنشـاء مـواد جديدة – مـواد ذات طبيعة وخصائص – لم تكن موجودة بطبيعة الحال على المستوى السابق قبل اتحاد الذرات! مواد من طبيعة يستحيل التنبؤ بها بدراسة الذرات التي أنشأتها!

المـاء مثـلًا لـم يكن شـيئًا – لم يكـن مادة موجـودة في أي مـكان في هذا الكون – قبل اتحاد ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسـجين معًا! كيف نشـأ الماء بطبيعته وخصائصه المختلفة – اختلافًا جذريًّا – عن طبيعة وخصائص ذرات الهيدروجين والأكسجين لمجرد وبمجرد اتحادهم وتكاملهم معًا؟!

إنـه لغز «الخصائص الناشـئة» كما يطلـق عليه العلماء. لغـز يذكّرنا باللغز الأكثـر غموضًا وأهمية في علم الفيزياء: لغز نشـأة أنـواع الذرة على اختلافها لمجـرد وبمجرد تكونهـا من أعداد مختلفـة من البروتونـات والإلكترونات! ذلـك اللغز الذي كان قد كشـف في النهاية كما رأينا عـن المفاجأة الكبرى أن كلَّ نـوعٍ مـن أنواع الذرة مـا هو – في حقيقته العلميـة الأدق – إلا تيار نوراني

خـاص فريـد من نوعه، دليـل أن النور ليـس إلا الظاهر من مصـدر معلوماتي مطلق (خالق باطن عليم) قائم على إعطاء كل ذرة طبيعة خلقها من خلال تيار نوراني معلوماتي فريد في قدره!

حـل لغز «الخصائص الناشـئة» – والذي مازال يحيّر علمـاء الكيمياء إلى يومنـا هـذا –يعتمد بكل بسـاطة على تخطـي الحدود التي تفصـل بين العلوم وتجزئها كما ذكرنا، يكمن في استيعاب التواصل في قصة الخلق على مستواها العلمي الأدق – مستوى التيارات النورانية الفريدة المسئولة عن إنشاء كل ذرة من الذرات على اختلاف أنواعها.

كي نحل لغز «الخصائص الناشئة» بكل يسر وبساطة دعونا ننظر مجددًا إلى الاتحاد الكيميائي المسـئول عن نشـأة الماء مادة جديدة لم تكن موجودة على المستوى السابق قبل تكامل ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسجين إنشاءً لها.

تكامـل هذه الـذرات الثلاث نورانيًا كهرومغناطيسـيًا – من خلال المجال الخارجي المشترك بينها – ينتج عنه شيء عجيب، ينتج عنه نشأة «تيار نوراني» كهرومغناطيسي «واحد» مشترك بين الذرات الثلاث بدلًا من التيارات الثلاثة النورانية الكهرومغناطيسـية الفردية السابقة التي كانت قد أنشأت كل ذرة منها على حدة!

«المـاء» ليس –في حقيقته العلميـة الأدق– إلا تيارًا نورانيًـا «مُرَكّبًا»، تيار نوراني خاص فريد من نوعه ناشئ عن تكامل الموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات) المنشـئة للتيـارات النورانية الأصغر (الـذرات الفردية)! هذا التيـار النورانـي الجديد الفريد هو وهو فقط ما ينشـئ الماء مـادة جديدة ذات طبيعة جديدة لم تكن موجودة على المستوى السابق!

كل مـادة من المـواد المختلفـة الموجودة فـي هذا الكون ليسـت بدورها –في حقيقتها العلمية الأدق– إلا تيارًا نورانيًا فريدًا من نوعه ناشئًا عن تكامل الدوائـر النورانية الكهرومغناطيسـية الأصغـر (الذرات) المتكاملة معًا إنشـاءً لهذه المادة تحديدًا!

عملية إنشـاء المواد عملية إنشـاء نورانية! قدر فريـد مرَكَّب من النور –هو وهو فقط– ما ينشأ ويحدد كل نوع من أنواع المادة تمامًا مثلما حدد قدر النور قبـل ذلك نوع كل ذرة من الذرات المختلفة! النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا هو وهو فقط من «ينشئ» كل مادة ويعطيها طبيعة خلقها!

النور هو النظام الذي أنشأ المواد من الذرات تمامًا كما تُنشئ اللغة «الجمَل» من «الكلمات»، وذلك بعد نشـأة هذه الذرات من البروتونات والإلكترونات كما تنشأ «الكلمات» من «الحروف»!

الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا منشئًا للذرة ثم المادة – أقرب إليها جميعًا منها إلى نفسها، إنه سر طبيعة المادة وسر «الخصائص الناشئة»!

حل لغز «الخصائص الناشئة» – الذي مازال يحيّر علماء الكيمياء – يكمن فـي اسـتيعابهم هذه الحقيقة البسـيطة جـدًّا والتـي مازالت للأسـف نوعًا من التحليـل غير المتداول لمجرد وقوعها خارج حـدود علم الكيمياء كما نعرفه اليوم. حل اللغز الذي مازال يحير علماء «الكيمياء» لا يتطلب منهم إلا تخطي الحـدود التي مازالت تفصل بين العلـوم تعرفًا على المصدر الأصلي «الحق» المسئول عن إنشاء أنواع المادة على اختلافها!

هذا بكل بسـاطة هو حل اللغز، إنه أيضًا «سـر» الكيمياء، السـر الذي حيّر الإنسـان والعلمـاء منـذ فجر التاريـخ: النور – الخالـق الباطـن المُتَجَلّي نورًا

خالقًـا للمـواد – أعطى كل مادة في هذا الكون طبيعـة خلقها وخصائصها من خلال تيـارات نورانية «معلوماتية»! وكأن العلم أراد أن يخبرنا على اسـتحياء أن النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – يقول للمادة كوني فتكون!

الذرة (التراب غير المرئي بالعين المجردة) هي وحدة بناء الخلية (النّطفة)، أي إن الخلية لن تكون هي أيضًا – على المسـتوى العلمي الأدق والأعمق – إلا «تيار نوراني» فريد جدًّا معقد جدًّا في تكوينه النوراني الكهرومغناطيسـي! ونبـض الحياة في الخلية (والكائنات الحية جميعًا) لن يكون إلا نتيجة «نبض النور» في المادة المكوّنة لها، نتيجة النبض والتيار النوراني المؤسس لها!

التفاعل والتكامل بين أنواع المادة أنشأ في مرحلة متقدمة جدًّا (بعد مئات الملاييـن من السـنين من التفاعل علـى كوكب الأرض) المـواد الكبرى التي سـتكون مسـئولة عن نشـأة الحي من الميت (نشـأة الخلية من المادة) بطريقة مباشـرة بعد ذلك كما سـنرى! إنها تلك المواد التي يطلـق عليها العلماء لقب «المواد العضوية»، المواد الضخمة التي قد يشتمل كل منها على مئات الآلاف من الذرات المتكاملة نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا معًا!

فـإن كنا قد شـبهنا الموجات النورانيـة الجزئية (الإلكترونـات والبروتونات) «بحـروف» اللغة النورانية والذرات الناشـئة منهما «بالكلمـات» النورانية والمواد الناشـئة مـن هـذه الـذرات «بالجمـل» النورانيـة، فإن المـواد العضويـة الصغرى يمكن تشـبيهها «بالفقرات» والمواد العضوية الكبرى يمكن تشـبيهها «بالفصول» النورانية، والخلية يمكن تشبيهها «بالكتاب»!

قصة نشأة الخلية (الحياة) من تفاعل المواد العضوية ليست بكل بساطة إلا امتـدادًا «طبيعيًّا» للتفاعلات «الكيميائية» كمـا عرضناها في صورتها النورانية الأبسط والأعمق والأدق.

الخلية نشـأت من مجموعة ضخمة جدًّا من المواد (تفوق أنواعها العشرة آلاف نـوع!)، والترتيـب الدقيـق جـدًّا لهذه المواد هـو ما حوّل هـذا التكوين «المادي» الميت إلى كائن حى! الترتيب الدقيق هو العامل المسئول عن إنشاء «نبـض الحي» من نبض الميت (نبض المادة)؛ أي ترتيب آخر – لنفس المواد – لم يكن لينشـئ الخلية ولم يكن لينشـئ الحي من الميت! «النظام» النوراني المؤسـس للحيـاة نظام دقيق بصـورة صارخة تجعل الحديث عـن «الصدفة» حديث سطحي جدًّا على هذا المستوى أيضًا!

قصـة ترتيـب المواد المكوّنـة للخلية – هـذا الترتيب الدقيـق المعقد جدًّا المسـئول عن إنشـائها كائن حي – قصـة منظَّمة جدًّا، قصة لعـب «الماء» فيها دورًا رئيسـيًّا (إضافـة إلى أدواره الأساسـية الأخرى التـي ذكرناها عند حديثنا عن كوكب الأرض ودور الماء في تمكين نشأة الحياة عليه).

كـي نفهم دور الماء كأداة رئيسـية مسـئولة عـن هذا الترتيـب الدقيق لهذه الآلاف العديـدة مـن المواد، دعونـا نتذكر أولًا أن الحياة نشـأت في قاع الماء المحيط بكامل سطح كوكب الأرض قبل ثلاث مليارات وثمانمائة مليون عام دعونا نتذكر أيضًا أن الحياة نشأت بعد حوالي ثمانمائة مليون عام من التفاعل بين المواد الموجودة هناك داخل الماء.

كـي نفهم هذا الـدور دعونا أيضًـا ننظر مجددًا وسـريعًا إلى جـزيء الماء المتَكَـوِّن كمـا نعلـم مـن ذرتي هيدروجيـن وذرة أكسـجين. كنا قـد ذكرنا أن الاتحـاد الكيميائي بيـن هذه الذرات الثلاث اعتمد علـى عملية التجاذب بين البروتونـات المكَوِّنـة لكل نـواة من أنوية هـذه الذرات الثـلاث (كل نواة من ناحيتهـا) من جانب والإلكترونات المكَوِّنة للمجال الخارجي المشـترك بين هذه الذرات الثلاث من جانب آخر.

تفوق قوة الجذب الكامنة في نواة ذرة الأكسجين مقارنة بقوة الجذب الكامنة في نواة كل ذرة من ذرتي الهيدروجين (لتكونها من ثمانية بروتونات أي ثماني شحنات إيجابية مقارنة ببروتون واحد أي شحنة إيجابية واحدة في نواة ذرة الهيدروجين) ينتج عنه انجذاب الإلكترونات المشتركة بين هذه الذرات الثلاث بنسبة أعلى قليلًا في اتجاه نواة ذرة الأكسجين، وبما إن الإلكترونات موجات نورانية مشحونة سلبيًّا، فإن قدر الشحنة السلبية يزداد في جانب ذرة الأكسجين ويقل في جانب ذرتي الهيدروجين.

خلاصة ذلك هو أن جزيء الماء يصبح مشحونًا سلبيًّا في طرف ذرة الأكسجين ويصبح مشحونًا إيجابيًّا في الطرفين الأصغر المقابلين له (ذرتي الهيدروجين)، وكأن جزيء الماء «مغناطيس» نوراني له طرف سلبي في جانب وطرفان إيجابيان في الجانب الآخر! (جزيء الماء له شكل شبيه بشكل المثلث).

هذا المغناطيس «النوراني» المُتَجَلّي على أطراف جزيء الماء هو تحديدًا ما مكَّن الماء من القيام بدور مهم في ترتيب المواد ترتيبًا دقيقًا مَنَظَّمًا لها أثناء التفاعلات المسئولة عن إنشائها خلقًا من بعد خلق؛ ذلك أن اشتراك الماء في تكوين المواد التي كونت في النهاية الخلية مَكَّنه من القيام بدور مغناطيس نوراني قائم على جذب أطراف محددة من جزيئات المواد المتفاعلة (داخل الماء) ولفظ أطراف أخرى، ليستمر بذلك في ترتيب المواد المتفاعلة معًا ترتيبًا نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا دقيقًا مدة ثمانمائة مليون عام، لتنشأ بذلك خلال هذه الفترة المواد الأكثر ثم الأكثر تقدمًا، قبل أن تنشأ في النهاية الخلية على ترتيبها الدقيق المسئول عن إنشاء الحياة!

كل ذلك وكأن هذه القطبية النورانية المتجلية «على الماء» (على جزيء الماء) هي يد الخالق الباطن المتجلّي نورًا، يده النورانية – المقَدِّمَة المؤَخِّرَة

والخافِضَـة الرافِعَة – التي قامت بترتيب المواد كيفما شـاء وكيفما حدّد علمه الباطـن المُتَجَلّـي نـورًا، وكأن هـذه القطبيـة النورانيـة هي يده المسـئولة عن إنشـاء الخلية (النّطفة) من الذرة (التراب)، يده المسـئولة عن إنشاء الحي من الميت!

هذه «القطبية» الموجودة على الماء ليسـت فقط يده المسـئولة عن إنشـاء الحياة، بل هي أيضًا «عرشـه» المسئول عن «إظهار» ملكَه، فكل تكوين مادي فـي هـذا الكون – من الذرة إلـى النجوم والكواكب إلـى الكائنات الحية – ما هو كما رأينا إلا ناتج التفاعل «القطبي» النوراني الكهرومغناطيسي (المُتَجَلّي مجددًا على الماء)! كل ذلك وكأن العلم أراد أن يؤكد على استحياء أن عرش الخالـق الباطن (العرش الذي مكن تَجَلّي ملكه) موجود على الماء (لكل من أراد أن يتفكر في قصة خلق السموات والأرض)!

فـي جميع الأحـوال، هكـذا اسـتمرّت التفاعـلات الكيميائية فـي أعماق المحيـط المائـي، وهكـذا تحوّلت هذه الأعمـاق إلى معمـل كيميائي طبيعي مهـول الحجـم، بل هكـذا تحول المـاء إلى «رَحِـم» طبيعي محتَضِـن ومنَظِّم للتفاعلات النورانية الكهرومغناطيسية القائمة على إنشاء المواد الأبسط مواد أكثر ثم أكثر تقدمًا وتعقيدًا.

استمرار هذه التفاعلات في أعماق المحيط (ثمانمائة مليون عام) نتج عنه اشـتراك المـاء في أغلب التفاعلات التي انتهت بإنشـاء الخلية ليشَـكِّل بذلك (الماء) في النهاية أكثر من تسعين بالمائة من وزنها – رغم اشتمالها على أكثر من عشرة آلاف نوع مختلف من أنواع المادة.

أكثر من عشـرة آلاف نوع من أنواع المادة تنشأ ثم تتفاعل – بصور متوازية مسـتقلة عن بعضها ثمانمائة مليون عام – لتستمر بذلك في الاتحاد والتكامل

على أطوار متعاقبة، لتقل بذلك في كل مرة أعدادها وتزيد في كل مرة أحجامها إلى أن نشـأت المواد العضوية الكبرى –«المواد الذكية» المسـئولة عن إنشاء الخلية كما سيتضح الآن.

«المـواد الذكية» لقبٌ يطلقـه العلماء على كثير من المـواد العضوية الكبرى وذلـك لقـدرة كل مـادة منهـا على القيـام – كلًّ على حـدة – بإحـدى الوظائف المسئولة عن تحول هذه المواد معًا إلى كائن حي كما سنرى! «مواد ذكية» يمكن تقسـيمها – رغم أعدادها الكبيرة وأنواعها المختلفة – في أربع عائلات رئيسية: عائلة الأحماض النووية، عائلة البروتينات، عائلة الدهون، وعائلة النشويات.

فلنتتبع الآن قصة نشأة واحدة من هذه «المواد الذكية» من الذرة حتى إنشائها «الخلية». لنأخذ مثلًا قصة نشأة مادة الحمض النووي الديوكسير DNA المادة المسئولة عن عملية تكاثر الخلية وبالتالي المسئولة عن حفظ الحياة!

قصة نشأة الحمض النووي الديوكسير DNA قصة تفاعلات عديدة جدًّا، تفاعـلات بدأت بصـور متوازية «مسـتقلة» تمامًا عـن بعضها قبـل «تكاملها» تدريجيًّا علـى أطوار (مراحل) متعاقبة، تفاعـلات كيميائية (تفاعلات نورانية كهرومغناطيسية) كانت قد بدأت على المستوى الأبسط بتفاعل وتكامل عدد بسـيط جدًّا من ذرات الهيدروجين والسـيانيد إنشـاءً لمادة بسيطة تعرف باسم سيانيد الهيدروجين.

تفاعل أعداد من مادة سـيانيد الهيدروجين هذه معًا أدى في مرحلة لاحقة إلى نشأة مادة عضوية «صغرى» يطلق عليها العلماء لقب «الأدنين». تفاعلات أخرى كانت قد أنشـأت في هذه الأثناء – بصور متوازية مستقلة – ثلاث مواد عضويـة صغرى أخرى شـبيهة بالأدنيـن إلى حد كبيـر: الثيامين والسـيتوزين والجوانين.

تفاعل هذه المواد العضوية الصغرى الأربع وتكاملها معًا بأعداد كبيرة جدًّا لا حصر لها أنشأ في النهاية الحمض النووي الديوكسير DNA! لو لم تنشأ أيٌّ من هذه المواد الأربع «المستقلة» أصلًا لما استمرت التفاعلات المسئولة عن نشأة الحمض النووي الديوكسير DNA ولما نشأت بالتالي الحياة، ولما نشأ الإنسان ولما تواجدنا اليوم لنكتب ونقرأ ونتفكر في هذا الكلام! تواز مستقل مذهل في الأحداث يكشف عن استمرار تشعب السيمفونية النورانية الكهرومغناطيسية القائمة على إنشاء الحياة! السيمفونية النورانية التي كانت قد بدأت في الكشف عن نفسها أثناء حديثنا عن نشأة كوكب الأرض - والممتدة منذ لحظة تَجّلّي النور إنشاءً للكون وخصائص مكوناته!

الحمض النووي الديوكسير DNA (مثله مثل جميع المواد الأخرى) ليس -في حقيقته العلمية الأدق- إلا «تيارًا نورانيًّا» فريدًا معقدًا جدًّا في تكوينه ناتج عن عدد لا حصر له من الموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات) المتكاملة معًا إنشاء له (لهذه المادة)! هذا التيار النوراني المعقد هو تحديدًا ما ينشئ هذه المادة العضوية الكبرى على ما هي عليه من شكل وطبيعة وخصائص، وهو ما يوفّر لها معناها الحيوي، وهو أيضًا ما سوف يمكنها من القيام بوظائفها «الذكية» الحيوية كما سنرى! النور - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا- هو وهو فقط مصدر الوظائف الذكية القائمة على إنشاء الحي من الميت!

تفاعل وتكامل الحمض النووي الديوكسير DNA مع بقية المواد الذكية - التي كانت قد نشأت بصور متوازية مستقلة عن بعضها عبر مئات الملايين من السنين - هو تحديدًا ما أنشأ في النهاية الخلية (النّطفة) كائن حي!

هكذا نشأت الخلية (النّطفة) من الذرة (التراب) في الماء (بل ومن الماء في المقام الأول) قبل حوالي ثلاثة مليارات وثمانمائة مليون عام. هكذا

نشـأت الخلية تكوين شـبه كروي الشـكل متكـوّن من جدار خارجـي وعنابر داخليـة، فـكل عنبر من عنابرها ليـس إلا تركيبة مختلفة من أنـواع محددة من هـذه المـواد الذكية والتي تمثل بذلـك (وعلى هذا المسـتوى) أعضاء الكائن الحي في صورتها الأبسط!

هكذا نشأت الخلية (النّطفة) من الذرة (التراب) قبل أن تصبح بدورها كما سـنرى نقطة الانطلاق في عملية إنشاء جميع الكائنات الحية التي ستعمر بعد ذلك كوكب الأرض عبر تاريخ الحياة عليه.

نشـأة الخلية من الماء – قبل أن تصبح نقطة الانطلاق في تكوين الكائنات الحيـة جميعًـا – جعل من الماء كل شـيء حي (الماء يشـكل حوالي تسـعين بالمائة من تكوين كل كائن حي)!

الحياة ما هي – على المسـتوى الأعمق والأدق – إلا تيار نوراني (تكوين نورانـي) أنشـأته مليـارات عديـدة مـن الموجـات النورانيـة (البروتونـات والإلكترونات)! ونبض النور في المادة هو ما أنشـأ نبض الحياة فيها! النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو وهو فقط من أنشأ الحياة وهو سرها!

مـا يميّـز الخلية عن المواد التي أنشـأتها – ويجعل منها كائنًـا حيًّا – أربعة مظاهر رئيسـية، أولًا قدرتها على «انتقاء الغذاء» من الطبيعة، ثانيًا قدرتها على «هضمه»، ثالثًا قدرتها على اسـتخدام هذا الغذاء المهضوم في عمليات تؤدي إلـى «نموِّها»، وأخيرًا قدرتها على «التكاثر» (عن طريق الانقسـام) في النهاية بعد نموها!

السؤال الآن: كيف تحولت الخلية من مجرد مجموعة من المواد العضوية المتفاعلـة كيميائيًّـا إلـى كيان قادر علـى القيام بجميع هـذه الوظائف الحيوية المدهشة القائمة على إنشاء الحي من الميت؟!

عالم الخلية

أحـد أكثر الحقائق العلمية إبهارًا هو أن مادة الحمض النووي الديوكسـير DNA المسـئولة عن عملية تكاثر الخلية –وبالتالي حفظ الحياة– نشأت قبل الخلية (أي قبل الحياة) نفسها!

لو لم تنشـأ مادة الحمض النووي الديوكسـير DNA قبل الخلية لما بدأت الخليـة في التكاثر بعد دقائق معدودات من نشـأتها، ولما حفظت واسـتمرت بالتالـي الحياة، ولمـا تمكّنَت من التطور مدة ثلاثة مليـارات وثمانمائة مليون عام بعد ذلك إلى أن نشأ الإنسان! لو لم تنشأ مادة الحمض النووي الديوكسير DNA قبل الخلية لما وجدنا اليوم لنكتب ونقرأ هذا الكلام!

دع جانبًا أن مادة الحمض النووي الديوكسـير DNA هي أيضًا تلك الأداة النورانية الكهرومغناطيسـية العجيبـة القائمة على اختصار ثمانمائة مليون عام (الزمن الذي كان قد لزم لإنشـاء الخلية من المادة) في دقائق معدودة (الزمن اللازم لإنشاء الخلية من جديد من خلال عملية التكاثر)!

كل ذلك وكأن العلم أراد أن يشـير على اسـتحياء إلى أن قصة إنشاء الحياة (إنشاء الخلية) هي في حقيقتها قصة علم وتخطيط مسبق كان قد حسب وقدَّر مقدمًا التفاعلات ضمانًا للأحداث ونتائجها.

الملحـدون مـن العلمـاء المتخصصين يدفعـون أن «التجربـة والخطأ في الطبيعـة» هو ما أنشـأ مـادة الحمض النـووي DNA أولًا – بالصدفة – ممهدًا

بذلك الطريق لمرحلة أحدث من «التجربة والخطأ في الطبيعة» لتتيح بعد ذلك فرصة نشأة ثم تكاثر الخلية (بالصدفة أيضًا).

الملحدون لا يلتفتون إلى أن مجرد اعتماد الخلية في تكاثرها على مادة الحمض النووي الديوكسير التي كانت قد نشأت قبلها يعني حتمًا (لا محالة) وجود «نظام باطن» مسئول عن «ربط» الأحداث و«تناغم» نتائجها!

دع جانبًا دور هذا النظام الباطن في توفير هذه النتائج المنظمة «الخلّاقة» للتفاعلات. لا عجب إذًا أن موقفهم لا يعبر كما رأينا إلا عن سوء فهم يقصر تقييمهم «مفهوم» الخالق على موروثهم الثقافي القائم على الفصل بين الخالق والطبيعة!

عالم الخلية – ذلك العالم الذي لا تراه بعينيك المجردتين – عالم دقيق بديع «منَظَم» تنظيمًا عجيبًا لم يكن العلماء ليتخيلوا وجوده أصلًا قبل العقود الأخيرة من القرن العشرين! عالم عجيب يشمل تفاعلات متعاقبة متناغمة مذهلة مبهرة تتحدى أي حديث عن التجربة والخطأ في الطبيعة وأي حديث عن الصدفة! دعونا نغوص في هذا العالم لنكتشف بأنفسنا حقيقته كما ترويها الاكتشافات العلمية الأحدث في مطلع القرن الحادي والعشرين.

كنَّا قد توقفنا عند قدرة الخلية على القيام بالأربع وظائف الحيوية المسئولة معًا عن إنشاء الحي من الميت (إنشاء الخلية من المادة)! هذه الظواهر الأربع (التي تميز ليس فقط الخلية بل كل كائن حي) هي كما ذكرنا قدرتها على «انتقاء الغذاء» من الطبيعة، عملية «هضمه»، قدرتها على «النمو» اعتمادًا على الغذاء المهضوم، وأخيرًا وليس آخرًا قدرتها على «التكاثر» بعد تحقق عملية النمو!

عملية انتقاء الغذاء من الطبيعة هي بكل بساطة عملية انتقاء المواد اللازمة لاستمرار التفاعلات الكيميائية اللازمة بدورها لنمو الخلية ثم تكاثرها. عملية تقوم بها الخلية تلقائيًّا لمجرد تكوّن جدارها الخارجي من مادة عضوية دهنية - مادة ذكية - ذات مسام بروتينية.

سر قدرة الخلية على التعرف إلى المواد اللازمة لها كغذاء (بما في ذلك قدرتها على امتصاصه الى الداخل) يكمن في الخصائص الكيميائية (أي النورانية الكهرومغناطيسية) الخاصة بهذه المادة العضوية الدهنية المكونة لجدارها! ذلك أن طبيعة التفاعل الكيميائي (التفاعل النوراني الكهرومغناطيسي) بين هذه المادة الدهنية المكوّنة لجدار الخلية من جانب وأنواع المواد الموجودة حولها في الطبيعة من جانب آخر ينتج عنه «جذب» (شبيه بجذب المغناطيس) لمواد محددة جدًّا عبر مَسامها، لتتم بذلك عملية انتقائها بل ونقلها إلى داخل الخلية من خلال هذه المسام!

أي إن التفاعل النوراني الكهرومغناطيسي -الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا- هو وهو فقط ما يقوم بانتقاء الغذاء نيابة عن الخلية، وهو من يقوم بعملية إطعامها بطريقة ممنهجة ومنظمة! وكأن العلم أراد أن يؤكد على استحياء أن النور -الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا- هو أيضًا «الرزاق» الذي يرزقها!

هكذا وبكل بساطة تتم عملية انتقاء الخلية غذاءها من الطبيعة! المدهش هو أن الأغذية - أي المواد - المنتقاة من الطبيعة هي تحديدًا ما تحتاج إليه عنابر الخلية الداخلية بعد ذلك لتمكين التفاعلات اللازمة لنموها ثم تكاثرها كما سنرى، وهو مدهش لسبب بسيط جدًّا هو أن المادة الدهنية (المكونة لجدار الخلية) مادة كانت قد استمرت في النشأة مئات الملايين من السنين «بصورة مستقلة» عن بقية المواد المكونة للخلية (قبل تكاملهم الأخير إنشاءً للخلية)!

أي إن الخصائـص النورانيـة الكهرومغناطيسـية (المركبـة) الخاصة بهذه المـادة تحديـدًا تناغمـت «مسـبقًا» مع احتيـاج كل عنبر من عنابـر الخلية قبل نشـأتها (قبل نشـأة الخلية)! أي حديث عن الصدفة يمكن أن يفسر ذلك؟ أي حديـث عن التجربة والخطأ؟ من يعي قدر التعقيد الداخلي للخلية (المتكونة من أكثر من عشـرة آلاف نوع مختلف مـن المواد) يعي قدر الإعجاز النوراني في تقدير هذا التناغم النوراني (الكهرومغناطيسي) بين خصائص جدار الخلية الخارجي وتكوين عنابرها الداخلية!

وكأن المـادة الدهنيـة المكوّنـة لجـدار الخلية تعلم مسـبقًا مـا تحتاج إليه المواد الأخرى (العنابر الداخلية) كي تستمر الحياة! وكأن العلم أراد أن يشير على استحياء إلى أن نوعية الإشارات النورانية الكهرومغناطيسية (التفاعلات الكيميائيـة) الصـادرة عـن هذه المـادة الدهنية مبرمجـة مقدمًا لانتقـاء المواد المطلوبة تحديدًا! وكأن العلم أراد أن يشـير إلـى أن تكوّن «جدار» الخلية من مـادة دهنيـة جزء لا يتجزأ من تخطيط وتقدير مسـبق؛ أي علم باطن قائم على إنشاء الحي من الميت!

المدهـش أيضًا هو أن التفاعل الكيميائي بين كثير من المواد الممنوعة من الدخول إلى داخل الخلية من جانب والمواد المكوّنة لعنابرها من جانب آخر كان ليدمر الخلية كيميائيًّا من الداخل ويقضي بذلك على الحياة بعد نشأتها!

دع جانبًا الحقيقة العلمية أن المواد الدهنية لا تذوب ولا تتفاعل مع الماء، أي إن خصائص هذا الجدار هو ما حال أصلًا دون ذوبان الخلية في الماء!

خلاصـة كل ذلـك هـو أن المـادة الدهنية ذات المسـام البروتينيـة (المادة الذكيـة) المكوّنـة لجدار الخليـة قامت بدور مزدوج على مسـتويين مختلفين تمـام الاختـلاف.. الأول كجدار واقٍ يمنـع ذوبانها في المـاء، والثاني كنقطة تفتيش وأداة لانتقاء وامتصاص الغذاء الموجود داخل الماء.

وهكـذا تبـدأ بعد ذلك سلسـلة التفاعـلات المسـئولة عن «هضمـه»؛ أي تفكيـك المـواد الأكبـر إلى مـواد أصغـر يمكن للخليـة اسـتخدامها من أجل تمكين التفاعلات المسئولة عن عملية النمو.

الغذاء المنقول إلى الداخل يقابل في البداية مادة سـائلة محيطة بكل عنابر الخليـة الداخلية – مادة بروتينية يطلق عليها العلماء لقب «الليزوزوم» – تقوم بعملية الهضم والتي ليست في حقيقتها المجردة بدورها إلا نوعًا من التفاعل النورانـي الكهرومغناطيسـي (التفاعـل الكيميائي) القائم علـى تفكيك اتحاد ذرات هـذه المـواد الغذائية، تفاعل وتفكيـك يحولها بذلك إلى مواد أبسـط. هذه ببساطة شديدة هي عملية الهضم.

تتعـرض المـواد المفَكَكَة (الغذاء المهضوم) بعد ذلـك لتفاعلات كيميائية متعاقبـة تأخذهـا في رحلة طويلة مـن العمليات الإنشـائية المتتابعة – من عنبر إلى عنبر – لتبدأ وتستمر بذلك التفاعلات المسئولة عن عملية «نمو» الخلية.

عمليـة «نمو» الخلية هي فـي المقام الأول عملية توجيه للمواد المهضومة (المـواد المفككـة البسـيطة) مـن خـلال سلسـلة مـن التفاعـلات الكيميائية (التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسـية) داخل عنابرها بهدف استخدام هذه المـواد الخـام لمضاعفة تكوين الخليـة. عملية تعتمد على تفاعلات إنشـائية متتابعـة تمامًا كما يعتمد المصنع على خطوط إنتاج متتابعة قائمة على تحويل المـواد الخـام تدريجيًّا إلى منتج نهائـي مصنع! عملية تتوقـف على قدرة كل عنبـر على القيام بتفاعل محـدد جدًّا! عملية تتوقف أيضًـا على قدرة كل عنبر على «إرسال» وتسليم إنتاجه نصف المصنع إلى العنبر التالي.

هكذا مثلًا يتسـلم عنبر يعرَف باسـم «الإندوبلازميك أكتيلوم» بعض هذه المـواد المفَكَكَـة لتنفيـذ مرحلة محـددة (تفاعـل كيميائي محدد) فـي عملية

تصنيع بروتينات لازمة لنمو الخلية. البروتينات نصف المصنعة في هذا العنبر مطلوبة بدورها بعد ذلك في عنبر آخر يعرف باسم عنبر «الجولجي» كي تستمر الوظائف الحيوية وكي تستمر الحياة.

إلا أن المسافة بين العنبرين محفوفة بالمخاطر! ذلك أن المسافة بينهما تحتوي على السائل المحيط بالعنابر – السائل المختص بعملية الهضم كما رأينا – السائل المسئول عن تفكيك المواد المعقدة إلى مواد أبسط. سائل يتفاعل مع البروتينات أيضًا ويفكِّكها. تعرض هذه البروتينات لهذا السائل كان كافيًا لتوقف العمليات الحيوية على مستوى الخلية، ولاختفاء الحياة من على كوكب الأرض قبل تطورها!

تتم عملية نقل البروتينات نصف المصنعة من عنبر «الإندوبلازميك أكتيلوم» إلى عنبر «الجولجي» بطريقة أغرب من الخيال. اكتمال عملية تكوين البروتين في عنبر «الإندوبلازميك أكتيلوم» يتبعه تفاعل نوراني كهرومغناطيسي (تفاعل كيميائي) يقوم بفصل جزء من هذا «العنبر» تلقائيًّا قبل أن يؤدي بعد ذلك إلى التفاف هذا الجزء المفصول عن العنبر حول البروتين ليحيط بذلك إحاطة تامة بالبروتين تمامًا كما يحيط الصندوق بمحتواه، ليقوم بذلك هذا الجزء بحماية البروتين أثناء رحلته حتى وصوله إلى عنبر «الجولجي» (الجزء المنفصل من عنبر «الإندوبلازميك أكتيلوم» لا يتفاعل بطبيعة الحال مع السائل المسئول عن عملية الهضم)! وهكذا يقوم التفاعل النوراني – الخالق الباطن المُتَجَلِّي نورًا – بتوفير هذه الحماية اللازمة لاستمرار الحياة!

أما الأعجب فهو أن هذا الصندوق (هذا التكوين النوراني الكهرومغناطيسي) لا يوفر فقط الحماية للبروتين الموجود داخله، وإنما يقوم أيضًا بتسليم البروتين إلى العنبر اللازم – عنبر «الجولجي» تحديدًا – وليس

أي عنبـر آخر: وكأن هناك عنوانًا مكتوبًا على الصندوق! وكأن الخلية تشـمل فيما تشمل هيئة بريد متكاملة!

السـر فـي ذلـك هـو أن طبيعـة التفاعـل النورانـي الكهرومغناطيسـي بين المادة النِشَـويَة - المكونة لهذا الصندوق - من جانب والسـائل الموجود في المسـافة الواقعة بين العنبرين من جانب آخر تؤدي إلى دفع هذا الصندوق في اتجاه عنبر «الجولجي» بتلقائية نورانية مدهشـة! أي إن السـائل الموجود بين العنبرين المعنيين تحوّل فجأة - بفضل خصائصه النورانية الكهرومغناطيسـية (الكيميائيـة) - إلـى «مادة ذكية» تقوم بـدور «عامل البريـد» القائم على قراءة العنوان، ثم حمل وتسليم الصندوق في العنوان المكتوب!

تناغـم الخصائص التفاعلية (النورانية) القائمة على إنشـاء الحياة من المادة لا ولن ينقطع! الحديث عن التجربة والخطأ (الصدفة) شـيء لا يمكن الدفع به أصـلًا على هذا المسـتوى من التفاعـلات «الموجهة»! درب مـن العبث وكأنه حديث طفولي لا يعي قدر النظام النوراني - قدر العلم المطلق - المسئول عن هندسة خصائص المواد المسئولة عن إنشاء الخلية وتخطيط نظامها الداخلي.

بل أكثر من ذلك، السـائل الذي كان من المفترض أن يقضي على البروتين والخلية (وبالتالي الحياة قبل تطورها) هو تحديدًا ما أصبح فجأة «عامل البريد» القائـم على تسـليم هـذا البروتين فـي العنبر اللازم كي تسـتمر الحيـاة! وكأن الاكتشـافات العلمية أرادت أن تؤكد - على هذا المسـتوى أيضًا - أن الخالق الباطن المتجلي نورًا مكَوّنًا ومُنَظِمًا لهذه التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسية (الكيميائية) هو «الضار النافع» القادر على تسخير الضار ليصبح نافعًا!

النظام البريدي «المنظم» للخلية نظام منظم لها ولتفاعلاتها على مسـتويات عـدة. إنـه ما يمَكِّن مثلًا عنابر الخلية من إعادة المـواد غير اللازمة (المتبقية من

التفاعلات وعملية الهضم) إلى جدار الخلية الدهني (من الداخل)، ليقوم بذلك هذا الجدار بالتفاعل معها كهرومغناطيسيًّا، لتتم بذلك عملية طردها من خلال مسامه البروتينية إلى خارج الخلية: إنها عملية الإخراج في صورتها الأبسط.

وصول الصندوق النِّشَوي المسئول عن تسليم البروتينات إلى العنبر المطلوب – عنبر «الجولجي» – يتبعه شيء مدهش آخر، تفاعل كيميائي تلقائي بين المادة النشوية المكوّنة لهذا الصندوق والمواد المكوّنة لهذا العنبر من الداخل؛ لتتحول بذلك هذه المادة النشوية – من خلال هذا التفاعل – إلى جزء من عنبر «الجولجي»! إنه ذلك التفاعل المسئول عن فتح الصندوق لتتم عملية تسليم البروتينات! نظام «نوراني» تعجز الكلمات عن وصف مقدار «التصميم» بل والإعجاز في تكوينه!

استلام هذا النوع من البروتينات في عنبر «الجولجي» يتبعه استكمال عملية إنشائها نورانيًّا لتصبح بروتينًا أكثر تقدمًا وتعقيدًا، ذلك قبل إرسالها مجددًا تدريجيًّا لعنابر أخرى استكمالًا لعمليات النمو، لتبدأ بعدها عملية «التكاثر».

عملية «التكاثر» ما هي إلا عملية «نسخ» لأنواع المواد المكَوِّنة للخلية وترتيبها الدقيق. والحمض النووي الديوكسير DNA هو تلك «المادة الذكيّة» التي تقوم بنسخ تكوين الخلية من المواد المكَوِّنة لها (كما تنسخ ماكينة التصوير المتخصصة المستندات) لتُمَكِّن بذلك في النهاية عملية تكاثرها عن طريق الانقسام، أي لتصبح الخلية بذلك خليتين قبل أن تعاد الدورة مجددًا! إنه العجب العجاب!

الحمض النووي الديوكسير DNA – المسئول عن عملية النسخ – مادة ذكية متكوِّنة من خطين حلزونيين تربط بينهما وصلات كثيرة دقيقة، خط

حلزونـي أول متكـوّن من مادتي الأدنين والثيامين وخـط حلزوني ثانٍ متكوّن من مادتي السيتوزين والجوانين كما رأينا.

الحمـض النـووي الديوكسـير DNA مـادة ذكية تقـوم في البدايـة بفضل طبيعة «التيار النوراني» الكهرومغناطيسي المكون لها باستنباط (تلقي) جميع بيانـات المـواد المكَوِّنـة للخلية بـأدق تفاصيلها مـن خلال إشـارات نورانية كهرومغناطيسـية تتم بين هـذا الحمض النووي الديوكسـير DNA من جانب وجميع المـواد المكونة للخلية من جانب آخر؛ ليتمكن هذا الحمض النووي بذلـك من القيام – كخطوة أولى – بدور السـجل المسـئول عن تسـجيل نوع ومكان كل ذرة من الذرات المكونة للخلية!

الخـط الحلزونـي الأول من الحمض النووي الديوكسـير DNA هو ذلك السـجل المسـئول عن تسـجيل هذه البيانات، تسـجيل يتم من خـلال ترتيب خـاص معقد جدًّا لمادتـي الأدنين والثيامـن المكوّنين لهذا الخط، تسـجيل تقوم هاتان المادتان من خلاله بدور حروف اللغة، لغة شبيهة باللغة «الرقمية» المسـئولة عـن حفظ جميـع البيانات علـى جهـاز الكمبيوتر (لغـة الكمبيوتر لا تعتمد على المستوى الأدق إلا على ترتيب خاص لأعداد مهولة من رقمين الصفر والواحد وهو تحديدًا سبب تسميتها لغة «رقمية»)!

تسـجيل البيانات في الخط الأول تتبعه عملية نسـخها (نسخ البيانات قبل بدء عملية التكاثر). عملية النسخ عملية يقوم بموجبها الخط الحلزوني الأول بنقل بيان تكوين الخلية إلى الخط الحلزوني الثاني من خلال إشارات نورانية كهرومغناطيسـية. التفاعـلات النورانيـة –الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا– هو مـا يقـوم بعملية نسـخ تفاصيـل تكوين الخليـة معلوماتيًّـا تمهيدًا لبـدء عملية التكاثر.

اللافت للنظر هو أن اتجاه الخط الحلزوني الثاني عكس اتجاه الخط الحلزوني الأول، وكأن الخط الأول ناظر إلى الماضي حيث مصدر المعلومة، والخط الثاني ناظر إلى المستقبل حيث عملية التكاثر!

تعتمد اللغة الرقمية الخاصة بالخط الحلزوني الأول على نظام ترتيب أعداد مهولة من مادتي «الأدنين والثيامين»، وتعتمد اللغة الرقمية الخاصة بالخط الحلزوني الثاني على نظام ترتيب أعداد مهولة من مادتي «السيتوزين والجوانين»، وكأن المادتين الأوليين مادتا استنباط، وكأن المادتين الأخريين مادتا إرسال.

عملية نقل البيانات بين خطي الحمض النووي الديوكسير DNA تتم بواسطة إشارات نورانية كهرومغناطيسية من خلال الوصلات المشتركة بينهما، إشارات لا يفهمها إلا خطي الحمض النووى، إشارات مسئولة عن نظام ترتيب يجعل من المادتين المكونتين للخط الحلزوني الثاني (السيتوزين والجوانين) مرآة طبق الأصل لترتيب المادتين المكونتين للخط الحلزوني الأول (الأدنين والثيامين)، وهذا تحديدًا ما يتمم عملية نسخ الخلية بنجاح.

حقيقي أن الحمض النووي DNA هو مركز القيادة المعلوماتي المسئول عن نسخ «بيانات» تكوين الخلية وعن إدارة عملية التكاثر، إلا أن عملية «تنفيذ» هذه البيانات والأوامر – إنشاءً فعليًّا لخلية جديدة – عملية لا يقوم بها الحمض النووي، وإنما عملية تقوم بها أنواع محددة من البروتينات تحت إشراف الخط الحلزوني الثاني؛ ذلك أن الحمض النووي الديوكسير DNA مركز قيادة (معلومات وأوامر) فقط لا يقوم بتنفيذ أي شيء بنفسه، مركز يقتصر دوره على إرسال إشارات نورانية كهرومغناطيسية (توجيهات) لعائلة البروتينات المسئولة عن تنفيذ هذه الإشارات تنفيذًا فعليًّا لعملية التكاثر.

العجيب هو أن البروتينات لا تفهم اللغة «الرقمية» الخاصة بالحمض النووي الديوكسير DNA والتي تعتمد على ترتيب المواد المكوّنة لها ترتيبًا خاصًّا بها كما رأينا؛ أي إن الخلية لم تكن لتستطيع تنفيذ عملية التكاثر إن لم تشمل – منذ لحظة نشأتها الأولى – «مادة ذكية» أخرى قادرة على القيام بدور «المترجم» بين لغة الحمض النووي الديوكسير DNA (إشاراته الكهرومغناطيسية الرقمية الترتيب) من جانب ولغة البروتينات (الإشارات الكهرومغناطيسية العادية) من جانب آخر!

هنا نفاجأ بأن «المترجم» موجود بالفعل في تصميم وتكوين الخلية منذ نشأتها الأولى ودون أي تجربة أو خطأ! «المادة الذكية» المسئولة عن ترجمة لغة الحمض النووي الديوكسير DNA – من إشارات نورانية «رقمية» تسجيلية إلى تفاعلات نورانية «كيميائية» قائمة على تنفيذ عملية التكاثر – مادة تعرف باسم «الريبوزوم»! ومجرد وجودها في تصميم الخلية دليل جديد على ذلك العلم الباطن (الباطن العليم) الذي خطط وقَدَّر تصميم الخلية!

الريبوزوم مادة ذكية تتكون من توليفة من حمض نووي يعرف باسم الحمض النووي الريبو RNA إضافة إلى مادة من البروتينات. الريبوزوم مادة يمَكِّنها هذا «التصميم» الاستثنائي (الجامع بين الحمض النووي والبروتين معًا) من القيام بدور المترجم اللازم لترجمة إشارات الحمض النووي الديوكسير DNA كي تقوم أنواع البروتينات بتنفيذ نسخ الخلية كما ينبغي؛ لتتم بذلك عملية التكاثر بصورة فعلية، ولتصبح الخلية خليتين، ولتستمر الحياة وتتطور قبل أن ينشأ في النهاية الإنسان!

عالم الخلية – ذلك العالم الذي لا تراه بعينيك المجردتين – عالم دقيق بديع «منَظَّم» تنظيمًا نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا لم يكن العلماء ليتخيلوا وجوده أصلًا قبل العقود الأخيرة من القرن العشرين! عالم عجيب يشمل تفاعلات

ومراحـل عجيبـة مبهرة تتحـدى أي حديث عن التجربـة والخطأ وأي حديث عن الصدفة!

اكتشـافات عديدة لا حصر لها ظهرت لتكشـف لنا أن «الحياة» ما هي في حقيقتهـا العلمية الأدق إلا «سـيمفونية نورانية» عزفتها «فجـأة» آلات نورانية (مـواد ذكيـة)! مـواد ذكية لم تكـن قد تلاقـت قبل إنشـائها الحيـاة وتقديمها سيمفونيتها لأول مرة دون أي تمرين سابق!

الحيـاة ما هـي فـي حقيقتها العلميـة الأدق إلا سـيمفونية مـن التفاعلات النورانيـة الكهرومغناطيسـية القائمة علـى خلقها من المـادة! لنعلم بذلك أن النـور -الخالـق الباطن المُتَجَلّي نـورًا- هو مصدر كل حياة بـل وأقرب إليها (إلى الحياة) منها إلى نفسها!

الروح ونبض الحياة

الماديـون الملحـدون يرفضـون كمـا رأينا الحديـث عن أي نظـام (خالق باطن) مسـئول عن نشـأة الحيـاة من المـادة، ويصرون أن الصدفـة – التجربة والخطأ – هي أساس نشأة الخلية على ما هي عليه من تنظيم داخلي ووظائف معقّدة مركبة متناغمة.

الماديون الملحدون يصرون على أن التفاعلات «المسـتقلة» التي أنتجت فـي النهاية الخلية – وأنتجت تناغم أجزائهـا ووظائفها الحيوية كما رأينا – ما هي إلا سلسـلة طويلـة من أعمال الصدفـة «المتراكمـة»؛ أي التجربة والخطأ في التفاعلات الكونية الممتدة (أربعة عشـر مليار عام عودة في الماضي) إلى لحظة نشأة الكون من العدم.

حديـث الملحدين الماديين عن التجربة والخطأ (الصدفة) أسـاس لنشـأة الحياة حديث متوارث بينهم منذ عصر التنوير في القرن السابع عشر إلى يومنا هـذا. حديـث يصِر علـى أن الخلية لم تكـن إلا مجرد تجربة واحـدة صائبة – بالصدفة – من بين عدد كبير من التجارب العديدة الخاطئة التي لابد أن تكون (في تقديرهم) قد سبقت نشأة هذه الخلية.

الماديـون الملحـدون يدفعون بـأن حجم الكـون الضخم جـدًّا – والذي يفـوق المليـارات مـن مليـارات المليـارات مـن المـرات حجـم المجموعة الشمسـية – يسـمح بحدوث وتلاقي كل هذه الأحداث غير المحتملة أصلًا؛

أي يدفعون بأن حجم الكون المهول – بما يشـمله من عدد شـبه لا نهائي من التفاعـلات – أنتـج جميع احتمـالات التجربة والخطأ إلـى أن أصابت تجربة واحدة واجتمعت فيها جميع «مقومات» نشـأة الحياة (نشـأة الخلية) بالصدفة بغض النظر عن مدى تعقيدها وتناغمها.

مشكلة الماديين الملحدين هي أنهم لا ينتبهون إلى حقيقة بسيطة جدًّا: أن مجرد الحديث عن «مقومات» نشأة الحياة من المادة يعني – حتمًا لا محالة – وجود «نظام باطن» مسئول عن تحقق نشأتها عند تحقق هذه المقومات!

الملحـدون يتحدثـون عـن التجربـة والخطـأ والصدفة (بمعنـى الصواب غيـر المقصود) في الطبيعـة، إلا أنهم لا يلتفتون إلـى أن عملية تعريف الخطأ والصـواب تتطلب – أصلًا – نظامًا باطنًا (خالق باطن) قائمًا بصورة مسـتمرة علـى تعريـف الخطـأ خطئًا وتعريـف الصـواب صوابًا حتى يصبـح الصواب صوابًا له معنى صائب أصلًا!

مجرد تحقق «الخلية» كنتيجة «صائبة» يدل – حتمًا لا محالة – على وجود «نظـام باطن» (خالق باطن): نظام قـادر على تمكين الصدفة (التي يدافع عنها الملحدون) من أن تصبح «نتيجة» ذات «معنى» أصلًا!

منطق الملحدين – المتوارث منذ القرن السابع عشر – منطق يناقض نفسه تناقضًا شديدًا، بل يهدم نفسه علميًّا ومنطقيًّا بالمفهوم الحديث المكتشف في النصـف الثاني من القرن العشـرين؛ ذلك أن أي حديـث علمي عن «التنظيم» الداخلي للخلية ما هو في حقيقته المجردة إلا حديث غير مباشر عن «النظام» الباطن (الخالق الباطن)المؤسس له!

منطـق الملحديـن يتطلـب – هو نفسـه – وجـود خالق «باطـن» لا يمكن وصفـه، «باطـن» لم يعتـد الملحـدون في الغـرب تعريفـه «خالقًا» لا لشـيء

إلا أن موروثهم الثقافي لم يعتد تعريف أو تقييم مبدأ الخالق إلا ككيان «منفصل» عن الخلق وعن الطبيعة، كيان خارجي مادي يخلق بطريقة أشبه إلى السحر والظهور المفاجئ، وليس ككيان «باطن» مطلق – وسع كل شيء – قادر على إنشاء الأشياء من داخلها على أطوار بطريقة منظمة ممنهجة!

أغلب العلماء الغربيين لا يلتفتون بصفة عامة إلى حقيقة أن المبدأ العلمي المنتصر – مبدأ نشأة الحياة في الماضي البعيد من خلال تفاعلات مادية متعاقبة – من جانب ومبدأ الخالق «الباطن» المسئول عن إنشاء الحياة من التراب (الذرة كما رأينا) من جانب آخر ما هما إلا وجهان لعملة واحدة.. لا يلتفتون إلى حقيقة أن هذا المبدأ العلمي يتطلب –حتمًا لا محالة– مصدرًا «معلوماتيًّا» باطنًا (باطن عليم) مسئولًا عن كل هذه النتائج (التكوينات النورانية المعلوماتية) الموجودة في كل مكان في الكون!

الماديون الملحدون مستمرون في الدفاع عن مبدأ الصدفة أساسًا لنشأة الخلية من خلال احتكامهم لعلم «الاحتمالات الرياضية» الذي يشكل بدوره فرعًا مهمًّا وقويًّا من فروع «علم الرياضيات»! علم الاحتمالات الرياضية يؤكد مثلًا احتمال حصولك على الرقم «ستة» – عشوائيًّا أي بالصدفة – إذا قمت بإلقاء «الزهر» (النرد) لعدد شبه لا نهائي من المرات.

بالطبع هذا حقيقي ولا جدال فيه! إلا أن تحقق هذا الأمر يتطلب – على المستوى الأعمق – نظامًا تأسيسيًّا، أي يتطلب أصلًا وجود «زهر»، ويتطلب وجود أرقام مكتوبة على «الزهر»، ويتطلب وجود يدٍ تقوم بإلقاء الزهر وعين ترى النتيجة وعقل يعقلها: النتيجة – عملية الحصول على رقم «ستة» والتي قد تبدو على مستوى المشاهدة عشوائية – لا يمكن أن تتم دون هذا «النظام» المؤسس للعملية وأحداثها، هذا النظام القائم على توفير «معنى» لهذه الأحداث!

العشـوائية (الصدفـة) في علـم الرياضيـات لا تعني غياب النظـام المنَظِّم للأحـداث، إنمـا تعنـي فقط احتمـال تحقـق نتيجة مـن النتائج التي «شـملها النظام» (التي شملها الباطن العليم) مسبقًا!

مـا لا يعيه الملحـدون الماديون هـو أن علم الاحتمـالات الرياضية، علمٌ قائـم علـى مبدأ أن النتائج العشـوائية ليسـت إلا جزءًا من «نظـام» ينتجها، بل إن هـذا «النظـام» هو وهو فقط ما مكّـن هذا العلم أصلًا من التَأَسـس ووضع «نظرية» الاحتمالات الرياضية، فلا توجد نظرية دون «نظام» مؤسس لها!

دع جانبًا حقيقة أن هذه النتائج «عشـوائية» من وجهة نظر العقل الإنسـاني المحـدود – الذي يدرسـها من خـلال إمكاناته المحـدودة – والذي لا يقوى مثلًا على دراسـة حركة اليد وتأثيرها الميكانيكـي على اتجاهات تقلب الزهر (النـرد)! الرقم «سـتة» لم ينتج بالصدفة أبدًا، إنما بناء على اتجاهات وسـرعة تقلب الزهر (النرد) حتى توقفه طبقًا لعلم الهندسـة الميكانيكية المسـؤل عن تفسير الحركة ونتائجها!

الصدفـة لا وجود لها على مسـتوى النظـام (الباطن العليـم) المنظم لكل شيء وكل علاقة! ما أراد الماديون الملحدون التعبير عنه (دون توفيق) هو أن النظـام الباطن نظام –مطلق– منتج لجميع التفاعلات والنتائج التي نشـاهدها فـي الطبيعة، أن بعض هـذه الأحداث تمَكِّن نتائج مـن طبيعة خاصة لا يمكن التنبؤ بها مقدمًا!

النظام المسـئول عن نشـأة الكون ثم الذرة ثم أنواع المـادة ثم الحياة نظام واضـح لا يحتاج إلى جـدال، فهذا النظام هو تحديدًا ما يدرسـه الإنسـان من خـلال علوم الفيزيـاء والكيمياء والأحياء، وهو ما يجعـل علم الأحياء امتدادًا لهـذه العلوم (وليس علمًا مسـتقلًّا كمـا كان متوارثًا بين العلمـاء خلال القرن

الماضي)! لو لم يكن هناك «نظام باطن» واحد شامل مطلق (خالق باطن) لما كانت هناك علوم أصلًا!

أضف إلى ذلك أن الماديين الملحدين لا يدركون أصلًا «المعنى» الباطن في الحقيقة العلمية أن «النور» هو «النظام» الذي أنشأ المادة (من العدم) قبل أن تنشأ منها الخلية. الماديون الملحدون لا يعون أن النور (والنظام النوراني الناشئ من باطنه) ما هو إلا مظهر من مظاهر تَجَلّي «الباطن العليم»، لقصر موروثهم الثقافي الديني في تعريف الخالق ككيان «منفصل» عن الطبيعة كما ذكرنا. عصر الظلام (الجهل) لم ينته بعد، وإن اختلفت طبيعة الجهل!

مفاجأة علمية كبرى أخرى ظهرت – قبل نهاية القرن العشرين – لتوضح أن الحديث عن الصدفة ما هو إلا حديث أسطوري جاهل: اكتشاف «نوعين» مختلفين من الخلية كان كل منهما كان قد نشأ مباشرة من المادة بصورة مستقلة تمامًا عن الآخر!

الخلية البدائية الأولى (الخلية «البروكاريوتية» كما يطلق عليها) لم تنشأ مباشرة من المادة (قبل ثلاثة مليارات وثمانمائة مليون عام) في نوع واحد فقط كما ظنّ العلماء حتى النصف الثاني من القرن العشرين، بل نشأت من المادة في نوعين مختلفين هما: الخلية البروكاريوتية «الأركية» والخلية البروكاريوتية «البكتيرية».

هذا تحديدًا ما كشف عنه ذلك التقدم الأخير في علم المايكروبايولوچي (علم الأحياء الدقيق) المختّص بدراسة تكوين الخلية (والكائنات الحية) من المواد المختلفة (بواسطة الميكروسكوب الإلكتروني) بعد اكتشاف هذا العلم أن الخلية «البكتيرية» تتكوّن من نوع من «السكريات الأمينية» غير موجود في الخلية «الأركية».

قـد يبدو هـذا تفصيلاً غير مهم وغيـر جذاب لغير العلمـاء المتخصصين، إلا أن هذه النوعية من الاكتشافات لها معنى علمي أخطر مما قد نتخيّل، فهذا الاكتشاف الدقيق الخطير يعني بدوره – حتمًا لا محالة – أن كلَّ نوعٍ من نوعي الخلية المذكورين نشأ «مباشرة» من المادة بصورة «مستقلة» عن الآخر!

نشأة نوعين مختلفين من أنواع الخلية مباشرة من تفاعلات المادة – بصور «مسـتقلة» عـن بعضهما – لا يدع بدوره أي مجـال للحديث عن مبدأ التجربة والخطأ (الصدفة) في الطبيعة على هذا المستوى أيضًا. ذلك أنه برهان علمي قاطع بأن نشـأة الخلية من المادة – نشـأة الحي من الميت – لم تكن أبدًا عملاً مـن أعمـال الصدفة (الصدفة لا تحدث إلا مرة واحـدة)، إنما عمل «متكرر»، وبالتالي عمل مَنَظَّم دليل على وجود «نظام باطن» (خالق باطن) مسـئول عن «تكرار» النتائج بصورة منظمة.

أضـف إلى ذلك أن كلَّ نوعٍ من نوعي هـذه الخلية البدائية الأولى (الخلية البكتيرية والخلية الأركية) لم ينشـأ من المادة مرة واحدة فقط – كما قد يعتقد البعـض، بل نشـأ مباشـرة من تفاعـلات المـادة في قـاع المحيط (قبـل ثلاثة مليـارات وثمانمائة مليون عام) بأعداد لا حصـر لها! الحديث عن الصدفة ما هو إلا «أسـطورة» حديثة تمامًا مثل أسـطورة الخالق «المنفصل» عن الطبيعة المنفصل عن مخلوقاته!

تبقى أسـئلة مهمة لم نتناولها بعد: ما هي الحياة؟ ما معنى وجودها؟ كيف نشـأ «الحي» من الميت؟ ما هي الروح؟ كيف تجلّت في المادة لتصبح بذلك المادة كائنًا حيًّا؟ من أين جاءت هذه الروح – روح «الحي» – التي تجلَّت من باطن المادة فور نشأة الخلية؟

الحياة (الخلية) ما هي -كما رأينا- إلا تيار نوراني كهرومغناطيسي مُركَّب فريد من نوعه ناشـئ عن تكامل التيارات النورانية الأصغر (الذرات) الناشـئة بدورهـا من الموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات): النور - الخالق الباطـن المُتَجَلّـي نـورًا - هو بذلك مصـدر الحياة «المطلـق» («الحي» الذي لا يمـوت)! إنه بذلك أيضًا «الحي» المطلـق الموجود بصورة باطنة في الذرة وفـي المـادة قبـل الخلية، فهذا وهـذا فقط ما أنشـأ الحياة من المادة (ما أنشـأ الحـي من الميت) علـى هيئة خلية! هذا -وهذا فقط- مـا مَكَّن «نبض الحي» من التَجَلّي من باطن «نبض النور»!

النور - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هو وهو فقط المصدر الذي «نفخ» في هذه المادة من «باطنها» روح الحياة لتصبح بذلك كائنًا حيًّا! روح الحياة لم تأتِ إلى الخلية من مكان خارجي بعيد! نفخ الروح في المادة لم يكن بأي حالٍ مـن الأحوال نفخًا مـن خارجها من قبـل خالق «منفصل» عنها كمـا قد يتخيل البعض على المسـتوى الدارج! نفخ الحياة في المادة لم يكن نفخًا شبيهًا بنفخ السحرة كما تصَوِّر الأساطير، بل كان نفخًا نورانيًّا من الباطن!

وكيف لا يكون نفخًا من الباطن والخالق الحق خالق «باطن» ليس بحاجة إلى أن يأتي إلى الأشياء من خارجها! كيف لا يكون نفخًا من الباطن والخالق - المُتَجَلّي نورًا منشئًا للحياة - أقرب إلى المادة وإلى الخلية منها إلى نفسها! كيف لا يكون والخالق هو الأول والآخر والظاهر والباطن!

الخالـق الباطـن - المُتَجَلّي نـورًا - أعطى الخلية (النّطفـة) الحياة بطريقة «أعمق» مما كنّا نتخيل قبل هذا النوع المتقدم من الاكتشافات العلمية.

إدراكنـا هذه الحقيقة العلمية أن عملية نفخ الروح في المادة عملية تتم من باطنهـا - وليس مـن خارجها كما ادعت الأسـاطير - تتيح لنـا بدورها إدراك

حقائق أخرى، أولها كما رأينا أن الخالق الباطن هو أيضًا «الحي» الذي لا يموت! ثانيها أن الخالق الباطن هو أيضًا «الروح» المطلقة مصدر كل روح نسبية أي مصدر الروح المُتَجَلّية عند كل كائن من الكائنات الحية! ثالثها أن الروح هي بالتالي من «أمر» هذا الخالق الباطن!

الروح جزءٌ لا يتجزأ من مصدرها المطلق – الباطن الحي – الذي وسعها كما وسع كل شيء! أي إن الروح لا تتلاشى بعد وفاة الكائن الحي وتَفَكك المادة التي تمَكِّنها من التَجَلّي، بل تعود إلى مصدرها المطلق الذي وسع كل شيء!

هكذا ندرك أيضًا أن موت الكائنات الحية ليست نهاية مطاف الروح كما يظن الماديون الملحدون! وفاة أي كائن حي تتبعها عودة روحه (النسبية) إلى منبعها المطلق (منبعها الحي الذي لا يموت)! وكيف لا تعود إليه ومنبعها هو الأول والآخر والظاهر والباطن؟ كيف لا تعود إليه وهو المنبع والمنتهى معًا؟ المنبع الذي لا مفر منه إلا إليه!

ندرك أيضًا أن حديث الديانات السماوية عن الحياة الجديدة بعد الموت حديث يمكن تفسيره بصورة علمية: مبدأ إعادة إنشاء الإنسان بعد وفاته – في صورة جديدة في عالم آخر – لا يتعدى في هذا السياق العلمي كونه مرحلة جديدة من التفاعلات المنبثقة عن الخالق الباطن الذي أنشأها قبل ذلك!

الخالق الباطن نفخ من روحه في الخلية روح الحياة، ذلك قبل أن تبدأ عمليات إنشاء الكائنات الحية جميعًا – الأرقى ثم الأرقى – من هذه الخلية (من هذه النّطفة)، لتستمر بذلك عملية نفخ الروح في الكائنات الحية بصورة أكثر ثم أكثر تقدمًا! ذلك قبل أن يصبح الإنسان القمة في عملية نفخ الروح في الكائنات الحية.

إنهـا قصة تطوّر الخلية – قصة تطور الحياة – إنشـاءً للكائنات الحية جميعًا خلقًا من بعد خلقٍ على أطوار، بما في ذلك قصة نشـأة الإنسان في النهاية خلقًا آخر.

إنها أيضًا قصة النزاع حول أصل الإنسان ومعنى ذلك التشابه الصارخ بينه وبيـن أنواع القردة! وهي كذلك قصة ظهور العالم البريطاني الأشـهر تشـارلز داروين وتمرده على تعاليم الكنيسـة، بل وتأسيسـه أهـم نظرية علمية إلحادية في تاريخ الإنسانية! النظرية «الداروينية» المسئولة عن موجة الإلحاد العالمية المسـتمرة في اجتياح أوروبا ثم العالم منذ ظهورها في منتصف القرن التاسـع عشـر! موجـة الإلحاد التي بـدأت في الظهور في الشـرق العربـي مؤخرًا بين مسلميه ومسيحييه على حد السواء!

النظرية الداروينية

لـم يكن حديث العالـم البريطاني تشـارلز داروين عن ظاهرة التشـابه بين الكائنـات وعـن مبدأ تطور الحياة بالشـيء الجديد في أوروبـا، فالحديث عن مبـدأ تطوّر الحياة كان قـد بدأ في أوروبا قبل داروين بقـرن ونصف القرن من الزمان خلال عصر التنوير.

حديث علماء أوروبا عن مبدأ تطور الحياة لم يكن بدوره بالشـيء الجديد علـى العالم وحضاراته المختلفة كما قد يعتقـد البعض، فحديث العلماء عن تـدرج رقي الكائنات الحية – من الأدنى والأبسـط إلى الأرقى والأكثر تعقيدًا – حديث ممتدّ عبر الحضارات، بل حديث ممتدّ منذ فجر التاريخ.

علماء الفراعنة هم (على ما يبدو تاريخيًّا) أول من وضع «شـجرة الحياة»: ذلك الرسـم الـذي صنّف الكائنـات المعروفـة لديهم من الأدنـى إلى الأرقى طبقًـا للتشـابه بينهـا. والعالـم الفيلسـوف اليونانـي أرسـطو قـدَّم مـن بعدهم تصنيفًـا تصاعديًّا للحيوانات طبقًا للتشـابه بينها واضعًا الإنسـان على قمة هذا التصنيف.

علماء المسلمين العرب والفرس – من أمثال الفارابي والقزويني والكتبي وابن مسـكويه والخازني وابن خلدون وغيرهم – تناولوا بإسـهاب في كتبهم مبـدأ تدرج وتطور أشـكال الحيـاة من الأدنى إلى الأرقـى، واضعين هم أيضًا الإنسـان على رأس هذا التصنيف. بل إن بعض علماء المسـلمين تحدثوا عن

مفهوم «أشـمل» للتطور، رابطين بين «تطور المادة» من جانب ونشأة ثم تطور الحياة من جانب آخر.

فهـا هـو العالم الفارسـي الفارابـي مثلًا يتنـاول ظاهـرة «تطور المـادة ثم الحيـاة» في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» قائلًا: «ترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولها أخسها، ثم الأفضل فالأفضل إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه، فأخسـها المادة الأولى المشـتركة، والأفضل منها الإسطقسات المعدنيـة ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه».

المؤرخ العربي الشـهير ابن خلدون لخّص ما أسسـه مجموعة من العلماء العـرب والفـرس المسـلمين وما قـد انتهوا إليه بصفـة عامة في اتصـال تطوّر المـادة بنشـأة ثم تطور النباتات والحيوانات قبـل أن يتناوله مجددًا من بعدهم علمـاء أوروبا في عصر التنوير، فهكذا كتـب ابن خلدون عن العلاقة بين مبدأ تطور المادة ونشأة وتطور الحياة:

«.. عالـم التكوين ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة مـن التدرج، آخر أفق المعادن {المـادة} متصل بأول أفق النبات.. ومعنى ذلك الاتصال في هذه المكوّنات أن آخر أفق منها مسـتعد بالاسـتعداد الغريب لأن يصيـر أول أفـق الـذي بعده». بالطبـع لم يصب ابـن خلدون فـي تقديمه عالم الحيـوان كامتـداد لعالم النبـات، فالعالمان متوازيـان في نشـأتهما من الخلية (النّطفة)، إلا أنه كان موفقًا في تلخيص مشمول مبدأ تطور الحياة كما سنرى.

أول عالـم أوروبي يتحـدث عن تطور الحياة هو العالم الفرنسـي الكونت دو بوفون – أحد أهم مؤسسي علم التاريخ الطبيعي (علم الأحياء) في أوروبا فـي عصـر التنوير. أشـار بوفون إلـى أن التشـابه الأصيل بين الكائنـات الحية

عند تشـريحها يدل حتمًا على وجود آلية مشـتركة مسـئولة عن إنشاء كل هذه الكائنـات وإنشـاء كل هذا التشـابه بينها، وذلك فـي كتابه «التاريـخ الطبيعي» الصادر في فرنسا في عام 1749.

بـل إن بوفون كـرّس جزءًا مهمًّا مـن حياته محاولًا اكتشـاف ذلك «النظام السـببي المتصل» (نظـام التفاعلات والنتائج المتعاقبة) المسـئول عن إنشـاء كوكـب الأرض ومـا عليـه من نباتـات وحيوانات. غيـر أن إمكانـات البحث العلمـي آنـذاك كانت أضعف مـن أن تمكّن ذلـك، وفي النهايـة اكتفى بوفون بتأسـيس مبدأ تطور الحياة علميًّا في فرنسـا (وأوروبا) دون أن يضع أي نظرية تشرح ذلك.

أول من وضع نظرية علمية كاملة في نشأة وتطور الحياة كان العالم الفرنسي لامارك (1744–1821) في عام 1801 (العالم البريطاني تشارلز داروين لم يكن قد ولد بعد). بل إن لامارك كان أول من تنبأ بأن الكائنات الحية جميعًا نشأت من كائن حي أولي بسـيط كان قد نشـأ بدوره من المادة، وذلك قبل اكتشـاف الخلية (النّطفة) بسبعة وثلاثين عامًا كاملة!

أسّـس لامـارك نظريته علـى مبدأ عرف في الأوسـاط العلميـة تحت لقب «الصفات المكتسبة» والذي يعد خطوة أولى مبدئية على طريق محاولة العلماء اكتشـاف آلية تطـور الحياة، خطوة مبدئية غير صائبة (كما اتضح بعد اكتشـاف الجينات) مفادها أن تطور كل كائن من الكائنات – من شـكله البدائي الأبسط إلى شكله المعقّد الأحدث – اعتمد على اكتساب كل جيل من الأجيال صفات جديدة قبل توريثها للجيل الأحدث وهكذا وهكذا من جديد.

أشـهر مثال متداول لتبسـيط نظرية لامارك للمثقفين هو عنق الزرافة برغم كونـه مرحلـة متقدمة جـدًّا في قصة تطور الحيـاة. عنق الزرافة الطويل نشـأ –

طبقًا للامارك – عن زرافة أقدم ذات عنق أقصر بسبب دوام استخدامها هذا العنق وصولًا إلى أفرع الأشجار الأعلى، لتنشأ بذلك أجيال زراف ذات عنق أطول ثم أطول. مثال لا يشرح كيف نشأت الزرافة أصلًا من الخلية.

كان العالم الفرنسي لامارك مؤمنًا بوجود «باطن» ما – نظام ما – وراء الطبيعة، بل إن المؤرخ العلمي الأهم الأمريكي باولر دفع أن العالم الفرنسي لامارك ربما قدم بصورة غير مباشرة مبدأ علميًّا توحيديًّا مفاده أن الخالق «باطن» يحدّد ويوجه الطبيعة من داخلها؛ ليوجه بذلك مسار نشأة الكائنات وتطورها.

لم يكن لامارك في جميع الأحوال من أنصار المادية الإلحادية على عكس كثير من علماء ومفكري عصر التنوير المعتقدين أن المادة هي الحقيقة الوحيدة، وأن تطور الحياة ما هو إلا مظهر آخر من مظاهر الصدفة المعتمدة على التجربة والخطأ في الطبيعة. هذا الخلاف العقائدي بين الأقلية من أمثال لامارك من جانب والأغلبية الأخرى من العلماء من جانب آخر هو ما قَسَّم بدوره التطوريين في فريقين متنازعين عقائديًّا (التطوريون هو اللقب الذي يطلق –منذ ذلك الحين– على المعتقدين في نشأة الكائنات الحية تدريجيًّا خلقًا من بعد خلقٍ على أطوار وليس فجأة).

هكذا انقسم «التطوريون» على أنفسهم في فريقين: فريق مصرّ على أن تطور الحياة دليل على غياب أي خالق وفريق آخر مؤمنٌ بوجود «مصدر ونظام باطن» محرِّك للطبيعة، موجه لمسارها، منظم لعملياتها الإنشائية، مزوّد لها بالمعنى والنتائج (الكائنات الناشئة).

الشيء الوحيد الذي اتفق عليه هذان الفريقان المختلفان كان (بطبيعة الحال) رفض معتقد الكنيسة الداعي إلى الإيمان بخالق منفصل عن الطبيعة: خالقٌ خلقَ كلّ كائن من هذه الكائنات الحية الحديثة (بما في ذلك الإنسان) –

على هيئته النهائية المعقدة بما تشمل من أعضاء وشرايين - بطريقة «التحول المفاجئ» لحفنة من التراب.

هذا تحديدًا ما كانت الكنيسة في أوروبا تدعو إلى الإيمان به كجزء لا يتجزأ من قصة الخلق كما جاءت في سفر التكوين في التوراة (التوراة هي أقدم الكتابين المقدسين في المسيحية: الكتاب الذي يطلق عليه المسيحيون لقب «العهد القديم» للتفرقة بينه وبين الإنجيل الذي يطلق عليه لقب «العهد الجديد»).

أشهر مثال تداوله العلماء والمثقفون في أوروبا منذ ذلك الحين (وحتى يومنا هذا) كدليل على أسطورية قصة الخلق التي تقترحها التوراة (العهد القديم) هو قصة خلق الإنسان نفسه. قصة خلق الإنسان (آدم) كما يرويها الفصل الثاني من سفر التكوين كانت قد جاءت كالتالي:

«كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد.. وجَبَّل الربّ الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية» (**سفر التكوين 7:2**).

المضمون الأسطوري - كما يشير كثيرٌ من علماء أوروبا منذ ذلك العصر - لم يكن في المقترح أن الإنسان خلق من تراب، فالعلم الحديث أيضًا يؤكد أن آدم خلق من أنواع مختلفة من المادة، والمادة بدورها تتكون من ذرات، والذرات هي أدق أنواع التراب: تراب لا تراه عين الإنسان المجردة كما ذكرنا.

العلماء الأوروبيون اتفقوا بصفة عامة على أن قصة الخلق التي جاءت في العهد القديم (التوراة) ما هي إلا سرد أسطوري لا يمت للحقيقة العلمية بصلة لأسباب أخرى. أولها خطوات عملية خلق الإنسان - الفجائية - التي تحدث عنها العهد القديم (التوراة):

الـرب يجَبِّـل أي يكَوِّم كومَـة (وكأنه يصنع تمثـالًا) من التـراب ويحولها فجأة إلى إنسان يحتوي على أعضاء وتكوينات وتفاصيل حيوية دقيقة متقدمة لا حصر لها- بما في ذلك القلب والشرايين والأوعية الدموية واللحم والعظام والعينيـن والجمجمـة والجهاز العصبي وبقية هذه الأعضـاء العديدة المعقدة جدًّا- وكل ذلك دون أية مراحل إنشائية للتراب (للمادة). قصة تحول مفهوم الخلق إلى مفهوم أقرب إلى أعمال «الظهور المفاجئ» كما هو شائع إلى الآن في كثير من البلدان بل والديانات حول العالم!

أغلـب علمـاء أوروبـا (المسـيحيون أصـلًا قبـل تمردهم) رفضـوا تقديم التـوراة (العهد القديم) قصة خلق الإنسـان على أنهـا عمل من أعمال الظهور المفاجئ أشـبه بالسحر وليس بالإنشـاء المتدرج، رفضوا مبدأ ظهور الإنسان بصـورة مفاجئـة دون أن يصبح التراب (الـذرة) أولًا أنواعًا من المادة ثم خلية (نطفة)، ودون أن تنشـأ هذه الخلية (النّطفة) بعد ذلك خلقًا من بعد خلقٍ على أطوار (كما سنرى) إلى أن نشأ الإنسان خلقًا آخر.

ثاني أسـباب رفض أغلب علمـاء أوروبا قصة الخلـق التوراتية هو بالطبع ذلك الترتيب الخاطئ المقترح (كما رأينا) نشأة الإنسان قبل النباتات، فحقيقة الأمر كما سـنرى أن النباتات نشأت قبل الإنسـان بمليارات السنين، دع جانبًا استحالة نشـأة الإنسان قبل النباتات لاعتماده عليها كغذاء له!

ثالث أسـباب رفض أغلـب علماء أوروبـا قصة الخلـق التوراتية هو ذلك السـرد الذي يقوم بتقديـم الربّ الخالق على أنه كيـان «خارجي» منفصل عن الكائنـات وعن الطبيعـة، كيان خارجي منفصـل بدليل نفخـه روح الحياة في أنف التمثال من «خارجها» تلك النفخة الشبيهة بنفخة الساحر.

العلمـاء الموحـدون – مـن أمثـال لامارك – رفضـوا رفضًا باتـًا قاطعًا أي حديـث عن أي خالـق «منفصل» عن الطبيعـة يحاول فرض إرادتـه عليها من

خارجها، بل إن هؤلاء العلماء استحدثوا لقب «الدين الطبيعي» لبيان ذلك التناقض الجوهري بين معتقداتهم المؤمنة بوجود نظام باطن (خالق باطن) مسئول عن إنشاء الكائنات ومعتقد الكنيسة القائل بأن الخالق «منفصل» عن الطبيعة يتدخل في شئونها من خارجها، مصرين على أن الخالق لا يمكن أن يكون إلا «خالق باطن» يوجه الطبيعة من داخلها.

كل ذلك التعارض والتناقض بين قصة الخلق كما جاءت في العهد القديم من جانب ومبدأ تطور الحياة (مبدأ نشأة الكائنات الحية على أطوار) من جانب آخر أشعل حربًا فكرية ومناظرات عديدة في أوروبا، مناظرات قوية تخطّت أروقة التطوريين لتشمل الكنيسة وأنصارها.

فعلى الجانب الآخر من «التطوريين» كان يقف فريقان من «المسيحيين» مختلفين فيما بينهما تمامًا كما اختلف التطوريون فيما بينهم. الفريق الأول من المسيحيين -والذي عرف باسم «الخلقيين التطوريين»- كان الأقرب إلى التطوريين، ذلك أنه سعى وراء التوفيق بين مبدأ تطور الحياة -كحقيقة علمية- من جانب وبين معتقداتهم الدينية المسيحية من جانب آخر عملًا بالمبدأ القائل بأن الحقيقة لا تعارض الحقيقة.

الفريق المسيحي الثاني - فريق «الخلقيين المسيحيين» الأكثر قربًا من الكنيسة - اختلف مع هذا الفريق المسيحي الأول رافضًا مبدأ التطور برمَّته، مصِرًّا على أن الربّ منفصل عن الطبيعة، مصِرًّا على أن الربّ قام بخلق كل كائن حي على حدة بطريقة فورية فجائية مستقلة دون أي تطور تمامًا كما قصّت قصة الخلق في سفر التكوين من العهد القديم (التوراة) كما رأينا.

رفض المسيحية الأصولية أي مقترح بأن الربّ (الخالق) يمكن أن يكون «باطنًا» يوجه الطبيعة وعملية خلق الكائنات من داخلها تخطي قصة الخلق في التوراة (والتي يمكن الدفع بتعرضها لخطأ في النقل أو التحريف) إلى

مـا لا يمكـن توفيقه بأي حال من الأحوال، لتناقضه التام مع القاعدة الأهم في العقيدة المسـيحية البولسية (نسـبة إلى القديس بولس) المتوارثة منذ منتصف القـرن الأول الميـلادي وإلـى يومنا هذا والتـي تدفع –كما ذكرنـا– بأن الربّ بعث إلى الطبيعة (إلى العالم) من خارجها ابنه وكيلًا مخلصًا لها ولنا من القوة الضارة الكامنة في باطنها (في باطن الطبيعة).

كان التناقـض والرفـض المتبـادل واضحًـا بيـن المعتَقدَين: إمـا أن الربّ موجـود في الطبيعة (مسـيطر عليها) خالـق للكائنات الحية مـن «باطنها» من خلال تفاعلاتها «الطبيعية» الإنشائية التدريجية –وبالتالي لا يحتاج إلى وكيل يرسـله إليها لتتحقق سـيطرته عليها– وإما أن الربّ منفصل عن الطبيعة غائب عنها يخلق من «خارجها» يحتاج إلى وكيل لتتم سـيطرته عليها (طبقًا للعقيدة التي أسسها القديس بولس).

ثبوت مبدأ الخالق «الباطن» – المتحكّم في الطبيعة من باطنها – كان يعني تلقائيًّا سقوط المسيحية الهلنستية البولسية المتوارثة إلى يومنا هذا حول العالم والتـي كان القديس بولس قد أسسـها في منتصف القـرن الأول الميلادي بعد وفاة المسيح كما ذكرنا مقدمًا المسيح إلى العالم كابن للرب مبعوثًا لتخليص العالم من الشر والموت!

كان ذلك يعني سـقوط قاعدة هذه المسـيحية التـي كان القديس بولس قد أسسـها بعد وفاة المسـيح (القديس بولس لم يرَ المسـيح فـي حياته ولم يكن من تلاميذه إنما ظهر بعد وفاته قائدًا لإحدى الفرق المسـيحية المتنافسـة بعد إعلانـه ظهور المسـيح المتوفى له لـــ (بولس) في «رؤية» خاصـة) والتي كان الإمبراطـور الروماني قسـطنطين قـد أقرّها (في مجمع نيقية عـام 325) عقيدة رسـمية للإمبراطورية الرومانية بعد تاريخ طويل من الصراع بينها وبين عقائد

مسيحية أخرى (بما في ذلك العقيدة التي مارسها المسيح في حياته والتي دافع عنها القديس بطرس تلميذ المسيح الأول (الحواري الأول للمسيح) كما تخبرنا رسالة «أعمال الرسل» ورسائل بولس نفسه في «العهد الجديد») وكما سنرى لاحقًا.

هكذا كان «الخلقيون المسيحيون» في تعارض عقائدي شديد – ليس مع الماديين الملحدين فقط ولكن أيضًا – مع التطوريين التوحيديين من أمثال لامارك المؤمنين بوجود «خالق باطن» يبطن الطبيعة ويخلق من خلالها. وهكذا بدأت مناظرات قوية بين الجانبين.

مناظرات احتكم التطوريون خلالها إلى الدلائل العلمية والتشريحية والمقارنات الدّالة على أن الطبيعة لابد أن تكون الأداة المسئولة عن إنشاء الكائنات الحية جميعًا على أطوار.

ثمة مناظرات احتكم الخلقيون المسيحيون خلالها إلى منطق كان القس الإنجليكي وليام بالي (1743–1805) قد أسّسه. إنه ذلك المنطق الشهير القائل: وجود الكائنات دليل على وجود خالق بالطريقة نفسها التي يدل بها وجود الساعة على وجود الصانع الساعاتي الذي أنتجها (خلقها).

كان المنطق جيدًا إلا أن التطوريين أخذوا عليه افتقاره إلى نقطتين أساسيتين: النقطة الأولى هو أن هذا المنطق لا يمكن أن يبرهن أن الطبيعة ليست ذلك الصانع الذي أنتج الكائنات. النقطة الثانية هو أن هذا المنطق لا يقدم أية تفاصيل لعملية خلق هذه الكائنات على هذه الصورة والتفاصيل التشريحية – المعقدة جدًّا – فجأة دون أية مراحل إنشائية متدرّجة على أطوار.

وهكذا ظلّ أغلب علماء التاريخ الطبيعي (علم الأحياء كما كان يطلق عليه) على موقفهم أن الربّ الذي تتحدث عنه الكنيسة غائب تمامًا عن

عمليـة الخلق الحقيقية التي يسـتحيل أن تكون قد تمت بصورة مفاجأة أشـبه بأعمال السـحر، وهكذا ظلّوا على موقفهم أن الكائنات نشـأت من خلال آلية «طبيعية».

لم يكن تمرد علماء ومفكري أوروبا على تعاليم الكنيسة – الخاصة بقصة الخلق – بالشيء الجديد كما رأينا قبل ذلك، لم يكن إلا حلقة جديدة في ذلك المسلسـل الذي كان قد بـدأ بعد إثبات العالم الإيطالـي جاليليو جاليلي خطأ تعاليمها القائلة إن كوكب الأرض هو مركز الكون.

أمـا الجديـد في هـذه الحلقة من المسلسـل فهـو أن هذه الفتـرة الأحدث شهدت تأسيس كثير من العلماء والمفكرين في أوروبا وأمريكا مذهبًا مسيحيًّا جديدًا ذا مبادئ علمية مختلفة تمام الاختلاف عن مبادئ المسـيحية البولسية المتوارثـة منذ قـرون طويلة: مذهب مسـيحي «علمي» جديد أسسـه عددٌ من العلماء والمفكرين الذين قرروا أن يظلّوا على دينهم المسـيحي رغم رفضهم تعاليم الكنيسة المسيحية «البولسية»!

المذهب المسـيحي الناشئ آنذاك كان مذهب المسيحيين «الربيين» (نسبة إلـى الـرب) Deism . إنـه ذلـك المذهب الذي حـاول التوفيق بيـن الحقائق العلمية من جانب والمسـيحية من جانب آخر، مذهب شـمل فيما شمل (كما تخبرنا دائرة المعارف البريطانية نفسـها) أول ثلاثة رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى المفكر الفرنسي ڤولتير (ربما أهم مفكري عصر التنوير) والعالم الفرنسـي رينيـه ديكارت (خريج المدرسـة اليسـوعية) والذي يعتبره الكثيرون أبو العلوم والفلسفة في فرنسا.

علمـاء ومفكـرون وسياسـيون مسـيحيون «ربيّـون» كانوا علـى قناعة بأن المسـيحية الأصلية الحقة لا يمكن أن تكون قد تعارضت مع الاكتشـافات أو

الحقائـق العلميـة؛ لأن الحقيقة لا تعـارض الحقيقة. قناعة تأكـدت بعد ذلك عنـد كثير مـن المثقفين في أوروبا وأمريكا بعد «إعادة اكتشـاف» تاريخ نشـأة ثـم تطور المسـيحية خلال القـرن الأول الميـلادي بفضل اكتشـافات حفرية وتاريخية تمت قبل نهاية القرن العشرين.

(انظـر علـى الإنترنـت أعمـال الباحـث المسـيحي أدولـف هارنـاك وخصوصًـا أعمـال الباحث المسـيحي فيليب آسـلر عضو الجمعيـة الملكية بأدنبـره وعميـد جامعـة القديسـة ماري فـي تويكنهـام، انظر أيضًا موسـوعة: The Early Christian World (2000)).

أحـد أهـم العلماء المسـيحيين «الربيين» – فـي مجال علـم التطور – كان عالـم التاريخ الطبيعي (الأحياء) البريطاني إيراسموس داروين (1731–1802) جد العالـم تشـارلز داروين.. حاول إيراسـموس جاهدًا اكتشـاف نقطة تلاقي بين المسـيحية من جانب ومبدأ تطور الحياة من جانب آخر، إلا أنه لم يستطع ترجمة أفكاره في نظرية علمية كاملة.

كل مـا خلـص إليـه إيراسـموس داروين – بعـد سـنوات مـن الأبحـاث والتفكيـر – هـو أن الربّ لابـد وأن يكون قد خلـق الكائنات الأولية البسـيطة وخلـق لها القدرة على التطـور «تكيفًا مع البيئة» من أجل البقاء: فبدأت بذلك تكتسب أعضاءً جديدة وأشكالًا جديدة مكّنتها من التطور.

ما لـم يدركه وما لـم يتوقعه إيراسـموس داروين في جميع الأحوال هو أن يصبح حفيده – الطفل تشـارلز – ذلك العالـم الذي كان على وشـك أن يظهر ليقلب موازين «نظرية التطور» بل ويقلب موازين الإيمان والإلحاد في أوروبا رأسًا على عقب!

داروين يتحدى الكنيسة

لـم يكـن العالم البريطانـي تشـارلز داروين (1809–1882) كما رأينا أول مـن تحـدث عن تطور الحياة، لـم يكن أول من وضع نظريـة كاملة في التطور، ولم يكن أول من أشـعل النزاع الفكري والمناظرات بين التطوريين من جانب والخلقيين المسيحيين من جانب آخر.

إلا أن العالـم البريطاني تشارلز داروين هو العالـم الذي قلب موازين كل هذه الأمور رأسًـا على عقب، فهو العالـم صاحب النظرية التي كانت على وشك أن تقضي على المسـيحية إلى حد كبير في دول شـمال أوروبا، بل تنتصر للإلحاد هناك أولًا ثم في مناطق أخرى من العالم بعد ذلك.

العالم البريطاني تشـارلز داروين هو العالم الأخطر نفوذًا في العالَم! العالم صاحب النظرية التي أسسـت الإلحاد منهجًا علميًّا للقرن العشرين وأسست له شعبية عالمية، بل وأسفرت عن أقوى موجة إلحاد شهدتها أوروبا وأمريكا عبر تاريخها المسيحي، بل أقوى موجة إلحاد شهدتها الإنسانية جمعاء.

يكفي أن نذكر مثلًا تراجع نسـبة حضور قداس الأحد الأسبوعي –في دول شـمال أوروبا– مما يزيد على تسـعين بالمائة من سـكان هذه الـدول في نهاية القرن التاسـع عشـر إلى ما يقل عن عشـرة بالمائة في النصف الثاني من القرن العشرين بعد انتشار الاعتقاد في هذه النظرية بين شعوبها.

ربما يندهش القارئ إذًا حين يعلم أن داروين نشأ في أسرة مسيحية متدينة، وأن والده أراد له أن يلتحق بكلية اللاهوت ليصبح قسيسًا في الكنيسة قبل أن ينتهي به الحال دارسًا للتاريخ الطبيعي (علم الأحياء) مثل جده إيراسموس داروين.

داروين نفسه كان شابًّا مسيحيًّا متدينًا جدًّا عندما أبحر – كعالم أحياء حديث التخرج – على متن السفينة «بيجل» في السابع والعشرين من ديسمبر عام 1831 في رحلة علمية استمرت خمس سنوات كاملة زارت السفينة خلالها جزر وقارات النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. بل إن العالم الشاب تشارلز داروين كان مسيحيًّا متدينًا لدرجة كانت تجعل أعضاء طاقم السفينة يسخرون منه عندما كان يحتكم إلى عبارات العهد الجديد من الكتاب المقدس (الإنجيل) كفيصل في مناقشتهم كما ذكر بنفسه في مذكراته.

إلا أن هذه الرحلة على متن السفينة بيجل كانت على وشك أن تقلب معتقداته – ومعتقدات مئات الملايين من الناس من بعده – رأسًا على عقب بطريقة غير متوقعة لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

بعد وصول السفينة «بيجل» إلى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، لفت انتباه العالم الشاب تشارلز داروين الحقيقة العلمية أن كلَّ نوعٍ من أنواع (كل جنس من أجناس) الكائنات الحية ينقسم إلى أمم وشعوب تختلف تفاصيلها عن بعضها: نوع من الطيور – على جزيرة جالاباجوس التي زارها مثلًا – اختلف طول منقاره اختلافًا كبيرًا مقارنة بطول منقار النوع نفسه من الطيور على جزيرة أخرى زارها على بعد بضعة آلاف من الكيلومترات، اختلافًا شبيهًا مثلًا بالاختلاف الموجود بين ملامح الإنسان الإفريقي وملامح الإنسان الآسيوي.

فـي البداية احتار العالم الشـاب المسـيحي تشـارلز داروين كثيـرًا، فالقس الإنجليكي وليام بالي – مؤسس المنطق الذي عرف باسم «الدليل من التصميم» كما رأينا – كان قد أسس الدليل على وجود الربّ المسيحي كخالق «منفصل» عن الطبيعة مستشـهدًا بتصميم السـاعة الثابت (تصميم الكائـن الحي الثابت) كدليل على وجود السـاعاتي المصمم (دليل على وجود الخالق المنفصل عن الطبيعـة وعن الخلق). إلا أن «الاختلاف» الموجود في تصميم أمم وشـعوب النوع نفسـه من الطيور الذي درسـه داروين كان دليـلًا علميًّا بأن مبدأ التصميم «الثابت» منطق غير واقعي أصلًا.

فـي النهاية بعد كثير من الحيرة والتفكير، وصل تشـارلز داروين إلى قناعته بـأن مبدأ التصميم الثابت (لكل نوع مـن أنواع الكائنات) مبدأ خاطئ ومضلل، فهـا هـي الأمم والفصائـل المختلفـة المكوّنة لنـوع الطيور هذا تظهـر اختلافًا واضحًا فيما بينها في التصميم. بل سريعًا ما اقتنع العالم الشاب تشارلز داروين بأن الاختلاف في تصميم أمم وشـعوب هـذا النوع من الطيور ما هو في الواقع إلا اختلاف يحدّده تدريجيًّا – حتمًا لا محالة – اختلاف الموقع الجغرافي، أي إن تصميم الكائن الحي مرتبط بالطبيعة معتمد على تفاعلاتها الطبيعية!

وسـريعًا بعد ذلك ما وجد العالم الشـاب تشـارلز داروين نفسـه يرفض أي حديـث عن أي ربّ (خالق) «منفصـل» عن الطبيعة. فذلك الفصل بين الخالق والطبيعة لابد أن يتطلب عملية خلق «جديدة» كل مرة لتمكين «كل» اختلاف في التفاصيل! رأى تشارلز أنه من المستحيل أن يكون الربّ قد خلق مثلًا الإنسان الإفريقـي فجـأة على حدة ثم خلق بعد ذلك (أو قبل ذلك) الإنسـان الآسـيوي فجأة على حدة!

إلا أن ذلك تحديدًا ما يتطلبه مبدأ الربّ «المنفصل» عن الطبيعة الذي يتدخل في شئونها من خارجها ليخلق فجأة تصميمات «ثابتة» (لا تعتمد على التفاعلات

الطبيعية) كما اقترح منطق القس الإنجليكي وليام بالي، بل كما اقترحت قصة الخلق في العهد القديم (التوراة). بل إن داروين وصل إلى الاستنتاج بأنه حتى إن أراد تصديق ذلك، فهذا ليس ما تقوله قصة الخلق في التوراة (العهد القديم) التي تصر على خلق الإنسان مرة واحدة فقط!

وهكذا انطلق العالم الشاب تشارلز داروين - بعد عودته إلى لندن في عام 1836 - في رحلة بحثية باحثًا عن حقيقة نظام التفاعلات الطبيعية الذي أدى إلى نشأة الكائنات الحية.

كان داروين محقًّا بالطبع في جميع الملحوظات العلمية المذكورة أعلاه، إلا أنه أوقع نفسه في خطأ فادح - أوقع نفسه في فخ كبير - استوجب بعد ذلك تصحيح نظريته مرتين خلال القرن التالي (القرن العشرين) كما سنرى. الخطأ الفادح الذي أوقع داروين نفسه فيه هو أنه أسس نظريته على افتراض خاطئ مفاده أن فهم الآلية المسئولة عن نشأة كل نوع من أنواع الكائنات الحية (الإنسان مثلًا) يكمن في دراسة آلية نشأة الاختلاف بين شعوب هذا الكائن.

ذلك وكأننا نقول مثلًا: إن فهم الآلية المسئولة عن نشأة «الإنسان الآدمي» يكمُن في دراسة الآلية المسئولة عن نشأة الاختلاف بين شكل الإنسان الإفريقي من جانب والإنسان الآسيوي من جانب آخر! خطأ فادح، فنشأة «الاختلاف» بين شعوب كل نوع من أنواع الكائنات يتعلق - كما سنرى - بالشق الثانوي لعملية التطور (يتعلق بشق تكيفه مع البيئة وليس بشق تكوّنه).

العام التالي لرجوع داروين من رحلته - عام 1837 - كان ذلك العام الذي شهد اكتشاف عالم النباتات الألماني شيلدن الحقيقة العلمية أن الخلية هي الوحدة المنشأة لجميع أنواع النباتات على اختلافها، اكتشاف تبعه في العام اللاحق - عام 1838 - اكتشاف صديقه عالم الحيوانات الألماني شوان أن الخلية هي أيضًا الوحدة المنشئة لجميع أنواع الحيوانات.

وهكـذا ظهـرت في عـام 1839 نظريتهما التـي وحدت عالـم النبات وعالم الحيوان: الكائنات الحية جميعًا نشأت من الخلية (النّطفة) تمامًا كما تنبأ عالم التطور الفرنسـي لامارك قبل ذلـك بثمانية وثلاثين عامًا عندمـا قدّم نظريته في التطور متحدثًا عن نشـأة الكائنات الحية جميعًا من أصل واحد مشـترك (كائن حي أولي بسيط) كان قد نشأ بدوره من المادة.

أخذ العالم البريطاني تشارلز داروين عشرين عامًا من البحث والدراسة بعد ذلك قبل أن تصل نظريته إلى شـكلها النهائي، وقبل أن يقوم أخيرًا بنشـرها عام 1859 في كتاب أسـماه «أصل الكائنات»: ثلاثة وعشرون عامًا كاملة منذ عودته مـن رحلتـه العلميـة – في عـام 1836 – عكف خلالها على وضع إعادة تفسـير للتاريخ الطبيعي (علم الأحياء) – بما يتوافق مع نظريته ويؤكدها.

انطلقت نظرية داروين من القاعدة نفسها التي أسسها لامارك وأسس عليها نظريته، القاعدة أن كلَّ الكائنات الحية نشأت من أصل واحد مشترك (الخلية)، القاعدة أن التفاعلات الطبيعية هي التي طوّرت هذه الخلية في اتجاهات عديدة عبر مليارات السـنين لتنشأ بذلك من الخلية جميع الكائنات الحية التي عَمَّرَت كوكب الأرض عبر تاريخ الحياة عليه.

كَمِن الاختلاف الأكبر والأهم بين نظرية داروين ونظرية لامارك في تصور كل منهمـا للآلية الطبيعية المسـئولة عن نشـأة الكائنات الحية مـن الخلية (من النّطفـة)، فعلى عكـس لامارك – المؤمـن ضمنًا بأن الطبيعـة تعتمد على نظام باطن (خالق باطن) مسـئول عن إنشـاء كل كائن حي بصـورة مُنَظَّمَة – داروين أسس نظريته على مبدأ أن الطبيعة (المسئولة عن إنشاء الكائنات الحية) لا تتبع أي نظـام من أي نوع، وأن الكائنات الحية ما هي إلا نتائج غير مقصودة حدثت عشوائيًّا بالصدفة دون أي تخطيط مسبق ودون حاجة لوجود خالق.

النظرية الداروينية عرِفَت في الأوساط العلمية تحت أسماء مختلفة، ذلك أن هذه الأسماء تعاونت معًا في شرح تفاصيل هذه النظرية وتلخيصها في أربعة أو خمسة محاور متكاملة. هذه الأسماء هي: نظرية «النشوء والارتقاء»، نظرية «التطور العشوائي»، نظرية «التطور الدقيق»، نظرية «التطور التفرعي»، نظرية «الانتخاب الطبيعي» القائم على مبدأ «التكيف مع البيئة»، ونظرية «البقاء للأقوى».

النظرية الداروينية هي نظرية «النشوء والارتقاء»، نظرية تدفع بأن الخلية (التي كانت قد نشأت من المادة كأول كائن حي) هي الأصل المشترك الذي انطلق منه مسلسل نشأة الكائنات الحية جميعًا، وهي في ذلك مطابقة لنظرية لامارك كما ذكرنا، إلا أن هذا يكاد يكون وجه التطابق الوحيد بين النظريتين.

النظرية الداروينية هي بعد ذلك نظرية «التطور العشوائي»، نظرية دفعت بأن تطور الحياة (نشأة الكائنات الحية على أطوار من الخلية) جاء نتيجة لسلسلة طويلة من التطور العشوائي غير المنظَّم وغير المقصود، تطور لم يعتمد على أي نظام باطن (خالق باطن)، وإنما على تغيرات عشوائية أحدثتها الطبيعة دون قصد أو تخطيط مسبق.

النظرية الداروينية على المستوى التالي هي نظرية «التطور الدقيق» Micro-Evolution، نظرية دفعت بأن نشأة كل كائن من الكائنات الحية من الخلية اعتمدت على إيقاع تغير بسيط جدًّا ثابت الإيقاع دومًا كعقارب الساعة (إيقاع مستمر إلى يومنا هذا وإلى الأبد)، إيقاع تغير بطيء جدًّا لدرجة أنه لا يلاحظ إلا بعد مرور ملايين السنين وأجيال لا حصر لها.

النظرية الداروينية على المستوى التالي هي نظرية «التطور التفرعي»، نظرية دفعت بأن التطور العشوائي البطيء لأجيال بعد أجيال من الخلية في اتجاهات

عشـوائية عديدة أنشأ تدريجيًّا كائنات أولية بحرية بدائية «مختلفة» بسيطة قبل أن يتحول كلٌّ منها بدوره إلى «أصل مشترك» (فرع رئيسي في شجرة التطور) تفرّعت منه عشوائيًّا ببطء أفرع كائنات أحدث ثم أحدث (طبقًا لنموذج الشجرة).

هكذا مثلًا نشـأت الأسـماك تفرعًا عن كائن من الكائنات البحرية الرخوية (المضغة) الأقدم والتي كانت قد نشـأت بدورها من الخلية، هكذا نشـأت مثلًا بعد ذلك الحيوانات البرمائية تفرعًا من أحد الأسـماك، هكذا نشـأت مثلًا بعد ذلك الحيوانات الثديية الأرضية تفرعًا من أحد هذه الحيوانات البرمائية، هكذا نشـأ مثـلًا بعد ذلـك الفأر من أحد الثدييات البدائية، هكذا نشـأ مثـلًا بعد ذلك أقدم كائن من أشباه القردة من الفأر، وهكذا نشأ مثلًا بعد ذلك الإنسان من أحد الكائنات أشباه القردة (كل ذلك كمثال للتبسيط وليس الحصر).

آليـة «التطور التفرعـي» هذه هي أهم القواعد المؤسسـة للنظرية الداروينية كنظرية قادرة على تأسيس «الصدفة» وليس النظام (مبدأ الخالق) أساسًا لتطور الحياة (أساسًـا لنشـأة الكائنات)؛ ذلك أنهـا الآلية الوحيدة القـادرة على إجابة أخطـر سـؤال يهدد مبدأ الصدفة والعشـوائية كأسـاس للخلق، السـؤال: كيف نشـأت الكائنات المتشـابهة (القـردة والشـمبانزي والغوريلا والإنسـان مثلًا) عشوائيًّا «بالصدفة» دون نظام باطن (خالق باطن) منشئ لهذا التشابه بينها؟

ذلـك أن مجرد قبول المبدأ أن أيًّا من الكائنات الحية المتشـابهة (الإنسـان والقرد مثلًا) نشـأ بصورة «مستقلة» عن الآخر يسقط تلقائيًّا مبدأ الصدفة مؤكدًا وجود نظام باطن (خالق باطن) مسـئول عن إنشـائهما لسـبب بسيط بل واضح جدًّا: «التكرار» المستقل ينفي «الصدفة».

المدهـش هنـا هـو الآتـي: الكائنـات المتشـابهة (مثـل الإنسـان والقـرد والشمبانزي والغوريلا) تعتبر طبقًا لمبدأ «التطور «التفرعي» دليلًا على الصدفة

وغيـاب الخالـق. هـذه الكائنات المتشـابهة تعتبر – هـي نفسـها – طبقًا لمبدأ «التطور المستقل» دليلًا على وجود الخالق!

النظريـة الداروينية على المسـتوى الأخير هي نظريـة «الانتخاب الطبيعي» القائـم على مبدأ «التكيف مع البيئة»، نظرية دفعت بأن الطبيعة تنتخب (تختار) الأصلـح فقـط للبقاء؛ أي إن بقـاء أي كائن حي ناشـئ أو انقراضه يتوقف على استمرار توافق تصميم هذا الكائن الحي مع البيئة التي ينشأ داخلها.

دارويـن كان محقـًّا في مبدأ «الانتخاب الطبيعـي» للكائنات، كان محقًّا في مبـدأ انقـراض الكائنـات العاجزة عـن التكيف المسـتمر مع البيئـة كما حدث للديناصـورات مثـلًا قبل ذلـك عندما أصبح منـاخ كوكـب الأرض غير ملائم لبقائها، وكما حدث أيضًا لأنواع عديدة من الحشرات التي لم يُمَكِنها تصميمها الداخلي من القيام بوظائفها الحيوية في البرد الشديد أثناء تتابع العصور الجليدية على أوروبا.

النظرية الداروينية هي في ذلك أيضًا نظرية «البقاء للأقوى» والأسرع وما إلى ذلك من حدية تنافسية، نظرية تدفع بأن أنواع الحيوانات المختلفة في صراع دائم فيما بينها، صراع يشـكل جزءًا لا يتجزأ من عمليـة «الانتخاب الطبيعي»، صراع يشمل تسابقها وتنافسها من أجل الحصول على الموارد الطبيعية من ماء وغذاء، صراع تنقرض خلاله الكائنات الأضعف أو الأبطأ بعد فشلها في الحصول على الغذاء أو بعد تحولها هي نفسها إلى غذاء للكائنات الأقوى والأسرع.

إلا أن مبدأ «البقاء للأقوى» هو أيضًا ذلك المبدأ الذي منع النظرية الداروينية من التمكّن من شـرح ظاهرة تعاون كثير من الكائنات «تعاونًا من أجل البقاء». أحد أمثلة «التعاون من أجل البقاء» هو مثال العصفور الذي يحصل على غذائه أثناء قيامه بتنظيف أسـنان التمسـاح؛ ليحافظ بذلك التمساح على صحة أسنانه وليستفيد الاثنان معًا دون أن يقوم التمساح بالتهام العصفور!

في عام 1859 عندما أقدم داروين على نشر نظريته في كتابه «أصل الكائنات» لم يطبع منه إلا ألفًا ومائتين وخمسين نسخة فقط، وهذا يعني - بدوره - أنه لم يكن يتوقع أبدًا حجم الاهتمام الأوروبي والعالمي الذي كان على وشك أن تحظى به نظريته. لم يكن داروين يتوقع أبدًا أن نظريته كانت على وشك أن تصبح سريعًا أشهر وأخطر نظرية علمية في تاريخ الإنسانية.

نفدت نسخ الطبعة الأولى في أسبوع واحد على ما يبدو تاريخيًّا، ثم تبعتها طبعات أخرى عديدة بعد ذلك، وسريعًا ما حظيت النظرية الداروينية باهتمام غير مسبوق في أوروبا على جميع المستويات - بدءًا بالعلماء مرورًا بالإعلام والمثقفين وانتهاءً بالعامة - وذلك على عكس نظرية لامارك التي لم تحصل في زمانها إلا على اهتمام العلماء والمفكرين فقط.

النظرية الداروينية التي أسسها العالم البريطاني تشارلز داروين في عام 1859 كانت كافية لتأسيس الداروينية كأهم منبر علمي إلحادي نافٍ لوجود أي خالق. غير المفهوم تاريخيًّا -وغير المنطقي أيضًا- هو بالتالي ما كتبه داروين بنفسه في كتاب صدر له بعد ذلك بما يقرب من ثلاثين عامًا (في عام 1887 قبل وفاته بسنوات قليلة) عندما نفى عن نفسه صفة الإلحاد قائلًا: «في أقصى حالات الشك، لم أكن أبدًا ملحدًا بمعنى رفض وجود رب، «لا أدري» تعبيرًا أدق لحالتي الذهنية» (Andersen, 17)!

حقيقي أن داروين رفض رفضًا قاطعًا مبدأ الخالق «المنفصل عن الطبيعة» الذي تحدثت عنه الكنيسة، إلا أنه على ما يبدو (ولشديد دهشتنا) لم يستبعد في النهاية قبل وفاته بسنوات قليلة احتمال وجود «عقل ذكي» مؤسس للقوانين المفروضة على الطبيعة كما ذكر في مذكراته المنشورة بعد وفاته:
«... في فكري أنه يتفق بصورة أفضل مع القوانين المفروضة على الطبيعة» (Darwin, 1950)!

في جميع الأحوال بالطبع، وبغض النظر عما دار في عقل داروين قبل وفاته -فإن ما كتبه في مذكراته الشخصية- والتي لم تنشر إلا على نطاق ضيق بعد وفاته بسنوات - لم يتعدَ نطاق هذه المذكرات، ولم يكن له أي صدى علمي أو إعلامي يذكر مقارنة بنظريته التي كانت قد أصبحت بالفعل منبر الإلحاد العلمي على مستوى أوروبا ثم العالم.

قصة تفوق النظرية الداروينية قصة مزدوجة الأسباب؛ فالنظرية الداروينية أقنعت بالفعل الأغلبية العظمى من علماء التاريخ الطبيعي الموجودين في منتصف القرن التاسع عشر، إلا أنها أيضًا تلك النظرية التي حققت نجاحًا إعلاميًّا مبهرًا على مستوى المثقفين والعامة بعد أن تبناها إعلاميًّا فور نشأتها أباطرة المال والصناعة والإعلام بعد تزامن صدورها مع بداية عصر «الثورة الصناعية».

«الثورة الصناعية» كانت ثورة في المنتجات وأنواعها وكمياتها المنتجة من خلال خطوط الإنتاج المستحدثة آنذاك، ثورة كان لابد أن تصاحبها ثورة في الاستهلاك كي تنجح وتستمر وكي تتحقق بالتالي لأباطرتها (أباطرة المال والصناعة والإعلام) المكاسب المالية المرجوة منها، ثورة لم تكن لتنجح دون تغيير جذري في عادات الأفراد والمجتمعات إرساءً للمجتمع الاستهلاكي الحديث، مجتمع لم يكن من الممكن أن ينشأ في أوروبا في ظل سيطرة الكنيسة على إيقاع الحياة هناك وفي ظلّ قناعة الشعوب الأوروبية المسيحية بإيقاع الحياة القانعة الهادئة أملًا في الجنة.

أباطرة المال والصناعة والإعلام (الصحافة كانت إحدى الصناعات الحديثة آنذاك) استقبلوا الداروينية بشغف شديد، وسريعًا ما تبنوها إعلاميًّا (كما يوضح المؤرخون) مستخدمين إياها كأداة إعلامية للتخلص من النظام المجتمعي الهادئ (النظام اللااستهلاكي) القديم الراسخ في أوروبا منذ القرون الوسطى، أداة للتخلص من الكنيسة وتعاليمها الدينية الداعية إلى الحياة الفاضلة الزاهدة

الآملة في الجنة، أداة إعلامية لتأسيس نظام يسعى وراء المتعة (الاستهلاك) في هذه الحياة الدنيا والتي (طبقًا للنظرية الداروينية) لن يوجد غيرها.

باختصار، فإن أباطرة الثورة الصناعية رأوا في الداروينية أداة إعلامية لتأسيس المجتمع الاستهلاكي العالمي الجديد (كما نعرفه اليوم)!

نجاح صناعة الصحافة في مهمتها كان مبهرًا، فسريعًا ما أصبحت النظرية الداروينية النظرية العلمية الأكثر شهرة في أوروبا (ثم العالم)، وسريعًا ما تداول المثقفون والعامة معًا المقولة الشهيرة: داروين أثبت خطأ الإنجيل! وسريعًا ما أصبحت الداروينية منبرًا علميًّا للإلحاد وقاعدة «فلسفية» للمجتمع الاستهلاكي الحديث، بل سريعًا ما تمكّنت الداروينية من السيطرة على المناهج العلمية الغربية (وبالتالي المناهج الدولية فيما بعد)، ليبدأ بذلك عصر التعليم الدارويني برمجةً لعقول الأجيال الناشئة في البلدان المختلفة إرساءً للمبادئ الإلحادية والحياة الاستهلاكية (وصولًا إلى بلادنا في السنوات الأخيرة من خلال المناهج الدراسية «المستوردة» ووسائل الإعلام العالمي).

(قصة انتصار أباطرة المال والصناعة والإعلام للنظرية الداروينية مستمرة إلى يومنا هذا بطبيعة الحال كما هو ثابت في موقف الإعلام الأوروبي والأمريكي (وبالتالي الإعلام العالمي) من ترويج مستمر لها وتجاهل للاكتشافات العلمية الأحدث التي كانت قد ظهرت خلال القرن العشرين مجبرة العلماء الداروينيين أنفسهم على تصحيحها كما سنرى).

ربما لا يندهش القارئ كثيرًا بعد ذلك حينما يعلم أن الشخص المسئول الأول عن انتشار الداروينية إعلاميًّا خارج الدوائر العلمية –أي بين المثقفين والعامة في إنجلترا أولًا ومن بعدها أوروبا ثم العالم – لم يكن مؤسسها العالم البريطاني تشارلز داروين إنما الصحفي البريطاني هربرت سبنسر! أما العجيب

فهو أن هربرت سبنسر هو أيضًا ذلك الشخص الذي رفض داروين نفسه أفكاره، بل ووصفها بأنها هراء!

هربرت سبنسر هو ذلك الإعلامي الذي اختطف النظرية الداروينية ليؤسس على قاعدتها «العلمية» نظرية «مجتمعية» خطيرة عرفت باسم «الداروينية المجتمعية» (والتي تعرف أيضًا باسم «الداروينية الاجتماعية»)، نظرية أسّست فيما أسّست «التنافس» وليس التعاون بين البشر (تمامًا مثل التنافس الدارويني بين الحيوانات) مبدأ لحياة الإنسان في العصر الحديث! بل إن هربرت سبنسر هو أول من أسس مبدأ «البقاء للأقوى» أساسًا للحياة بيننا نحن البشر!

«الداروينية المجتمعية» هي أيضًا تلك الفلسفة التي نجحت وترعرعت تدريجيًّا حول العالم قبل أن تصبح الفلسفة السياسية المسئولة عن كثير من حروب القرن العشرين بما في ذلك الحربين العالميتين الأولى ثم الثانية.

إنها أيضًا تلك الفلسفة الاجتماعية التي وصلت إلى بلادنا في النصف الثاني من القرن العشرين تأسيسًا للاستهلاك وطلب المتعة أساس لحياتنا، تأسيسًا للتنافس أساس لعلاقاتنا، لتقضي جزئيًّا بذلك على سمات التآخي والإيثار التي طالما ميّزت الإنسان الشرقي قبل ذلك، لتختفي بذلك تدريجيًّا قيمنا الحميدة المتوارثة عبر التاريخ!

تطورات كثيرة وإنجازات داروينية مهمة أخذت العالم في اتجاهات لم يكن ليتخيلها داروين نفسه، وكل ذلك في ظلّ تخلف علمي في بلدان الشرق التي آثرت تجاهل وتفادي موضوع تطور الحياة (الدارويني الصِّبغَة) برمته إلا فيما ندر (تحليل ومواجهة الشيخ جمال الدين الأفغاني له مثلًا والذي كان قد تم في نهاية القرن التاسع عشر).

التخلف العلمي في الشرق نتج عنه -فيما نتج- تجاهل الموضوع في مناهجنا المدرسية انتهاجًا لمنهج النعام الدافن رأسه في التراب! ذلك إلى أن وصلت المناهج التعليمية الداروينية الغربية (المناهج الدولية) المستوردة إلى بلادنا في السنوات الأخيرة من القرن العشرين! وإلى أن وصل الغزو الإلحادي الدارويني من خلال الإعلام العالمي والإنترنت، والإنترنت يأتي بما لا يشتهي النعام!

قصة النظرية الداروينية هي القصة الأهم في زماننا، إنها قصة تلك النظرية العلمية التي تخطّت حدود العلم لتؤسس عصر إلحاد علمي لم يشهده التاريخ من قبل، قصة غزو ثقافي وتعليمي متوغّل في كوكب الأرض قادم إلينا من كل مكان برًّا وجوًّا! غزو تشتد وطأته اليوم في بيت كل منا من خلال الإنترنت والتعليم ووسائل الإعلام العالمي (بل ووسائل الإعلام المحلي التي تروج للداروينية المجتمعية ومبادئها الاستهلاكية بكل جهل وتخلف وتبعية لاتجاهات الموضة والفن العالمي)!

قصة انتصار «الداروينية المجتمعية» ليست فقط قصة انتصار وتقدم الإلحاد تدريجيًّا على مستوى العالم، بل هي أيضًا قصة عصرنا الجديد على مستويات أخرى نحياها اليوم في كل مكان، إنها قصة انتصار العصر الاستهلاكي غير الروحاني، قصة انتصار العصر التنافسي غير التعاوني، قصة انتصار العصر الصاخب غير الهادئ، قصة هذا النمط الذي تمكّن من غزونا مؤخرًا في الشرق العربي بعد أن أجهز على العالم الغربي! والبقية تأتي إن لم نوقف هذا الزحف وهذه التبعية السطحية للاتجاهات والمفاهيم العالمية! البقية تأتي إن لم ننشئ أجيالنا الجديدة على هوية تقدمية حقيقية بدلًا من النسخ والمسخ الذي أصبحوا عليه بسبب تخاذلنا وتخلفنا وتبعيتنا!

عجلة التاريخ لا ولن تتوقف، وظهور وتفوق النظرية الداروينية حول العالم حلقة أساسية في رحلة الإنسان على سبيل تبَيّن الحق في الآفاق وفي أنفسنا،

جزء لا يتجزأ من رحلته على طريق اكتشاف تلك «العقيدة العلمية» الصلبة التي لـن تقبل التشـكيك بعد ذلـك، جزء لا يتجزأ مـن رحلة العلم مـن الإلحاد إلى التوحيد.

شجرة التطور الداروينية

فـي عـام 1860 وبعـد عـام واحـد مـن ظهـور النظرية الداروينية احتفل الداروينيـون بمـا اعتبـره أغلبية علمـاء التطور آنـذاك إثباتًا علميًّـا قاطعًا على صحة النظرية الداروينية بعد اكتشـاف ذلك الحيوان المنقرض العجيب الذي أطلـق عليه آنذاك لقب الأركيوبتركس Archaeopteryx والذي تحوّل بذلك فور اكتشافه إلى أهم حيوان منقرض في التاريخ!

كان داروين قد أسس نظريته كما رأينا على مبدأ «التطور التفرعي» من خلال نموذج الشجرة؛ ذلك أن مبدأ «التطور التفرعي» كان المبدأ الوحيد القادر على تقديم إجابة عن السؤال الأهم: كيف يمكن للصدفة أن تنشِئ كائنات متشابهة في الشـكل الخارجي والأعضاء الداخلية؟ مجرد قبول المقترح أن أي كائنين من الكائنات المتشابهة (الإنسان والقرد مثلًا) نشأ بطرق مستقلة عن بعضهما ينفـي تلقائيًّـا كما ذكرنا مبـدأ «الصدفة»، ويؤكد حتمًـا لا محالة وجود «نظام» باطن (خالق باطن) مسئول عن «تكرار» هذا التشابه!

تفسـير داويـن مسلسـل «تطـور الحيـاة» - مـن خـلال نموذج الشـجرة «المتفرّعة» عشـوائيًّا في جميع الاتجاهات - أسـس مبدأ نشـأة كل تشابه بين الكائنات مرة واحدة فقط (عشـوائيًّا بالصدفة) أولًا عند كائن واحد، ذلك قبل أن يتحوّل بدوره إلى فرع رئيسي (أصل مشترك) نشأ منه عشوائيًّا في اتجاهات مختلفـة أفرع ثانويـة (كائنات أحدث أكثر تشـابه)، وهكذا وهكـذا تمامًا كما

تستمر الفروع الأصغر في النشأة من الفروع الأكبر، لينشأ بذلك مثلًا في النهاية القرد والشمبانزي والغوريللا والإنسان تفرعًا عشوائيًّا عن كائن أقدم (أصل مشترك) من أشباه القردة.

تفرّع «الأصل المشترك» هو تحديدًا ما أدى – طبقًا للنظرية الداروينية – إلى «توارث» التشابه بين الكائنات عشوائيًّا دون حاجة إلى وجود خالق!

قاعدة «التطور التفرعي» لا تقتصر على نشأة الكائنات المتشابهة فقط، بل تشمل أيضًا بطبيعة الحال – على المستوى التأسيسي الأدق – كل تشابه بين أعضاء الكائنات. أسس داروين نظريته على أن كلَّ تشابه بين أعضاء الكائنات لم ينشأ إلا مرة واحدة فقط (بالصدفة) في البداية في هيئة بسيطة جدًّا عند «أصل مشترك» بين جميع الكائنات التي تشمل هذا العضو تحديدًا، ذلك قبل أن تقوم عمليات التكاثر والتطور «التفرعي» للكائنات بتطويره عشوائيًّا في اتجاهات مختلفة، لتنشأ بذلك الأعضاء المتقدمة ذات الدرجات المختلفة من التشابه.

هكذا حتّمت النظرية الداروينية مثلًا أن «العين» لم تنشأ في البداية إلا مرة واحدة بالصدفة عند حيوان أقدم – واحد – على هيئة «خلية استشعار ضوئي» بسيطة، وذلك قبل أن يؤدي تناوب تكاثر وتطور ذرية هذا الحيوان الأقدم في اتجاهات عشوائية مختلفة (ولمدة ملايين كثيرة جدًّا من السنين) إلى تطَوّر خلية الاستشعار الضوئي هذه؛ لتنشأ بذلك أنواع مختلفة من العيون البدائية، ذلك قبل أن تتكرر هذه الدورة مرات من بعد مرات؛ لتنشأ بذلك في النهاية للحيوانات الحديثة (المتفرعة عن هذا الحيوان الأولي الأقدم) جميع أنواع العيون التي نراها اليوم في عالم الأحياء على اختلافها من الأبسط إلى الأعقد.

الأركيوبتركس – ذلك الحيوان المنقرض المُكتشف في ألمانيا في عام 1860 متحجرًا بين الصخور تحت الأرض – أهم حيوان منقرض في

التاريخ لأنه بكل بساطة ذلك الحيوان الذي اعتبره أغلب العلماء آنذاك دليلًا علميًّا على صحة النظرية الداروينية لإثباته مبدأ «التطور التفرعي» بمفهومه الدارويني (هناك أنواع أخرى من التطور التفرعي منافية لمبدأ الصدفة أساسًا لنشأة الكائنات كما سنرى).

الأركيوبتركس ديناصور صغير جدًّا كان قد عاش قبل حوالي 150 مليون عام، ديناصور في حجم الدجاجة ووزنه (حوالي كيلو جرام واحد)، فالديناصورات التي كانت قد نشأت قبل حوالي 240 مليون عام (قبل أن تنقرض قبل حوالي 60 مليون عام) تفاوتت أحجامها بصورة رهيبة تمامًا كما تتفاوت اليوم الثدييات ما بين حجم الفأر من جانب وحجم الحوت من جانب آخر (الفأر والحوت نوعان من أنواع الثدييات).

الأركيوبتركس ديناصور من طبيعة استثنائية جدًّا، ذلك أنه يشبه الديناصورات القديمة والطيور الحديثة في آن واحد! ذلك أن الأركيوبتركس حيوان يتكوّن مثل الديناصورات وعلى عكس الطيور من أسنان في فمه ومقابض في أجنحته وذيل طويل من العظام! إلا أنه أيضًا حيوان يتكوّن مثل الطيور وعلى عكس الديناصورات من «ريش» (الديناصورات لا تشمل أي نوع من الريش) وعظام خفيفة رقيقة وأجنحة متناسبة مع حجم جسمه!

إن ريش الأركيوبتركس من طبيعة ريش الطيور والتي لم تبدأ في الظهور على كوكب الأرض إلا قبل حوالي ستين مليون عام فقط بعد انقراض الديناصورات!.. الأركيوبتركس كان عند اكتشافه أقدم حيوان منقرض مكتشف يحتوي على «ريش»! هذا تحديدًا سبب إطلاق علماء الباليونتولوچي (العلم المتخصص في التنقيب عن الكائنات المنقرضة وتصنيفها) لقب «الأركيوبتركس» عليه، فكلمة أركيوبتركس تعني باليونانية «الريش القديم».

هذه التوليفة العجيبة من الأعضاء – كونه حيوانًا وسيطًا بين الديناصورات والطيـور – هو تحديدًا ما دعا أغلب العلماء آنـذاك إلى اعتبار الأركيوبتركس دليـلًا علميًّا على نشـأة الطيـور جميعًا «تفرعًـا» عن هذا الديناصـور الصغير! وهكـذا تحـوّل فجأة هذا الحيوان إلـى دليل دارويني على صحـة مبدأ التطور التفرعي (العشوائي البطيء) للكائنات عن «أصل مشترك» فيما بينها، وبالتالي دليل على صحة النظرية الداروينية بصفة عامة.

بـل إن الديناصـور الأركيوبتركـس ظَلّ ذلـك الدليـل الدارويني الأوضح والأهم مائة وخمسين عامًا كاملة حتى بداية القرن الحادي والعشرين!

إلا أن هـذا التصنيـف وهذا الدليـل انهار فجـأة ودون مقدمات في عام 2011 بعـد اكتشـاف علمـاء الباليونتولوچـي الصينيين في مقاطعـة لياوننج الصينيـة ديناصـورًا منقرضًـا آخر – من الفتـرة الزمنية نفسـها ومن الحجم نفسـه تقريبًا – ذا أعضاء أكثر شـبهًا بأعضاء الطيور عن الأركيوبتركس! إنه ذلـك الديناصور الذي أطلـق عليه علمـاء الباليونتولوچـي الصينيين لقب الزياوتنجيـا Xiaotingia والـذي حـلَّ بذلـك فجأة محـل الأركيوبتركس كأصل مشترك مسئول عن نشأة الطيور جميعًا (طبقًا للنموذج الدارويني)!

بـل هكذا تمت إعادة تصنيـف الديناصور الأركيوبتركس فجـأة (بعد مائة وخمسـين عامًا) في شجرة التطور الداروينية في فرع مختلف عن الفرع الذي أنشـأ الطيور الحديثة بطريقة مباشرة (طبقًا للنموذج الدارويني)! فرع منقرض «منتهـى التفـرع» منتهى التطور بمعنى أنـه كائن لم يتمكن (لـم تتمكن أجياله المتعاقبة) من التطور والتحول إلى كائنات أحدث!

حقيقي أن سقوط نظرية الأركيوبتركس لم يعن سقوط مبدأ تفرع الكائنات ببطء عن أصل مشـترك بينها بما إن الأركيوبتركس تم اسـتبداله بمرشح آخر،

إلا أنـه أصبـح فجأة دليلًا علميًّـا على أن عمليات التصنيـف الداروينـي برمتها (وفـي دليلهـا الأقوى) لا تعدو كونهـا «علمًا تجريبيًّا» لا يعتمـد بأي حال من الأحوال على أي دقة علمية حقيقية كما هو الحال مع علمي الفيزياء والكيمياء المعتمدين على دقة المعادلات الرياضية!

سـقوط مبدأ التطور التفرعي بمفهومه الدارويني -المؤسـس للصدفة- تم من خلال اكتشـافات علمية أخـرى أجبرت العلماء الداروينيين أنفسـهم على اسـتحداث ثلاثـة مصطلحات علمية جديدة مناقضة لمبدأ «الصدفة» كأسـاس لنشـأة الكائنات. هـذه المصطلحـات العلمية الثلاثـة هي «التطور المسـتقل» Convergent Evolution، «التطـور المتـوازي» Parallel Evolution، و«التطور التشكيلي» Mosaic Evolution.

مبـدأ «التطـور المسـتقل» مبـدأ أقـره العلمـاء الداروينيـون أنفسـهم فـي خمسـينيات القرن العشرين بعد ثبوت نشـأة حيوانات على درجات كبيرة من التشـابه بطرق مسـتقلة عن بعضها، حيوانـات لا ينطبق عليهـا -بأي حال من الأحـوال- مبدأ «التفرع» عن أصل مشـترك، حيوانات لا يمكـن تصنيفها معًا في فرع واحد من أفرع شجرة التطور الداروينية!

أحـد أوضـح الأمثلـة التي كانـت قد ظهـرت (بعـد تقـدم أدوات البحث العلمـي) لتؤكـد مبدأ «التطور المسـتقل» هـي أجنحة عائلة «الطيـور» مقارنة بأجنحة عائلة «الحشرات الطائرة» مقارنة بأجنحة عائلة «الخفافيش».

هـذه العائـلات الثلاث عائـلات مختلفة اختلافًـا جذريًّا لا تربـط بينها – بطبيعة الحال – أية علاقة تفرعية مشتركة طبقًا لشجرة التطور الداروينية ذاتها؛ أي إن «أجنحـة» هـذه الحيوانـات الطائرة لم تنشـأ – كما يحَتِّم مبـدأ «التطور

التفرعي» وكما تحتم النظرية الداروينية – عن «أصل مشترك» بينها، بل نشأت بطرق مستقلة استقلالًا تامًّا، وفي أزمنة مختلفة يفصل بينها ما بين عشرات ومئات الملايين من السنين!

جناح العصفور مثلًا جناح من طبيعة وتكوين مختلفين اختلافًا جذريًّا عن جناح الذبابة كما هو واضح للجميع (جناح الذبابة لا يتكون من عظم وريش مثل جناح العصفور)!

نشأة الأجنحة بصور مستقلة عن بعضها – ما لا يقل عن ثلاث مرات بإقرار الداروينيين أنفسهم – يسقط مبدأ «التطور التفرعي» بمفهومه الدارويني المؤسس للصدفة آلية مسئولة عن نشأة أعضاء الكائنات! و«تكرار» نشأة الأجنحة بصور «مستقلة» دليل على وجود «نظام» باطن (خالق باطن) مسئول عن «تكرار» عملية إنشائها!

أمثلة نشأة الأعضاء المتشابهة عند الكائنات بصور مستقلة عن بعضها عديدة جدًّا، قصة نشأة «العيون» مثلًا هو أحد أهم الأمثلة التي ظهرت فجأة في النصف الثاني من القرن العشرين – بعد تأسس وتقدم علم الجينات المقارن – لتفاجأ العلماء الداروينيين بحقائق علمية قلبت مبدأ «تفرعها» (العيون) جميعًا عن «أصل مشترك» رأسًا على عقب!

العالم الدارويني الألماني المعمر إرنست ماير (1904 – 2005) – عضو الفريق الدارويني الذي قام بتصحيح النظرية الداروينية في عام 1937 لتصبح النِيو-داروينية Neo-Darwinism كما سنرى – يقرّ بنفسه عدد هذه النشآت المستقلة في كتابه «ما هو التطور» الصادر في النصف الثاني من القرن العشرين قائلًا: «كشف تحليل أفرع الجينات عن نشأة أعضاء متطورة معقدة بطرق مستقلة، كنّا قد ذكرنا العيون: أكثر من أربعين نشأة مستقلة» (Mayr 1988, 410)!

الرائـع هو أن هذا الاكتشـاف العلمي المهم يتعدى سـطحية التناظر حول احتمـال وجـود نظـام أي «مصـدر باطـن» (خالـق باطن) مسـئول عن إنشـاء الإبصار إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، يتخطاه إلى مراحل متقدمة من التأمل والحديث عن صفات هذا المصدر الباطن (الخالق الباطن).

ذلـك أن الإبصـار لا يمكن أن ينشـأ عند الحيوانات بطرقٍ مسـتقلة – أكثر مـن أربعين مرة – إلا إذا كان صفة «مطلقة» مـن صفات «النظام» أي المصدر الباطن (الخالق الباطن) المنشئ له! أي إن هذا الاكتشاف العلمي المهم يعني أن الإبصار موجود بصورة «مطلقة» كصفة من صفات «الخالق الباطن»، فهذا –وهـذا فقـط– ما يمكِن أن يمَكِّن نشـأة ظاهـرة الإبصار عنـد الكائنات الحية بطرق مستقلة عن بعضها.

ذلـك وكأن العلـم أراد أن يخبرنا على اسـتحياء بأن «الخالـق الباطن» هو أيضًا «البصير» مصدر كل إبصار (وكذلك «السميع» مصدر كل سَمَع)! وكأن العلم أراد أن يخبرنا بأن «الخالق الباطن» هو أيضًا «السميع البصير»ً!

أمثلـة «التطـور المسـتقل» الـدال على وجـود نظـام باطن – خالـق باطن – مسـئول عن إنشـاء حيوانات متشـابهة بصور مسـتقلة عن بعضها شـملت الحيوانـات «الثدييـة المارزوبالية» بعد اكتشـافها في قارتي أسـتراليا وأمريكا الجنوبية (الكنغر والذئب التسماني مثلًا) مقارنة ببقية الثدييات في بقية قارات العالم (الذئب العادي مثلًا).

الحيوانات الثديية الموجودة حول العالم بصفة عامة (الذئب العادي مثلًا) حيوانات ثديية «مشـيمية» أي حيوانات تعتمد فـي تغذية جنينها (أثناء وجوده في رحم الأم) على «حبل سُـري» (شـريان تغذية) تقوم الأم من خلاله بتغذية جنينها حتى ولادته طفلًا مكتمل النمو.

الحيوانات الثديية «المارزوبالية» (مثل الذئب التسماني والكنغر) حيوانات «لا مشيمية»، حيوانات تقوم بولادة جنينها في مرحلة مبكرة قبل «اكتمال» نموه! حيوانات تقوم بعد ذلك باحتضانه داخل «كيس» موجود في بطنها يقوم بدور الرحم لتقوم من خلاله بتغذيته بطريقة مختلفة حتى اكتمال نموه!

العالم الدارويني الألماني المهم إرنست ماير - عضو الفريق الدارويني المسئول عن تصحيح النظرية الداروينية في عام 1937 - يعدّد بنفسه أيضًا هذه الحيوانات المكتشفة: «أهم هذه الحالات... الذئب الشمالي مقارنة بالذئب التسماني، الخلد المشيمي (حيوان يعيش تحت الأرض) مقارنة بالخلد الكيسي، السنجاب الطائر مقارنة بالفلانجر الكيسي.. أي عالم حيوانات على درجة من العلم يمكن أن يملأ صفحات من أمثلة التطور اللا تفرعي» (Mayr 2001, 245-248).

المذهل هو أن الذئب التسماني يشبه الذئب العادي كثيرًا في ملامحه وهيئته الخارجية. نشأتهما بصورة مستقلة تمامًا عن بعضهما - في ظل غياب أي أصل مشترك بينهما - لا يقلب فقط النظرية الداروينية رأسًا على عقب (وإن حاول الداروينيون تبرير ذلك بطريقة أو بأخرى)، بل يؤسس مبدأ نشأة كائنات متشابهة بصور مستقلة عن بعضها كحقيقة علمية!

«التطور المتوازي» Parallel Evolution شبيه جدًّا «بالتطور المستقل» فيما عدا أنه يتم على مستويات وتفاصيل أقل وضوحًا عن الأمثلة السابقة. تطابق أرجل الليتوبترن Litoptern المنقرض (كائن يشبه الحصان كما تشبه القردة الإنسان) مع أرجل الحصان - رغم نشأتهما بطرق متوازية مستقلة - هو أحد أمثلة هذا النوع من التطور.

«التطور التشكيلي» Mosaic Evolution مصطلح مستخدم للإشارة إلى ظاهرة تكوّن حيوان ما من عضو استثنائي (أو أكثر) يمنع تصنيفه بصورة قاطعة

في فرع الكائنات الشبيهة به في الشجرة الداروينية (طبقًا لمبدأ ومعايير «التفرع» الدارويني) رغم التشابه الشديد (في الملامح والأعضاء الداخلية) بصفة عامة بينه وبين الحيوانات الشبيهة به! الديناصور الأركيوبتركس Archaeopetrix الذي تحدثنا عنه هو أحد الأمثلة القادرة على توضيح هذا النوع من التطور.

اكتشاف الأركيوبتركس كان قد تزامن مع اكتشاف نوع آخر من الديناصورات المنقرضة الشبيهة به في الحجم أطلق عليه اسم الكومبسونياسوس Compsognathus. مقارنة أعضائهما (مقارنة قام بها العالم البريطاني توماس هكسلي صديق داروين) كشفت عن وجود تشابه قوي بين أعضائهما جميعًا فيما عدا «الريش» (وبعض تفاصيل الأطراف) غير الموجود أصلًا عند الديناصور الكومبسونياسوس!

كان من المفترض أن يؤدي التشابه القوي بين شكل وأعضاء هذين الديناصورين (شبيه بتشابه الإنسان والقرد) -طبقًا لمبدأ «التطور التفرعي»- إلى تصنيفهما جنبًا إلى جنب في فرع واحد في الشجرة الداروينية أو تصنيف أحدهما كتطور للآخر (بالمفهوم الدارويني)، إلا أن تكوّن الأركيوبتركس من عضو غير موجود عند الكومبسونياسوس (الريش) حال دون أي من ذلك مشكلًا تحديًا آخر لمبادئ التصنيف الدارويني.

ظاهرة «التطور التشكيلي» ظاهرة تمنع تصنيف بعض الكائنات المتشابهة - في فرع مشترك - مسقطة بذلك نموذج «التطور التفرعي» على مستوى هذه الكائنات الشديدة التشابه، وهي في ذلك نوع دقيق جدًّا من «التطور المستقل»، دليل على إمكانة نشأة الأعضاء عند الكائنات المتشابهة بطرق ومعدلات مستقلة عن بعضها!

ظاهرة «التطور التشكيلي» ظاهرة تهمنا كثيرًا لما سيكون لها من أثر بالغ عند حديثنا عن النظرية الداروينية المعنية بتصنيف الإنسان على شجرة التطور

الداروينية كامتداد لأشباه القردة، فالإنسان نفسه -كما سنرى- كائن يتكون من أعضاء «تشكيلية» تحول إلى يومنا هذا دون إمكانية تصنيفه بصورة علمية قاطعة في أي من أفرع أشباه القردة (وهي أفرع عديدة كما سنرى) طبقًا لمعايير التصنيف الداروينية نفسها!

اكتشاف تكون الإنسان من أعضاء «تشكيلية» مقارنة بأشباهه من القردة وغيرهم هو أحد أهم الحقائق العلمية التي ظهرت فجأة – قبل نهاية القرن العشرين بسنوات قليلة جدًّا – لتقلب رأسًا على عقب عملية التصنيف الدارويني الخاصة بالإنسان كما سنرى.

أمثلة «التطور المستقل» التي عرضناها – بما في ذلك أجنحة الحيوانات الطائرة وأنواع العيون المختلفة والذئب التسماني مقارنة بالذئب العادي وبقية أنواع الثدييات المارزوبالية مقارنة بالثدييات المشيمية – إضافة إلى «التطور المتوازي» و«التطور التشكيلي»- حقائق علمية من المفترض أن تسقط الشجرة الداروينية سقوطًا تامًّا بطبيعة الحال!

العجيب بعد كل ذلك هو أن الشجرة الداروينية سقطت دون أن تسقط! ذلك أن العلماء الداروينيين يتعاملون مع جميع هذه الحقائق العلمية – المناقضة لمبدأ «التطور التفرعي» – على أنها استثناءات في هيكل هذه الشجرة!

استثناءات يحاولون تفسيرها في أحيان كثيرة اعتمادًا على مبادئ داروينية مستجدة، مبادئ شملت فيما شملت مبدأ حديثًا قائلًا إن ظاهرة «التطور المستقل» مثلًا اعتمدت على دورة متكررة شملت اختفاء بعض الأعضاء (بعد نشأتها -طبقًا لهم- بالصدفة أول مرة عند أصل مشترك قديم جدًّا) ثم ظهورها مجددًا عند كائنات مختلفة (لا يوجد بينها أصل مشترك بصورة مباشرة) في مراحل أكثر تقدمًا!

كل ذلـك وكأن «تكرار» عملية الاختفاء والظهـور هذه لا يعتبر دليلًا على وجود «نظام باطن» مسئول عن هذا «التكرار»!

أضـف إلى ذلـك أن الأغلبيـة العظمى من العلمـاء الداروينييـن يتعاملون اليوم مع جميع هذه الحقائق العلمية – ظواهر «التطور اللا تفرعي» – بمفهوم أكاديمـي متخصـص لا يضع هـذه الظواهر فـي معناها الأشـمل النافي لمبدأ الصدفة!

إلا أن الحقيقـة الباقيـة فـي جميع الأحوال (وبغض النظـر عن أي محاولة داروينية لتفسـير هـذه الحقائق العلمية بما يتوافق مع نظريتهم) هو أن سـقوط مبـدأ «التطور التفرعي» بالمفهوم الدارويني – كآلية «وحيدة مطلقة» مسـئولة عـن تطـور الحياة بصـورة حصرية شـاملة – هو في الواقع سـقوط تـام لمبدأ «الصدفة» كآلية مسئول عن إنشاء الكائنات!

دع جانبًا الحقيقة العلمية (المكتشفة في النصف الثاني من القرن العشرين) أن تطـور الحيـاة اعتمـد علـى نوعيـن مختلفين مـن الخلية – الخليـة الأركية والخليـة البكتيرية – كما رأينا! هل توجد شـجرة لها سـاقان؟ كيف يمكن أن تكون هناك «شـجرة» داروينية والكائنات الحية لم «تتفرع» من نوع واحد من أنواع الخلية وإنما نشأت من نوعين «مستقلين» أصلًا؟

شـجرة «التطـور التفرعـي» الداروينية خيال علمـي لم يعبّـر إلا عن عجز داروين عن اكتشاف الآلية المسئولة حقًّا عن نشأة الكائنات الحية، تلك الآلية التـي سيكشـف اكتشـافها (قبل نهاية القرن العشـرين) عن مفاجـأة كبرى كما سنرى!

القرد أصل الإنسان !

لم يكن حديث العلماء الداروينيين عن الشبه بين القرد والإنسان بالحديث الجديد على العالم. علماء العرب والفرس كانوا قد سبقوا العلماء الداروينيين في دراسة هذا الشبه بأكثر من ألف عام! فها هو مثلًا الكتبي صاحب كتاب «فوات الوفيات» والمتوفى في دمشق عام 764 يقول في حديثه عن طبيعة القرد: «إن هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركّب من إنسان وبهيمة، وهو من تدرج الطبيعة من البهيمة إلى الإنسان».

كذلك لم يكن المبدأ الدارويني – أن الإنسان نشأ تطورًا عن كائن بدائي من أشباه القردة – بالفكرة الجديدة أصلًا على أوروبا عند ظهورها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر! أول من اقترح الفكرة – أن الإنسان كان في الأصل قردًا (أو ما شابه) – هو على ما يبدو تاريخيًّا الفيلسوف الإيطالي لوتشيليو فانيني (1584–1619) في بداية القرن السابع عشر، قبل أن يدفع حياته ثمنًا لها، ذلك أن الكنيسة قامت بإحراقه حيًّا تجريمًا له وتحريمًا لفكره!

هكذا – وكأن هناك ثأرًا بين الفكرة والكنيسة – عادت الفكرة من جديد وتجسّدت في ثوب علمي وحلّت مجددًا على أوروبا وعلى الكنيسة بعد ذلك بقرنين من الزمان في ظل عصر مختلف تمامًا، عصر لم يكن ممكنًا خلاله إسكات الأفكار المعارضة للتعاليم الدينية بالقوة والتعذيب.

إنـه درسٌ آخر من دروس الزمان، درس يعلمنا أن الفكر - الذي هو أقوى مـن الحديـد بل وأقوى من تاريخ الإنسـان - لا يُفَل إلا بالفكـر، أي لا يمكن التعامل معه إلا من خلال المواجهة المنطقية العلمية الصادقة!

ظهـور النظرية الداروينية ترتب عليه رفض أغلـب العلماء والمثقفين (بل وأغلب العامة بعد ذلك) قصة خلق الإنسـان كما وردت في الكتاب المقدس وتصنيفها كأسطورة من الأساطير. وكيف لا تصنف كذلك مع قولها كما رأينا إن الربّ كان قد كوَّمَ حفنة من التراب ثم نفخ فيها لتتحول فجأة إلى كائن حي معقـد التكوين - إنسـان - يتكون فجـأة من لحم وعظم ومـخ وقلب وعينين وأعضاء وشرايين ودورة دموية تنبض بالحياة؟!

انتصار النظرية الداروينية على معتقد الكنيسـة ترتب عليه إرساء مبدأ نشأة الإنسـان - تطـورًا بطيئًـا عن كائن أقدم من أشـباه القردة - على أسـس علمية لا فلسفية كما كان الحال قبل ذلك بقرنين من الزمان! وهكذا أصبحت «نظرية القـرد أصل الإنسـان» فجأة الخيار العلمي البديل لقصـة الخلق المذكورة في الكتاب المقدس!

إلا أن نظرية «القرد أصل الإنسان» كان لابد لها من إثبات علمي مثلها مثل جميع النظريات العلمية، وهكذا انطلقت في النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر أولى البعثـات التنقيبيـة الداروينية بحثًا - تحت طبقـات الأرض - عن كائن منقرض من أشـباه القردة أصلًا لنشـوء الإنسـان، بل هكذا تحولت هذه البعثات التنقيبية إلى فرع جديد من فروع علم التطور الدارويني، علم دارويني أطلـق عليه لقب علـم الباليو-أنثروبولوجـي Paleoanthropology أي علم حفريات الإنسان.

أفضل ما في هذه القصة الداروينية التنقيبية عن أصل الإنسـان بين الأنواع العديدة من أشباه القردة المنقرضين كان - لحسن الحظ - هو ظاهرة التنافس

بيـن الفرق التنقيبية؛ ذلك أن هذا التنافس هو تحديدًا ما دفع كل فريق من هذه الفـرق الداروينيـة إلى تفنيد ادعـاءات الفـرق الأخرى عند إعلانها اكتشـاف «أصل الإنسـان من أشـباه القردة» كما سـنرى، بل إن هذا التفنيـد هو أيضًا ما سيكشـف لنا عن مفاجآت وحقائق علمية غيـر متوقعة تقلِب نظرية القرد هذه رأسًـا على عقب؛ فلولا دفع الباحثين بعضهم بعضًا لفسـد العلم ولما اكتشفنا الحقيقة!

انطلاق عمليات البحث عن أصل للإنسـان – بالمفهوم الدارويني – أدى أول مـا أدى إلـى اسـتدعاء اكتشـاف كان قد تم قبـل ذلك دون قصـد في عام 1856 (قبل ظهور نظرية داروين بثلاث سـنوات) عندما عثر على كائن شـديد الشـبه بالإنسـان الآدمي تحت الثلج فـي منطقة «النياندرثـال» الواقعة بجانب مدينة دسـلدورف فـي ألمانيا، كائن منقرض تقترب اسـتقامة عمـوده الفقري من اسـتقامة العمود الفقري للإنسـان بصورة كبيرة مما يجعله أقرب للإنسان الآدمي من القردة وأشباهها!

بل إن هذا التشـابه القوي جدًّا بين الإنسان الآدمي من جانب وهذا الكائن المكتشـف فـي ثلوج النياندرثـال من جانب آخر هـو تحديدًا ما دفـع العلماء حينئذٍ لتسـميته «إنسـان النياندرثال» Homo Neanderthalis! تشـابه شديد دفـع العلمـاء الداروينييـن أيضًا إلى اسـتحداث «مسـتوى» جديد في شـجرة التطور الداروينية، مسـتوى معني بتصنيف الكائنات شـديدة الشـبه بالإنسـان الآدمي، أطلق عليه لقب الكائنات من «طراز الإنسان»!

«إنسان النياندرثال» هو أول كائن مكتشف في التاريخ من «طراز الإنسان»، وهو شـديد الشـبه بالإنسـان الآدمي لدرجـة لا يمكن تخيلها، بـل هو الكائن الأكثر شـبهًا بالإنسان الآدمي بين جميع الكائنات التي سيتم العثور عليها بعد ذلك وإلى يومنا هذا. كائن تقترب ملامح وجهه كثيرًا من ملامح وجه الإنسان

الآدمي، كما تقترب تفاصيل هيكله العظمي كثيرًا من تفاصيل الهيكل العظمي للإنسان الآدمي!

«إنسان النياندرثال» هو أيضًا ذلك الكائن الذي ظلَّ كثيرٌ من العلماء الداروينيين على قناعة - أكثر من مائة عام - إنه ذلك الأصل (المباشر) الذي تطوّر ليصبح في النهاية «الإنسان الآدمي» بعد مئات الآلاف من السنين، ذلك إلى أن ظهر «علم الجينات المقارن» (علم مقارنة جينات الكائنات) في السنوات الأخيرة من تسعينيات القرن العشرين ليقول الكلمة الأخيرة في هذا الشأن.

«علم الجينات المقارن» علم حديث دقيق لا يحتمل الخطأ، علم يعتمد - على عكس النظرية الداروينية - على دقة شبيهة بدقة علم الرياضيات في نتائجه، علم يشمل تحليل ومقارنة تكوين وصلات الحمض النووي الديوكسير DNA المكوّنة للجينات، علم لا تحتمل نتائجه أي تأويل تمامًا كما لا تحتمل نتائج المعادلات الرياضية أي تأويل!

مقارنة جينات «إنسان النياندرثال» بجينات «الإنسان الآدمي» أسقطت المعتقد الدارويني أن «إنسان النياندرثال» هو أصل الإنسان الآدمي كما اعتقد فريق منهم أكثر من مائة عام.

إلا أن «إنسان النياندرثال» لم يكن المرشح الوحيد أصلًا للإنسان.

فرع الشجرة الداروينية المعني بتصنيف الكائنات من «طراز الإنسان» يشمل اليوم ما لا يقل عن خمسة كائنات أخرى شديدة الشبه بالإنسان كان الباحثون الداروينيون قد اكتشفوها تدريجيًّا - في آسيا وإفريقيا وأوروبا - خلال الفترة الممتدة ما بين نهاية القرن التاسع عشر ونهاية القرن العشرين. كائنات شملت فيما شملت إنسان الوقوف Homo Erectus،

إنسان فلورنسيس Homo Florensis، إنسان هايدلبرجنسيس Homo Heidelbergensis، إنسان أنتسسور Homo Antecessor، وإنسان رودولفنسيس Homo Rudolfensis.

جميع الكائنات من «طراز الإنسان» كائنات يقترب معدل استقامة عمودها الفقري كثيرًا من معدل استقامة العمود الفقري للإنسان الآدمي، كائنات كانت قد عاشت خلال حقب مختلفة في الماضي قبل أن ينقرض أقدمها قبل مئات الآلاف من السنين وقبل أن ينقرض آخرها قبل حوالي ثمانية عشر ألف عام فقط؛ أي بعد نشأة الإنسان الآدمي بكثير كما سنرى!

آخر الكائنات المنقرضة من طراز الإنسان هو «إنسان الوقوف» ذلك الكائن الذي سمي كذلك إشارة إلى اقتراب معدل استقامة عموده الفقري كثيرًا من معدل استقامة العمود الفقري للإنسان الآدمي. «إنسان الوقوف» هو أيضًا ذلك الكائن الذي عثر عليه لأول مرة في قارة آسيا في عشرينيات القرن العشرين قبل أن يعثر على أعداد منه بعد ذلك في قارة إفريقيا في النصف الثاني من القرن العشرين.

التنازع بين الفرق الداروينية حول الأصل «المباشر» لانحدار الإنسان الآدمي يشمل إلى يومنا هذا «إنسان الوقوف»، إضافة إلى «إنسان هايدلبرج» و«إنسان أنتسسور»، هذا وإن كان «إنسان الوقوف» أكثرها احتمالًا (طبقًا لمعتقدات الداروينيين)، بغض النظر عن أن «إنسان النياندرثال» المستبعد (بعد مقارنة الجينات) أقرب شبهًا إلى الإنسان الآدمي عن جميع هذه الكائنات!

مقارنة جينات «إنسان الوقوف» (وبقية هذه الكائنات) بجينات الإنسان الآدمي شيء غير متاح بما إن جيناته تحلّلت فور موته؛ ذلك أن جزيئات

الحمض النووي الديوكسير DNA المكوّنة للجينات تتحلل وتفسد سريعًا بعد موت الكائن الحي إذا لم يتم حفظها في الثلج كما حدث بصورة طبيعية مع «إنسان النياندرثال» المتوفى والمحفوظ في ثلوج جبال شمال ألمانيا عشرات الآلاف من السنين.

لا توجد هناك للأسف أي وسيلة علمية دقيقة – دقة مقارنة الجينات – لاختبار مقترح الفريق الدارويني القائل بأن «إنسان الوقوف» هو الأصل الذي تطوّرت ذريته لتصبح في النهاية الإنسان الآدمي. الفصل في هذا الافتراض – بل وفي قصة تطور الإنسان عن أشباه القردة بصفة عامة – يمكن تحقيقه من اتجاه علمي آخر، اتجاه يدعونا أولًا إلى النظر في قصة أصل «إنسان الوقوف» (المرشح أصلًا للإنسان) قبل العودة إلى النظر في قصة «أصل الإنسان» والبت فيها.

جميع النظريات الداروينية المتنافسة – حول أصل الإنسان الآدمي بين الكائنات المختلفة من «طراز الإنسان» مثل «إنسان الوقوف» – تستلزم بدورها وجود أصل لكل كائن من هذه الكائنات حتى تتحقق أدنى مقومات إثبات منظومة التفرع عودة في الزمن إلى الماضي: إنه ببساطة ذلك الرسم الدارويني الشهير الذي يصوّر قصة تطور الإنسان الآدمي من خلال تتابع أربعة كائنات متدرجة الاستقامة من الأكثر انحناءً والأقل استقامة للعمود الفقري (طراز القردة) إلى الأكثر ثم الأكثر استقامة وقوفًا (طراز الإنسان)، انتهاءً بالإنسان الآدمي.

هذا الرسم لا يعني بالضرورة كائنات بعينها، بل هو تصوير للنظرية الداروينية، تصوير للمبدأ الدارويني أن كائنًا ما من «طراز القرد» تطور واستقام تدريجيًّا مدة ملايين السنين حتى أصبح كائنًا من «طراز الإنسان» قبل أن يتطور مجددًا مئات آلاف أخرى من السنين ليصبح بذلك إنسانًا آدميًّا.

هذا الكائن المنشـود من «طراز القردة» هو سبب انطلاق عمليات التنقيب فـي بدايـة الأمر، وهـو تحديدًا ما ظـل الداروينيـون يبحثون عنه طـوال القرن العشـرين (اكتشـاف الكائنـات من «طراز الإنسـان» جاء في هـذه الأثناء دون تخطيط مسـبق). عثرت البعثات التنقيبية المتعددة في قارة آسـيا أولًا في بداية القرن العشـرين ثم في إفريقيا بعد ذلك حيث انتقل البحث منذ منتصف القرن العشـرين (خصوصًا فـي كينيا وإثيوبيا وجنـوب إفريقيا) علـى هياكل عظمية مختلفـة لأنـواع عديـدة متباينة مـن الكائنـات المنقرضـة من «طـراز القردة» (متباينة تباين القرد مقارنة بالشمبانزي مثلًا).

الفـارق بيـن أنـواع الكائنـات المكتشـفة من «طـراز القـردة» – تمامًا مثل الفارق بين أنواع الكائنات المكتشـفة من «طراز الإنسـان» – شمل فيما شمل على سبيل المثال –وليس الحصر– اختلافات تشريحية مثل حجم الجمجمة، حجـم غرفة المخ داخـل الجمجمة، معدل اسـتقامة العمـود الفقري، صلابة العظام، هندسـة اليدين والأصابع، ونوعية المواد المكونة للأسـنان وحجمها وصلابتها.

قـام الداروينيـون بتقسـيم هـذه الكائنـات المختلفـة مـن «طـراز القردة» و«طراز الإنسان» في عدة أفرع مختلفة ثانوية صغيرة – طبقًا للتشابه التكويني والتشريحي بينها – مقترحين بذلك ما لا يقل عن أربعة أفرع مختلفة لتصنيف هذه الكائنات وتطورها عن أصل مشـترك بينها جميعًـا (افتراضي)، واضعين هذا الأصل وبالتالي هذه الأفرع الأربعة (المنبثقة عنه) على قمة شجرة التطور الداروينية، محاولين تصنيف الإنسـان الآدمي على قمة أحدها، وبالتالي أيضًا أعلى قمة شجرة التطور الداروينية.

كل فرع من الأفرع الثانوية الأربعة – المنبثقين بدورهم عن أصل مشـترك بينهم (من أسـلاف أشـباه القردة) – يبدأ بكائن محدّد من الكائنات المنقرضة

المكتشفة من «طراز القردة»؛ ليتبعه بعد ذلك كائن محدد (أو أكثر) من الكائنات المكتشفة من «طراز الإنسان».

«إنسان الوقوف» مثلًا - المرشح الدارويني الأول أصلًا مباشرًا للإنسان - مصنّف في فرع محدد من هذه الأفرع الأربعة كتطور محدد لكائن منقرض من نوع محدد من الكائنات من «طراز القردة» يعرف باسم «الأسترالو بيثكوس» Australopithecous.

الداروينيون قاموا بعد ذلك بتقديم هذه التصنيف للعالم كدليل علمي قاطع على صدق النظرية الداروينية الخاصة بانحدار الإنسان عن أشباه القردة بصفة خاصة، مستشهدين بالدلائل التشريحية كأصدق برهان على صدق نظريتهم. إلا أن اختلاف وتنازع الفرق التنقيبية الداروينية فيما بينهم - أثناء تقديم كل منهم الدلائل التشريحية المؤكدة فشل الفريق المنافس في اكتشاف «أصل الإنسان"- كشف عن مفاجآت علمية خطيرة قلبت نظرية «القرد» الداروينية برمَّتِها رأسًا على عقب!

لنبدأ باكتشافات الفريق التنقيبي الدارويني الأول، الفريق المؤكد انحدار الإنسان عن «إنسان الوقوف» المنحدر بدوره (طبقًا لهذا الفريق) عن «الأسترالو بيثكوس» بمعنى القرد الجنوبي.

«الأسترالو بيثكوس» كائن من أشباه القردة تم اكتشاف أجزاء من جمجمته في عام 1924 في إفريقيا على يد الباحث الأسترالي ريموند دارت (1893-1988) أحد أهم الباحثين في هذا المجال. إنه أيضا ذلك الكائن الذي تم اكتشافه مجددًا - كهيكل عظمي كامل وسليم بل وبأسنانه - بعد ذلك بنصف قرن من الزمان في إثيوبيا في الرابع والعشرين من نوفمبر عام 1974 على يد الباحث الأمريكي الشاب دون يوهانسون وزميله توم جراي.

«الأسترالو بيثكوس» كائن منقرض من «طراز القردة» كان قد عاش قبل حوالي أربعة ملايين عام قبل أن ينقرض نوعه منذ حوالي مليوني عام، كائن يتراوح طوله بين المتر والمتر ونصف المتر، ويتراوح وزنه من ثلاثين إلى خمسة وأربعين كيلوجرامًا، وهو أيضًا ذلك الكائن الذي أطلق عليه الإعلام العالمي لقب «لوسي» أثناء تقديمه للعالم كأصل للإنسان (الهيكل العظمي المكتشف في عام 1974 هيكل أنثى).

«لوسي» هي الكائن المنقرض الأشهر في التاريخ، ذلك أنّها ظلّت متربعة على عرش التطور الدارويني – حتى نهاية القرن العشرين – على أنها أصل «إنسان الوقوف» المفترض بدوره أصلًا للإنسان الآدمي، الكائن المفترض أصل الإنسان من بين أشباه القردة، الكائن المفترض تطوّره أكثر من ثلاثة ملايين عام ليتحول في النهاية إلى إنسان!

إلا أن الأمور لم تستتب للوسي – كأصل دارويني للإنسان – أكثر من ربع قرن من الزمان، ففي شهر أغسطس من عام 1999 اكتشف باحث دارويني آخر يدعى جوستوس إروس كائن آخر من الكائنات من «طراز القردة» (في شمال كينيا) قدمه للعالم على أنه الأصل الحقيقي للإنسان.. إنه ذلك الكائن المنقرض الذي كان قد عاش في قارة إفريقيا قبل حوالي ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف عام والذي أطلق عليه لقب «الثروبس الكيني» Kenyanthropous، والذي يبلغ وزنه ما بين الثلاثين والخمسة وأربعين كيلوجرامًا ويتراوح طوله ما بين المتر والمتر ونصف المتر (تمامًا مثل الأسترالو بيثكوس).

الخلاف والتناظر بين الفريقين الداروينيين (والذي كان قد اتسع ليشمل علماء داروينيين آخرين) تزامن مع تقدم علمي كبير في أجهزة البحث العلمي المتخصصة. تقدم نتج عنه مفاجآت علمية جاءت فجأة لتأخذ القصة

لمستويات لم تكن لتخطر على بال أيٍ من الفريقين – بل لم تكن لتخطر على بال داروين وجميع الداروينيين بصفة عامة – كما سنرى!

دع جانبًا أن مجرد تناظرهما هو في الحقيقة إثبات أن الاكتشافات العلمية الداروينيـة المعنيـة بأصل الإنسـان لم تكن أبدًا عملًا من أعمال الاكتشـافات العلميـة الدقيقـة التـي لا تقبـل التشـكيك كما هو الحـال مثلًا مع اكتشـافات الفيزيـاء والكيميـاء اللتين تعتمـدان على دقة المعـادلات الرياضية! ولـم تكن أبـدًا حقيقة علميـة مؤكدة كما يُرَوِّج الإعلام الغربي وكما يظنّ كثيرٌ من الناس (خصوصًا الأوروبيين والأمريكان) إلى يومنا هذا!

تقدم أجهزة البحث العلمي ما بين منتصف القرن التاسـع عشـر من جانب (زمن داروين) والسـنوات الأخيرة من القرن العشـرين من جانب آخر كان قد شـكّل ثـورة علمية متخصصة شـبيهة بثورة وسـائل النقل والاتصـال في تلك الفترة: منتصف القرن التاسـع عشر (زمن داروين) كان عصر السفينة البخارية والتلغراف.. نهاية القرن العشرين كانت عصر سفينة الفضاء والإنترنت!

ثورة تقنيات مقارنة التكوين التشـريحي للكائنات الحية شـبيه بهذا الفارق مـا بيـن السـفينة البخاريـة وسـفينة الفضـاء! كان زمـن داروين قـد اعتمد في المقام الأول على أسـاليب المقارنة التشريحية العينية القديمة (مقارنة تشريح الكائنات بالعين المجردة)، واعتمدت نهاية القرن العشرين على أجهزة حديثة شملت الميكروسكوب الإلكتروني وأجهزة كمبيوتر متخصصة!

كشـفت تقنيات البحث العلمي الحديثة كما سـنرى تناقضًا شـديدًا ما بين «الترتيـب» المؤسـس لأفـرع الكائنات من «طـراز القردة» في شـجرة التطور الداروينيـة من جانب و«التكوين» الفعلي «للوسـي» من جانـب آخر! تناقضًا يجعل من لوسـي «كائنًا تشكيليًا» (بالمفهوم الدارويني)، أي كائن يتحدى أي محاولة لتصنيفه طبقًا «لمعايير» التصنيف الداروينية ذاتها!

ذلك أن لوسـي (طبقًا لمعايير التصنيف الداروينيـة) كائن قديم من «طراز القـردة» إذا مـا وضعنـا في الاعتبار شـكل وهندسـة القفص الصـدري، طول الذراعين، الأصابع الطويلة المسـتديرة، شـكل وهندسـة الجمجمة، وكذلك حجم المخ.

إلا أن لوسـي (طبقًـا للمعاييـر الداروينية نفسـها) كائن حديـث من «طراز الإنسان» إذا ما وضعنا في الاعتبار الأرجل التي تمكّنها من المشي «مستقيمة» على القدمين فقط بدلًا من المشـي المتأرجح على القدمين واليدين معًا كما هو الحال مع الكائنات من «طراز القردة»، كذلك إذا ما وضعنا في الاعتبار شكل وهندسـة العمـود الفقري، حجم وهندسـة منطقة الحـوض، وكذلك الإصبع الكبير للقدم (ذي شكل خاص جدًّا عن الإنسان).

لوسـي كائن «تشـكيلي» يتكون من أعضاء «قديمة» لا يمكن بأي حال من الأحوال (طبقًا للمعايير الداروينية!) وجودها عند الكائنات الحديثة من «طراز الإنسـان» إضافـة إلـى أعضـاء «حديثة» لا يمكن بـأي حال من الأحـوال طبقًا للمعايير الداروينية نفسها وجودها عند الكائنات القديمة من «طراز القردة»!

كل محاولـة لتصنيـف لوسـي داروينيًّـا وكل محاولـة للتوفيـق بينها وبين الكائنات الشـبيهة بها – بطريقة «تفرعية» كما تحتّم النظرية الداروينية – باءت بالفشل! فجأة تحولت لوسي إلى مشكلة داروينية أزلية! فجأة تحولت لوسي من شـاهد إثبات للنظرية الداروينية إلى شـاهد نفي لها بعد أن أصبحت مثالًا «للتطور التشـكيلي» المسـقط لمبدأ «التطور التفرعي» القائل بتفرع الكائنات من «طراز الإنسان» عن الكائنات من «طراز القردة»!

لـم يكن حـال «الثروبوس الكينـي» – المنافـس الآخر علـى لقب «أصل الإنسـان» – أفضل من حال «لوسـي». كشـفت المقارنات التشـريحية عن أن

«الثروبـوس الكيني» يتكـون أيضًا من مزيج غير متوقع مـن الأعضاء، أعضاء كانت شـجرة التطور الداروينيـة قد حَتَّمَت تصنيفها فـي «ثلاثة» أفرع مختلفة من الأفرع التي كان الداروينيون قد أنشأوها لتصنيف الاختلاف بين الكائنات مـن «طراز القـردة».. هذه الأفـرع الثلاثة هي: فـرع الأسـترالوبيثكوس، فرع البارانثروبوس، وفرع الأرديبيثكوس.

«الثروبـوس الكينـي» كائـن يتكوّن من «تشـكيلة» من أعضاء لـم يكن من الجائـز داروينيًّا وجودها معًا – في كائن واحـد – لدرجة أن العالم الدارويني الأمريكـي دانيـال ليبرمان مـن جامعة جورج واشـنطن الأمريكيـة لم يصدق نفسـه في بادئ الأمر كما ذكر في تصريحه الصادر بعد إبلاغه بالنتائج العلمية والذي قال فيه مؤكدًا: «لم يكن أحد ليحلم بمثل هذا المزيج من الخصائص» (Palmer, 111).

كل محاولـة لتصنيـف «الثروبـوس الكينـي» فـي أي فرع من هـذه الأفرع الأربعـة ترتـب عليهـا «انهيار» الأفـرع الأخرى تلقائيًّا بسـبب تناقـض معايير التصنيـف! ذلك لدرجة أن العالـم الأمريكي دانيال ليبرمـان اقترح جمع هذه الأفرع الثلاثة معًا في فرع واحد – مؤقتًا – حتى يتم إيجاد حل لهذه المشـكلة الداروينية العظمى، إلا أن هذا الخيار كان يعني بدوره تحوّل هذا الفرع الشامل (بما في ذلك التصنيف الدارويني للإنسان) إلى سلة مهملات أُلقي فيها جميع المشكلات (Palmer, 112).

حتـى ذلك لم يكن ليحل المشـكلة! تطابق بعـض خصائص جمجمة هذا الكائن مع خصائص جمجمة «إنسـان رودولفنسـيس» الأحدث كثيرًا (مليون ونصـف المليـون من الأعوام تفصـل بينهما) كان لابد أن يـؤدي إلى «انهيار» الترتيب الزمني المنظم لتسلسل نشأة «طراز الإنسان» كما أسّسه الداروينيون!

تجنبًا لكل ذلك، قام الداروينيون باستحداث فرع جديد في شجرة التطور الداروينية وضعوا فيه «الثروبس الكيني» هذا!

أما الفضيحة الداروينية – غير المتداولة إعلاميًّا – هو أن الداروينيين قاموا (بعد اضطرارهم إلى تغيير معايير التصنيف) بإلغاء تصنيف «إنسان رودولفنسيس» ككائن من «طراز الإنسان» أصلا، ليعيدوا تصنيفه ككائن من «طراز القردة» جنبًا إلى جنب مع «الثروبوس الكيني»! فضيحة بما إنها إقرار دارويني تاريخي بأن قواعدهم المؤسسة لمعايير تصنيفهم طراز الإنسان – تفرعًا عن أشباه القردة – ما هي إلا عمل تجريبي خاطئ وليس عِلمًا دقيقًا كما يظن المثقفون والعامة من أنصار الداروينية المضَلَّلون إعلاميًّا!

هذه هي قصة الكائنين – من «طراز القردة» – المتنافسين داروينيًّا أصلًا للإنسان! هذه هي قصة «التطوّر التشكيلي» المكتشف على هذا المستوى أيضًا والذي يضع مبدأ «التطور الدارويني التفرعي» للكائنات المرشحة أصلًا للإنسان رأسًا على عقب؛ فالحقيقة لا تعارض الحقيقة كما أصر العالم الإيطالي الشجاع جاليليو جاليلي.

قد يكتشف الداروينيون – في المستقل القريب أو البعيد – كائنًا منقرضًا آخر لا يظهر القدر نفسه من «الأعضاء التشكيلية» المناقضة لمبادئ التفرع كما أسسها داروين (وإن حاولوا تفسير هذا التناقض)، وقد يصنفونه بتلقائيتهم الداروينية المعتادة هو الآخر أصلًا لنشأة الإنسان، إلا أن هذا لن يغير في الواقع الجديد شيئًا، فمجرد ثبوت وجود أعضاء «تشكيلية» عند أي كائن من الكائنات من «طراز القردة» يعني تلقائيًّا – حتمًا لا محالة – وجود نظام باطن (خالق باطن) مسئول عن تكرار نشأة هذا التشابه «التشكيلي» بين هذه الكائنات المستقلة عن بعضها كما رأينا!

لـم تنتـهِ القصـة بعـد. فـي خريف عـام 2001 قـام فريـق دولي مـن علماء الباليو-أنثروبولوجي (علم حفريات الإنسان) يقوده العالم كريستوفر دين من جامعة لندن بمقارنة علمية متقدمة التقنيات شـملت «الإنسـان الآدمي» نفسـه من جانب وبقية الكائنات المرشـحة أصلاً له من جانب آخر، مقارنة شـملت الكائنات من «طراز الإنسان» - كإنسان الوقوف وغيره - إضافة إلى الكائنات من «طراز القردة» كلوسي وغيرها.

اعتمـدت الدراسـة علـى مقارنـة «تكوين الأسـنان» بعد أن كشـف التقدم العلمي المذهل في الآونة الأخيرة أن طبقات أسنان كل نوع من أنواع الكائنات تحتـوي على تفاصيل خاصة بنشـأة نوع هـذا الكائن تحديـدًا، تفاصيل ترتبط بأسـلوب تراكـم مادة «الإنامـل» المكوّنة لطبقات الأسـنان وتفاصيل أخرى! ذلك أن دراسة الطبقات الداخلية المكوّنة لأسنان كل كائن من الكائنات - مع تكبيرها تحت الميكروسكوب الإلكتروني بصورة مذهلة - تُمَكِّن العلماء من الحصول على ثلاث معلومات مهمة جدًّا: المعلومة الأولى هي نوعية المواد المكوّنة لأسنان هذا الكائن تحديدًا، المعلومة الثانية هي تفاصيل وتاريخ نشأة أسـنان هذا الكائن، المعلومة الثالثة هي حجمهـا ومقدار صلابتها. معلومات تكوينيـة دقيقة تمَكِّن العلمـاء من التعرف على التشـابه أو الاختلاف بين هذه الكائنـات؛ لتثبت أو تنفـي بالتالي التواصـل التفرعي بين الإنسـان من جانب وكل من هذه الكائنات من جانب آخر.

نتيجة الدراسـة كشـفت عن «اختلاف تكويني» بين أسنان الإنسان الآدمي من جانب وأسـنان جميع الكائنات الأخرى من جانب آخر، اختلاف تكويني يناقـض محـاولات الربـط بينه وبيـن أي كائن من هـذه الكائنـات (Palmer, 42). بـل أكثر من ذلك، أثبتت الدراسـة - كما أشـار العالم الإيطالي جاكوبو موجي - أن تكوين الأسـنان يدل على أن الإنسان الحديث (الإنسان الآدمي)

«.. نشـأ بطريقـة تشـكيلية.. خلال فتـرة زمنية مختلفـة متأخرة عـن تلك التي نشـأت خلالها أعضـاء الكائنات المشـابهة لـه» (Palme, 42)؛ أي إن طبيعة تكوين أسنان الإنسان الآدمي تحول دون إمكانية تصنيفه داروينيًّا كامتداد لأي من الكائنات المقترحة أصل له!

ثبوت «التطور التشـكيلي» عند الإنسـان والكائنات الشبيهة به يقلب رأسًا على عقب أي حديث عن نشأته بالصدفة، فالمبدأ العلمي – كما رأينا – هو أن «التطور التشـكيلي» نوع دقيق من أنواع «التطور المسـتقل» الدال على وجود «نظام» منشـأ لعملية «تكرار» نشـأة الأعضاء المتشـابهة عنـد الكائنات بصور مستقلة عن بعضها!

العالـم السـويدي سـفانتو بابو – رئيـس قسـم الجينات في معهـد ماكس بلانـك الألمانـي لأبحـاث أصـل الإنسـان – يقـر بذلـك فـي كتابـه «إنسـان النياندرثـال» الصـادر فـي مطلع القرن الحادي والعشـرين، مؤكـدًا أن تكوين الإنسان (التشكيلي بالمفهوم الدارويني) يدل على اعتماد نشأته واعتماد نشأة الكائنات جميعًا بصورة عامة (تطور الحياة) على «نظام واضح»! تصريح نادر جدًّا أن يصدر من قبل عالم دارويني!

بالطبـع هـذا التصريـح لا يعني –بـأي حال مـن الأحوال– أن هـذا العالم الداروينـي مؤمـن بمبدأ وجـود «رب» خالق للكائنات الحيـة – بل ربما على العكـس من ذلك يعتبره دليلًا نافيًا لتعريف «الرب المنفصل عن الطبيعة» كما هـو متـوارث هناك كما رأينـا – فكلمة «الرب الخالق» لا تعني الشـيء نفسـه لجميع الناس!

الرسـم الدارويني الشهير الذي يصوّر تطور القرد واستقامة ظهره تدريجيًّا – إلى أن أصبح إنسـانًا حديثًا (إنسـانًا آدميًّا) – ما هو إلا وهم كبير! أسـطورة

مـن الماضي لا أسـاس لها من الصحة اليوم، هذا وإن أصـر الداروينيون على موقفهم المدافع عن هذه الأسطورة مع استمرار الإعلام الغربي (العالمي) في دعمهم للأسباب التي عرضناها.

التاريخ مليء بنظريات علمية بهرت العالم قرونًا من الزمن قبل أن تسقط! التاريخ مليء بنظريات دافع عنها أصحابها ودافع عنها الإعلام قبل أن تسقط! النظريـة الداروينيـة الخاصة بتطور الإنسـان عشـوائيًّا عن أشـباه القردة ما هي إلا واحـدة مـن هـذه النظريات الأسـطورية! نظريـة أسـطورية اعتمدت على دراسـة التشـابه التشـريحي «السـطحي» بين الكائنـات الحديثة أسـاس لفهم ظواهر وحقائق أعمق من ذلك بكثير!

الخطـأ الأكبر الذي وقع فيه داروين عندما وضع نظريته في منتصف القرن التاسـع عشـر هو اعتماده على نقطة «النهاية» (التشابه السطحي بين الكائنات الحية) وليس نقطة «البداية» (البج بانج وتَجَلّي «النظام» النوراني المسئول عن إنشـاء الكائنات) في دراسـة ظاهرة التطور! افتقار النظرية الداروينية للترتيب السـليم – في دراسـة الكائنات الحية – هو تحديدًا مـا دفعها للخطأ؛ ليوجب بعد ذلك تصحيحها كما سنرى.

داروين لـم يعلم نقطة البداية الحقيقية في قصة الخلق (نظرية البج بانج لم تكن قد اكتشفت بعد). داروين لـم يعلم أن النور هو ما أنشأ الذرة (التراب) ثم أنـواع المادة جميعًا ثم الخلية (النّطفة) ثـم الكائنات الحية جميعًا على أطوار من خلال آلية نورانية ينتفي عندها مبدأ الصدفة، لهذا أخطأ.

تحـدث داروين عـن دور الطبيعة في إنشـاء الكائنات، إلا أنـه لـم يعلم أن الطبيعـة ذاتهـا ما هي بدورها إلا منشـأة مـن نور كما يؤكد علـم الفيزياء (علم

الطبيعة)، داروين لم يعلم أن الطبيعة ليست إلا الظاهر من نظام باطن - خالق باطن مُتَجَلّي نورًا - منشـئًا ومنظمًا لكل ذرة وكل مادة وكل تفاعل وكل حياة وكل تطور!

والداروينيون مسـتمرون إلى يومنا هذا كما جرت العادة في دراسـة تطور الحياة - دراسـة سـطحية - في معزل عن علم الفيزياء المسـئول عن دراسـة التفاعلات النورانية المسـئولة عن إنشـاء المـادة وبالتالي الحيـاة وتطورها.. مسـتمرون في سجن أنفسـهم داخل تلك الحدود المسئولة عن تجزئة العلوم وبالتالي تجزئة الحقيقة وفقدان الرؤية الواضحة الشاملة.. لهذا يخطئون!

قصة الخلق من العدم (4)

تطور الحياة

في عام 1967 تمرّدت عالمة داروينية أمريكية تدْعى لين مارجوليس (1938–2011) على معسكرها الدارويني بعد وضعها نظرية مناقضة للنظرية الداروينية، مقدمة إثباتًا علميًّا جديدًا يكشف عن الحقيقة في قصة تطور الخلية!

في عام 1983 تم انتخاب لين مارجوليس عضوًا في الأكاديمية الأمريكية للعلوم بعد حوالي عامين من تأكيد علم الجينات صحة نظريتها، أي بعد حوالي خمسة عشر عامًا من الصراع مع الداروينيين الذين كانوا قد أصروا على رفض نظريتها طوال هذه المدة. وفي عام 2000 قام الرئيس الأمريكي بِل كلينتون بتكريم لين بمنحها وسام العلوم الأمريكي تقديرًا لإنجازاتها العلمية.

النظرية التي وضعتها لين مارجوليس هي نظرية «الإندوسمبيوسيز» Endosymbiosis، أي نظرية «التكامل الداخلي»، نظرية معنية بالكشف عن مراحل تطور الخلية البروكاريوتية (النّطفة البدائية) Prokaryotic Cell بعد نشأتها من المادة قبل حوالي ثلاثة مليارات وثمانمائة مليون عام، المراحل التي كانت قد استمرت أكثر من ملياري عام بعد ذلك ممثلة الشق الأكبر من تاريخ تطور الحياة على كوكب الأرض.

«نظرية الإندوسمبيوسيز» (التكامل الداخلي) تخبرنا أول ما تخبرنا بأن تطور الخلية البدائية – مدة ملياري عام بعد نشأتها من المادة – لم يعتمد على

أي نـوع من التطور الدقيق البطـيء Micro-Evolution (الثابت الإيقاع دومًا كعقارب السـاعة) كما ظـنّ داروين وكما حَتَّمَـت النظرية الداروينية تأسيسًـا لمبدأ تفرع الكائنات ببطء (وعشوائيًّا) عن أصل مشترك!

تطور الخلية البدائية – نشأتها خلقًا آخر – اعتمد على العكس التام من ذلك على «تفاعلها» معًا! تفاعل كيميائي حيوي (تفاعل نوراني كهرومغناطيسـي!) كان قد تم بين الخلية الأركية والخلية البكتيرية بعد نشأة كل منهما مباشرة من المادة بطريقة «مستقلة» كما رأينا!

المراحـل الأولى في قصة تطور الخلية شـملت عمليـات تلامس وتفاعل كهرومغناطيسـي (نورانـي) بيـن أنواع هـذه الخلايـا البدائية الأولـى، اتصال وتفاعـل قامـت خلاله (فـي كل مرة) إحـدى الخلايا بدور المُقَـدِّم والأخرى بدور المُتَلَقّي لوصلات من الحمض النووي الديوكسير DNA؛ لينشأ ويستمر بذلك – مدة أكثر من مليار عام – تطور تكوينها الداخلي، وبالتالي أيضًا تطور حجمها وشكلها ووظائفها.

أهـم خطوة في قصة تطور الخلية – الخطوة التي وصفها العالم الدارويني الألمانـي المهـم إرنسـت مايـر قائـلًا: «ربما أهـم حدث فـي تاريـخ الحياة» (Mayr, 48) – جـاءت بعـد أكثـر من ملياري عـام من نشـأة الخلايا الأركية والبكتيريـة (الخلايـا البروكاريوتية بنوعيها) نتيجة لتفاعـلات كيميائية حيوية (تفاعلات نورانية كهرومغناطيسـية) متقدمة نتج عنهـا نوع متقدم من الاتحاد و«التكامل» بينها، تفاعل واتحاد وتكامل شـمل في كل مرة خلية أركية واحدة وخلية بكتيرية واحدة.

عمليات اتحاد وتكامل عديدة نتج عنها – في كل مرة على حدة – امتصاص وابتـلاع نوع من أنواع الخلية الأركية نوع مـن أنواع الخلية البكتيرية؛ ليتفاعل

الاثنيـن معًا كيميائيًّا حيويًّا (نورانيًّا كهرومغناطيسـيًّا) بطريقة عجيبة (الكيمياء على مستوى الأحياء!) وبصورة شاملة، ولتتحول في كل مرة الخلية البكتيرية بموجـب هـذه التفاعـلات الحيوية إلى أعضـاء جديدة داخـل الخلية الأركية الأكبر، بل وليتحول بذلك الاثنان معًا إلى كائن من نوع جديد مختلف اختلافًا جذريًّا عن الخليتين السابقتين، ولتنشـأ بذلك الخلية «اليوكاريوتية المتقدمة» Eukaryotic Cell خلقًا نورانيًّا جديدًا!

أي إن نقطة الانطلاق في قصة تطور الحياة لم تكن بدورها إلا مرحلة جديدة من مراحل التفاعلات والإنشاءات النورانية (الكهرومغناطيسية) المسئولة قبل ذلك عن إنشاء الخلية من المادة وإنشاء أنواع المادة هذه من قبلها من الذرات المختلفة، بل وإنشاء الذرة في البداية من الموجات النورانية!

النظام النوراني المسئول نفسه عن إنشاء وتطوير الكون ثم الذرة ثم المادة هـو –وهـو فقط– ما طوّر الخلية في بداية رحلتهـا على طريق «تطور الحياة»! التواصل في قصة الخلق لم ولن ينقطع! النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هـو ما طور نوعي الخليـة البدائية (الأركية والبكتيرية)؛ لتنشـأ بذلك منهما أنواع عديدة جديدة، وليبدأ بذلك عصر جديد من تنوع الكائنات الحية.

نشأة الخلية «اليوكاريوتية» كانت أهم خطوة في تاريخ «تطور الحياة» لأنها تحديدًا الخلية المسـئولة عن إنشاء جميع الكائنات الحية المتقدمة بعد ذلك. الفارق بين الخلية «اليوكاريوتيـة» الحديثة المتطورة والخلية «البروكاريوتية» البدائيـة فـارق مذهل. إطـلاق لقـب «الخلية» علـى الاثنيـن – البروكاريوتية واليوكاريوتيـة – مـا هـو إلا نـوع مـن التصنيف العلمـي القائم علـى تصنيف الكائنـات الأبسـط معًا في مملكة واحـدة أُطلق عليها لقـب «مملكة الخلية»، تمامًا كما يصنف الفأر جنبًا إلى جانب مع الأسد في المملكة الحيوانية!

بل إن الفارق بين الخلية «اليوكاريوتية» المتطورة والخلية البروكاريوتية أكبر من الفارق بين الأسد والفأر؛ فالأسد والفأر حيوانان من الثدييات يتكونان من نوعية الأعضاء الداخلية والخارجية نفسها وإن اختلف الحجم وإن اختلفت الملامح، أما الخلية اليوكاريوتية فهي كائن متطور يحتوي على أعضاء «جديدة» تمامًا لم تكن موجودة أصلًا على المستوى السابق (مستوى الخلية البروكاريوتية)!

أعضاء الخلية «اليوكاريوتية» تشمل على سبيل المثال غشاءً خارجيًّا متقدمًا (غير موجود عند الخلايا البدائية) يُمَكِّنها من إرسال تلك الإشارات النورانية (الكهرومغناطيسية) التي لم تكن موجودة على المستوى السابق والتي ستلعب بعد ذلك دورًا رئيسيًّا في نشأة الجهاز العصبي عند الحيوانات!

تشمل أعضاء الخلية «اليوكاريوتية» أيضًا «نواة» لم تكن موجودة على المستوى السابق عند الخلية البدائية، نواة اجتمعت فيها وتكاملت من خلالها وصلات الحمض النووي الديوكسير DNA التي كانت موجودة – قبل ذلك – بصورة أقل تنظيمًا عند الخلايا «البروكاريوتية» البدائية.

تكامل وصلات الحمض النووي الديوكسير DNA داخل نواة الخلية «اليوكاريوتية» هو تحديدًا ما أنشأ أول «جين» Gene من الجينات التي ستقوم بعد ذلك بدور رئيسي في تطور الحياة إنشاءً لهذه الخلية المتطورة خلقًا من بعد خلقٍ، قبل أن تنشأ في النهاية الكائنات الحديثة كما سنرى (الجين ما هو إلا مجموعة ضخمة من وصلات الأحماض النووية DNA المتصلة معًا).

التفاعل النوراني الكهرومغناطيسي (الكيميائي الحيوي) بين الخلايا هو تحديدًا ما طوّر الخلية تمامًا كما طوّر التفاعل النوراني الكهرومغناطيسي (الكيميائي) المواد قبلها! تمامًا كما طوّر التفاعل النوراني (النووي) أنواع

الـذرات داخل النجوم! تمامًا كما أنشـأ التفاعل النورانـي الذرة في البداية من الموجات النورانية!

هكذا أنشـأت التفاعلات النورانية – هكذا أنشـأ الخالـق الباطن المُتَجَلّي نـورًا – الخلية «اليوكاريوتيـة» المتطورة قبل حوالي مليار وخمسـمائة مليون عام بأعداد مهولة – في أنواع مختلفة كثيرة جدًّا، وهكذا أنشـأ النور – الخالق الباطـن المُتَجَلّـي نـورًا – تلـك الثورة التي كانت على وشـك أن تأخذ مسـار تنوع أشـكال الحياة علـى كوكب الأرض في اتجاهات جديـدة مذهلة! النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو وهو فقط ما طوّر الخلية!

كان داروـيـن مخطئًـا! مـا طـوّر الحياة طـوال هذه الفتـرة البالغـة أكثر من مليـاري عام – إنشـاءً فـي النهاية لهذه الخليـة «اليوكاريوتيـة» المتطورة – لم يكـن «التطـور الدقيـق» Micro-Evolution البطيء الثابـت الإيقاع كما ظنّ داروين وكما ظـنّ الداروينيون من بعده، بل عمليات من التفاعل و«التكامل» الكيميائي الحيوي بين الخلايا!

كل نوع من أنواع الخلية «اليوكاريوتية» ما هو بطبيعة الحال – على المستوى العلمي الأدق – إلا تيار نوراني (كهرومغناطيسـي) فريد مرَكَّب معقد ناشـئ عن تكامل التيارات النورانية الأصغر (الذرات) المكوّنة لكل شـيء في هذا الكون، والتي كانت قد نشـأت بدورها فـي البداية من الموجـات النورانية (البروتونات والإلكترونات). ويتوقف استمرار وجود كل خلية من هذه الخلايا «اليوكاريوتية» ككائـن حي على اسـتمرار وحدة هـذا التيار النوراني المرَكَّب، واسـتمرار نبضه النوراني المسئول عن إنشاء نبض الحياة في المادة المكوّنة لها!

نظرية الإندوسمبيوسيز –نظرية التكامل الداخلي– نظرية يمكن تلخيصها فـي كلمات قليلة: النـور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نـورًا – هو ما طَوَّر الحياة

بعد نشأتها، مُنشِئًا بذلك الخلية «اليوكاريوتية» المركَّبة (النّطفة الأمشاج) التي أصبحت بدورها نقطة الانطلاق في عملية إنشاء الكائنات الحية جميعًا!

نفس التفاعلات النورانية المسئولة عن إنشاء الكون من العدم ثم الذرة ثم النجوم ثم أنواع المادة ثم الكواكب ثم الحياة هي بذلك –وهي فقط– نفس التفاعلات النورانية المسئولة عن تطوير الحياة بعد ذلك – عبر هذين المليارين والثلاثمائة مليون عام الأولى والتي مثلت الجزء الأعظم من تاريخ تطورها – إنشاءً للخلية «اليوكاريوتية».

التواصل في قصة الخلق لم ولن ينقطع، كيف ينقطع والخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا – هو الأول والآخر والظاهر والباطن؟! كيف ينقطع والنور هو منشئ كل خلق خلقًا آخر؟! كيف ينقطع والتيار النوراني هو –وهو فقط– ما ينشئ ويعرف كل مادة وكل كائن حي؟! كيف ينقطع والنور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو «الحي» المطلق مصدر كل حياة وكل روح تسري في المادة؟!

اكتشافات العالمة الأمريكية العبقرية لين مارجوليس – والتي لم يجد الداروينيون مفرًّا من تقبلها في ثمانينيات القرن العشرين بعد إثبات علم الجينات لها – هي تحديدًا ما دعاها إلى التمرد الشديد على النظرية النِيو– الداروينية والخروج عليها وعلى أباطرتها، فكل ما ادعته النظرية الداروينية كان غائبًا على هذا المستوى.

العالمة الأمريكية لين مارجوليس – عضوة الأكاديمية الأمريكية للعلوم والحاصلة على «وسام العلوم» الأمريكي – لم تتوقف أبدًا في هجومها المتكرر على الداروينية وعلمائها المدافعين بكلّ تعصب واضح عن نظريتهم، وذلك حتى وفاتها في عام 2011!

هكذا مثلًا جاءت كلماتها في إحدى المناسبات مشبهة إياهم بالمتطرفين الدينيين المدافعين عن معتقداتهم بأي ثمن، مؤكدة أن التاريخ سيصفهم في النهاية بأنهم «مجموعة صغيرة من المتطرفين المُرَوِّجين لعلم الأحياء الإنجليزي كما تروّج الديانات بكل وسائل التأثير»!

اكتشافات لين مارجوليس تبعتها اكتشافات أخرى معنية بشرح أحداث الفترة التي تلت نشأة الخلية «اليوكاريوتية»، تلك الفترة التي دامت مايقرب من أربعمائة مليون عام قبل أن تؤدي في النهاية إلى نشأة الكائنات الحية متعددة الخلايا (الكائنات المتَكَوِّن كل منها من عدد كبير من الخلايا).

تمت نشأة الكائنات الحية متعددة الخلايا على مرحلتين. المرحلة الأولى شملت تفاعلات كيميائية حيوية (تفاعلات نورانية كهرومغناطيسية) بين أنواع وأعداد مختلفة من الخلايا «اليوكاريوتية» نتج عنها «تَعَلّق» هذه الخلايا ببعضها في مجموعات (علقات) مختلفة مستقلة عن بعضها؛ لتتكون بذلك مجموعات (علقات من الخلايا) متنوعة لا حصر لها.

كل مجموعة من الخلايا المتَعَلِّقة شّكلت معًا عَلَقَة (تعاونية) قامت من خلالها الخلايا المتَعَلِّقة ببعضها بتقسيم الوظائف الحيوية فيما بينها تعظيمًا للإنتاج (وكأنها ثورة صناعية طبيعية!)، لتبدأ بذلك أولى خطوات تخصص الخلايا، ولتبدأ بذلك أولى خطوات إنشاء الكائن الحي متعدد الخلايا.

إلا أن تعلق هذه الخلايا ببعضها لم يكن نوعًا من الشراكة التي لا يمكن الرجوع فيه – كما هو الحال مع الكائنات الحية متعددة الخلايا مثلنا – بل كان نوعًا من الشراكة المؤقتة (تكامل مؤقت) يمكن أن ينتهي في مرحلة ما؛ لتعود بعدها كل خلية من الخلايا المكَوِّنة لهذه التعاونية (العَلَقَة) إلى طبيعتها الأولى كخلية مستقلة منفصلة عن الخلايا الأخرى.

المرحلة الثانية والأخيرة في نشأة أولى الكائنات الحية متعددة الخلايا اعتمدت على جيل أحدث من التفاعلات الكيميائية الحيوية (التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسية) فيما بين الخلايا المكَوِّنة للتعاونية (للعلقة). تفاعلات نتجت عنها علاقة دائمة بين هذه الخلايا؛ لتتحول بذلك عَلَقة الخلايا (التعاونية) إلى كائن حي واحد يدب فيه نبض حي واحد.

هكذا نشأت لأول مرة على كوكب الأرض (في أعماق المحيط المائي) قبل حوالي مليار ومائة مليون عام أولى الكائنات المتعددة الخلايا في أشكال وأنواع لا حصر لها، وهكذا أخذ مسار تطور الحياة وتنوع أشكالها منعطفًا جديدًا، وهكذا نشأت ثورة كبرى جديدة في عالم الأحياء!

لم تشمل أولى الكائنات الحية متعددة الخلايا أي أعضاء صلبة (كسيقان النباتات أو شوك الأسماك أو عظام الحيوانات)، بل كانت كائنات حية مُضغة (رخوية طرية).

كل كائن من هذه الكائنات الحية الأولية متعددة الخلايا لم يكن بطبيعة الحال - في حقيقته العلمية الأدق - إلا تيارًا نورانيًّا كهرومغناطيسيًّا واحدًا ناشئًا من الدوائر النورانية الحية الأصغر (الخلايا الفردية)!

التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسية (التفاعلات الكيميائية الحيوية) هي ما أنشأ الكائنات الحية متعددة الخلايا! النور - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هو وهو فقط ما أنشأ أولى الكائنات الحية الرخوية (المُضغة) متعددة الخلايا! النور - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هو وهو فقط ما أنشأ الكائنات الحية الرخوية (المُضغة) من التعاونية (العَلَقَة)، بعدما أنشأ هذه التعاونية (العَلَقَة) بدورها من الخلية (النّطفة) التي كان قد أنشأها قبل ذلك من الذرة (التراب)،

وكل ذلـك من خلال تفاعلات طبيعية كانت قـد تمت على «مراحل» متباعدة توسطت كل مرحلة منها فترات طويلة من «الاستقرار»!

كل مـا افترضته النظرية الداروينية كان غائبًا على مسـتوى نشـأة الكائنات الحيـة متعـددة الخلايـا أيضًا! هـذه الكائنات الرخويـة (المُضغـة) الأولية لم تعتمـد علـى أي نـوع من «التطـور التفرعـي» أو أي نوع من «التطـور الدقيق» البطيء (الثابت الإيقاع دومًا كعقارب السـاعة!) كما افترض العالم البريطاني تشـارلز داروين وكما تسـتمر النظرية الداروينية في الافتـراض بطريقة ملتوية إلى يومنا هذا رغم تسليمها بالحقائق العلمية المكتشفة بل وتدريسها جنبًا إلى جنب مع مبادئها (توليفة علمية وصراع من أجل البقاء كما سنرى)!

المرحلـة التاليـة في قصة «تطـور الحياة» بدأت بعد ذلـك أي قبل حوالي مليـار ومائة مليـون عام. نشـأة كل كائن من هـذه الكائنات الحيّـة الرخوية – والتـي كانت قد نشـأت في اتجاهات عديـدة بأنواع مختلفـة متنوعة لا حصر لهـا – تبعـه تحول كل كائـن منهم –هو ذاته– بدوره إلـى نقطة انطلاق جديدة في رحلة «تطور الحياة»، لتسـتمر بذلك العمليات «الإنشـائية» وتستمر بذلك عملية إثراء الحياة بالكائنات الحية.

شملت هذه المرحلة الجديدة تفاعلات كيميائية حيوية (تفاعلات نورانية كهرومغناطيسـية) متقدمـة مـن طبيعة عجيبة جـدًّا ونتائج أعجـب! تفاعلات شـملت في كل مرة اثنين من الكائنات الرخوية الناشـئة، تفاعلات «تكاملية» شـبيهة نوعًـا ما بعمليـات التـزاوج والتكامـل والتفاعل بين الحيـوان المنوي والبويضة. عمليات سنطلق عليها لقب «التزاوج التهجيني».

تشبيه التزاوج التهجيني بعمليات التزاوج والتكامل والتفاعل بين الحيوان المنوى والبويضة تشـبيه تقريبي غير دقيق لأسـباب: أولها أن التّزاوج بين كل

اثنيـن من هذه الكائنـات الرخوية (المُضغة) لم يكن تزاوجًـا بين خلايا فردية (نطفة) كما هو حال الحيوان المنوي والبويضة، بل تزاوجًا بين كائنات رخوية متعددة الخلايا ضخمة الحجم نسبيًّا!

ثانيهـا أنـه لـم يكـن تزاوجًا بيـن جنسـين مختلفين (ذكـر وأنثـى) من نوع الكائنات نفسه بل تزاوجًا بين أنواع مختلفة تمامًا من الكائنات!

ثالثهـا أنه لم يكـن تزاوجًا مقتصـرًا وظيفته على التكاثر، بـل تزاوجًا قائمًا على إنشـاء نوع أحدث من الكائنات لم يكن موجودًا على المسـتوى السابق! التّـزاوج بين الكائنـات الرخوية (المضغة) تزاوج «تهجيني» شـبيه إلى حد ما (للتشـبيه فقط وليـس الدقة) بعمليات التهجين التي يقـوم بها المزارعون عند تزويجهـم نوعين مختلفين من الفواكه إنشـاءً لنوع جديد مـن الفاكهة لم يكن موجودًا أصلًا على المستوى السابق!

«التّزاوج التهجيني» بين الكائنات هو تحديدًا ما سيسـتمر بعد ذلك إنشـاءً للكائنـات الرخويـة (المضغـة) هذه خلقًا مـن بعد خلقٍ على أطـوار (مراحل متباعـدة) ما يقرب مـن أربعمائة مليون عام قبل أن يؤدي في النهاية إلى نشـأة أولى النباتات وأولى الحيوانات قبل حوالي سبعمائة مليون عام!

هـذه النوعيـة المتقدمة جدًّا من التفاعلات الكيميائيـة الحيوية (التفاعلات النورانيـة الكهرومغناطيسـية) هـي تحديـدًا مـا أنشـأ أولـى النباتات ثـم أولى الحيوانـات مـن الكائنـات الرخويـة المضغة! التفاعـلات النورانيـة – الخالق الباطـن المُتَجَلّـي نـورًا – هو من أنشـأ أولى النباتـات وأولـى الحيوانات! لم يكن هناك «تطور عشـوائي» بل تفاعلات نورانيـة منظّمة، لم يكن هناك «تطور تفرعـي» بالمفهـوم الدارويني، لـم يكن هناك (على هذا المسـتوى الإنشـائي) «تطور دقيق» بطيء منتظم الإيقاع مثل عقارب الساعة! كل ما افترضته النظرية الداروينية كان غائبًا! (التطور الدقيق البطيء المسئول عن تكيف هذه الكائنات

مع البيئة واختلاف ملامحها جاء في كل مرحلة بعد نشأتها كما تقدم وكما يقر اليوم الداروينيون).

الحيوانـات الأولـى (وكذلـك النباتـات الأولى) كانـت كائنـات مختلفة تمامًا عن كل ما يمكن أن نتخيله اليوم عندما نسـمع عبارة «حيوان»، يكفي أن نذكـر مثلًا أن هذه الحيوانات الأوَّليـة كانت هي الأخرى كائنات رخوية طرية (مضغة) تتكاثر عن طريق «الانقسام» تمامًا كما تفعل الخلية إلى يومنا هذا!

بالطبع نحن لا يمكن أن نتخيل إنسانًا ينقسم ليصبح إنسانين أو أسد ينقسم ليصبح أسدين!

يكفـي أن نذكر أيضًا أن هذه الحيوانـات (والنباتات) الأقدم كانت تتزاوج هي الأخرى - تهجينيًّا - فيما بينها ليتكامل بذلك كل حيوانين منهما ويتفاعلا جينيًّـا كما سـنرى ليتحولا - معًا (!) - إلى نـوعٍ جديد من الحيوانات لم يكن موجودًا على المستوى السابق!

بالطبـع نحن لا يمكن أن نتحدث عن إمكانية «تزاوج تهجيني» بين الغزال ككائـن حـي والفيل ككائن حي آخـر وتحولهما - معًا - إلـى نوع أحدث من الحيوانات لم يكن موجودًا على المستوى السابق!

الحيوانـات الأوَّليـة الرخويـة (المضغـة) العجيبة هذه كان لهـا دورة حياة عجيبة مثلها؛ ذلك أن دورة حياتها كانت تشمل حالتين من الوجود مختلفتين تمـام الاختـلاف. الحالة الأولـى - والتي تبدأ فور نشـأة الحيـوان من عملية التزاوج التهجيني التي أنشأته - هي حالة الحيوان المستقل القائم بذاته (الحالة «الدبلوُيْـد» Diploid كما يطلـق عليها العلماء)، حالة الحيـوان المتكوّن من طاقميـن من الجينات مثل الحيوان الحديث (الإنسـان مثـلًا) غير القادر على التزاوج - تهجينيًّا بنفسه - مع أنثاه أو أي كائن آخر!

إلا أن هذه الحالة لم تكن تدوم كثيرًا، فسريعًا ما كان الحيوان الأوَّلي يقوم بعد نشـأته بعملية التكاثر - بالانقسام - لتنشـأ بذلك ذريته على هيئة حيوانين متطابقيـن يتكـوّن كل منهمـا من طاقم واحد مـن الجينات (تمامًـا كما تتكوّن بويضـة أنثى الإنسـان مثلًا من طاقم واحـد من الجينات)، ليبلـغ بذلك حالته الهابلوُيْـد Haploid البديلـة (نقيض الحالـة الدبلوُيْد الأصليـة) والتي تمَكّن فرصـة تكاملـه أي تزاوجه - تهجينيًا بنفسـه - مع كائن هابلوُيْـد آخر من نوع آخر «مختلف» من أنواع الكائنات الحية!

فرصـة قـد لا تتحقق إلا بعد مرور فترة طويلة جدًّا من الزمان قبل أن تؤدي في النهاية إلى إنشـاء نوع آخـر «مختلف» أحدث جديد متطور من الحيوانات لـم يكن موجود على المسـتوى السـابق! قبل أن تبدأ من جديـد دورة التكاثر والتـزاوج التهجينـي هـذه، لتسـتمر بذلـك التفاعـلات الكيميائيـة الحيويـة (التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسـية) في إنشـاء الخلق خلقًا آخر، وهكذا وهكذا من جديد!

هكـذا كان الحيوان الأوَّلـي كائن «هابلوُيْد» في المقـام الأول، أي حيوان يقضي معظم عمره (الشـق الأعظم مـن دورته الحياتية) ككائن جاهز للتزاوج التهجيني مع كائن من نوع آخر! هذه هي الآلية الحقيقية المسـئولة عن إنشـاء الكائنـات الحديثة! أفكار داروين لـم تكن - على هذا المسـتوى - إلا «خيالًا علميًا»!

لـم يكـن هناك في البداية - عند نشـأة هذه الحيوانـات الأوَّلية قبل حوالي سـبعمائة مليـون عـام - إلا حيوانـات تسـعى بتلقائيـة للتـزاوج التهجيني مع كائنات أخرى إنشـاءً لحيوانات أحدث من نوع مختلف أكثر تطورًا. كل ذلك وكأن هـذه الحيوانـات الأولية كانت كائنات «وسـيطة»!.. كائنات «وسـيطة» شـبيهة بخطوط الإنتاج القائمة على إنشـاء الخلق خلقًا آخر! كائنات وسـيطة

تقـوم التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسـية (التفاعلات الكيميائية الحيوية) بإنشائها خلقًا من بعد خلقٍ!

إلا أنه كلّما تقدمت عمليات التزاوج التهجيني إنشـاءً للحيوانات الرخوية (المُضغة) الأكثر ثم الأكثر تطورًا (وكلما تقدّمت عمليات تكوين وتخصيص أعضائهـا الرخويـة) زادت الفتـرة التي يقضيهـا الحيوان الرخـوي (المُضغة) ككائن «دبلوُيْد» متكوّن من طاقمين كاملين من الجينات، وقلت الفترة الزمنية التـي يقضيهـا ككائن «هابلوُيْـد» متكوّن من طاقـم واحد مـن الجينات جاهز للتـزاوج التهجينـي. وهكـذا وهكـذا من جديد إلـى أن بدأت أنـواع كثيرة من الحيوانات «الحديثة» في النشـأة تباعًا - بطرقٍ متوازية - من عمليات التزاوج التهجيني المستمرة هذه!

الحيوانـات الحديثـة (ذات الأعضاء الحديثة والصلبـة) حيوانات مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الحيوانات السابقة التي أنشأتها من عمليات التزاوج التهجينـي، حيوانات حديثـة «دبلوُيْد» بصورة تامة مسـتمرة، حيوانات تتكوّن طـوال الوقـت مـن طاقميـن من الجينـات ممـا يجعلهـا حيوانات مـن طبيعة تمنعهـا من القيـام بعملية التزاوج التهجينـي، حيوانات لا تعتمـد في تكاثرها على الانقسـام وإنما على إنتاج خلية (نطفـة) هابلوُيْد - مثل الحيوان المنوي أو البويضـة - تقـوم بعمليـة التكاثر نيابة عنهـا، حيوانات ذات عضو تناسـلي (سـوءة) قائم على إنتاج خلية التكاثـر الهابلوُيْد، حيوانات تقوم بالتزاوج (مع نفـس نوعها فقط) من أجـل التكاثر وحفظ النوع فقـط لا غير وليس من أجل إنشاء كائنات حية جديدة لم تكن موجودة على المستوى السابق!

كل ذلـك وكأن مسلسـل إنشـاء الكائـن الدبلوُيْـد الحديث قـد وصل إلى نهايتـه، وكأن نشـأة الحيـوان الحديـث مـن الـذرة (مـن التـراب) لا تكتمـل

إلا بعد تكون العضو التناسلي (ظهور السوءة) القادر على إنتاج خلية التكاثر الهابلوُيْد!

هكذا نشأت من الكائنات الرخوية (المُضغة) أقدم الحيوانات الحديثة (ذات الأعضاء الصلبة مثل شوك الأسماك وعظام الحيوانات)، نشأت من التفاعلات الكيميائية الحيوية (التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسية) بين هذه الكائنات الرخوية (المُضغة)، وذلك قبل حوالي سبعمائة مليون عام!

وهكذا نشأت درجات مختلفة من التشابه بينها..

حقيقي أن الحيوانات الحديثة نشأت بذلك «تفرعًا» عن الحيوانات الرخوية (المُضغة) الأقدم المتكاملة والمتفاعلة معًا، إلا أن هذا النوع من التفرع تفرع «لا دارويني»، تفرع لا يمت لشجرة التطور الداروينية أو مبدأ «الصدفة» بأي صلة! تفرع لا يمت لمفهوم «التفرع الدقيق» البطيء عن أصل «واحد» مشترك بينها بأي صلة! تفرع لم يعتمد أصلًا على تطور كائن - واحد - ببطء! تفرع مناقض لكل ما تخيلته النظرية الداروينية!

هذا التفرع اللادارويني تفرع عن أصلين «اثنين» اعتمادًا على «نظام» تفاعل كيميائي حيوي (نظام تفاعل نوراني كهرومغناطيسي)! مفهوم تطور الكائنات المتشابهة-آنذاك قبل مئات الملايين من السنين- تفرعًا عن «أصل مشترك» بينها مفهوم صحيح - جزئيًا - يحتاج إلى تصحيح وصياغة علمية جديدة!

كل كائن من الكائنات «المتشابهة» آنذاك (لا نتحدث عن الكائنات الأحدث مثل الإنسان بعد) اعتمد في نشأته على تفاعل «أصلين» منشئين له وليس أصل واحد! اعتمد على تفاعل «أصل مشترك» بينها مع أصل آخر مختلف «غير مشترك» بينها (مسئول عن عملية التّزاوج التهجيني وإنشاء

الفارق بينه وبين الكائنات الشبيهة به)! الأصل المشترك هو تحديدًا ما أنشأ درجات التشابه، والأصل الآخر غير المشترك هو تحديدًا ما أنشأ درجات الاختلاف بين هذه الكائنات المتشابهة!

وربما كان هذا هو السر القادر على تفسير ظاهرتي «التطور المستقل» و«التطور المتوازي»، بما في ذلك «النشأة التشكيلية» التي تحدثنا عنها (توليفة الأعضاء التي لا يمكن تصنيفها معًا بطريقة تفرعية متصلة)!

هذه النوعية من الاكتشافات هي تحديدًا ما دفع العالمة الداروينية المنشقَّة لين مارجوليس إلى شرح قصة تطور الحياة (بما في ذلك نشأة الكائنات المتشابهة) من خلال نموذج «شجرة تطور» مختلفة اختلافًا جذريًّا عن شجرة التطور الداروينية التقليدية ومناقضة لنظامها: شجرة «تتفاعل وتتكامل» أفرعها (كائناتها) إنشاءً لأفرع (كائنات) أحدث!

لم تكن الأصول المشتركة بين الكائنات في حقيقتها العلمية الأدق إلا «تصميمات حيوية» (كائنات حية) ذات قدرة على التفاعل معًا كيميائيًّا حيويًّا (تفاعل جيني كما سنرى) إنشاءً «لتصميمات حيوية أحدث» (كائنات حية أحدث) أكثر تخصصًا في شكلها الخارجي وهندستها الداخلية (أكثر تخصصًا في أعضائها) تمامًا كما تفاعلت من قبلها أنواع المواد الأبسط إنشاءً للمواد الأعقد والأكثر تقدمًا؛ ذلك قبل أن يصبح كلّ «تصميم» جديد منها بدوره نقطة انطلاق جديدة في مسلسل تطور الحياة، نقطة انطلاق - أكثر تخصصًا وأقل مرونة - مسئولة عن إنشاء كائنات حية أكثر ثم أكثر تشابهًا!

هذه هي قصة تطور الحياة في شقها الأعظم منذ نشأتها قبل حوالي ثلاثة مليارات وثمانمائة مليون عام إلى أن بدأت عمليات «التزاوج التهجيني» هذه في إنشاء أولى الكائنات الحديثة (أولى الأسماك على سبيل المثال وليس

الدقة) قبل حوالي سبعمائة مليون عام! هذه هي قصة الشق الثابت من الحقائق العلمية التي لا تقبل أي نزاع أو أي تشكيك؛ فتفاصيل السبعمائة مليون عام الأخيرة في قصة تطور الحياة على كوكب الأرض لم تثبت بهذه الصورة القاطعة (التي لا تقبل الجدال) بعد!

المدهش تاريخيًّا هو أن العالمة الداروينية المنشقة لين مارجوليس اكتشفت (عند دعوتها لأول مرة للاتحاد السوفييتي في عام 1975 قبل سقوطه بخمسة عشر عامًا) أن العلماء السوڤييت كانوا قد وضعوا في بداية القرن العشرين نظرية في «تطور الحياة» متوافقة في المبدأ مع هذه الحقائق العلمية التي لم تكن قد اكتشفت بعد، نظرية سوڤييتية أطلق عليها لقب «التطور التكاملي» Symbiogenesis!

أول من وضع نظرية كاملة في «التطور التكاملي» Symbiogenesis كان العالم السوڤييتي بوريس كوزو-بوليانسكي (1890-1957) الذي دفع في عام 1924 أن نشأة الكائنات جميعًا اعتمدت على أنواع من «التكامل» أو «التهجين» التلقائي الطبيعي بين الكائنات!

العالم السوڤييتي بوريس كوزو-بولينسكي كان على علم بالنظرية الداروينية، بل كان عالمًا «نصف دارويني»، ذلك أنه كان مؤمنًا بصدق مبدأ «الانتخاب الطبيعي» (الذي أسسه داروين)، القائل بأن الطبيعة تنتخب بصورة مستمرة الكائنات القادرة على البقاء في مناخها وظروفها، لتنقرض بذلك الكائنات الأخرى الناشئة خلال رحلة تطور الحياة (وهو مبدأ سليم بالطبع كما رأينا).

وفقت نظرية كوزو-بولينسكي في تطور الحياة ما بين مبدأ «تكامل الكائنات» من جانب ومبدأ «الانتخاب الطبيعي» من جانب آخر؛ لتنشأ بذلك

نظريتـه القائلة بأن عمليات من التكامل والتفاعـل بين الكائنات الحية الأولى أنشأت الكائنات الأحدث على أطوار قبل أن تقوم عمليات الانتخاب الطبيعي بانتقاء الأفضل في هذه الأثناء.

إجمالـي الفترة المصححة في نظرية التطور الداروينية – تأسيسًـا للتفاعل والتكامل التهجيني (التفاعل الكيميائي الحيوي) كأساس لنشأة الكائنات كما رأينـا حتى الآن – حوالي ثلاثة مليـارات ومائة مليون عام من إجمالي الثلاث مليـارات وثمانمائـة مليـون عام التـي تمثل تاريـخ تطور الحيـاة على كوكب الأرض! والبقيـة تأتي مسـتقبلًا كما يشـير العالـم الألمانـي الدارويني المهم إرنست ماير قائلًا:

«كثير من التقدم في تطور الكائنات هو نتيجة التكامل بين كائنين مختلفين مُتَكَوِّن كل منهما من مجموعة من الجينات المختلفة اختلافًا جذريًّا عن جينات الآخر، والعلماء ما هم إلا في بداية مشوار استيضاح هذه التفاعلات»!

أمـا العجيـب، فهو أن كل هـذه الحقائق العلمية لم تترجـم حتى اليوم إلى تغيير في موقف الداروينيين فيما يخص نشأة الكائنات الأحدث الناشئة خلال السبعمائة مليون عام الأخيرة (بما في ذلك الإنسان)!

الداروينيـون يقولـون إن عمليـات التكامـل الداخلي والتّـزاوج التهجيني (المسئولة عن نشأة الكائنات خلقًا من بعد خلقٍ أكثر من ثلاثة مليارات عام!) لم تنشِئ إلا أقدم الكائنات الحديثة فقط (أولى الكائنات ذات الأعضاء الصلبة كالأسـماك مثـلًا)! الداروينيـون يصـرون أن التطـور الدارويني – العشـوائي الدقيـق البطـيء – هو ما طوّر بعد ذلك أقدم الكائنـات الحديثة (ما طور أولى الكائنـات ذات الأعضـاء الصلبـة) ببطء شـديد تمامًـا كما اقتـرح داروين في البدايـة! يصرون على تطـور الكائنات ذات الأعضاء الصلبة من خلال نموذج

الفـأر الذي تطور ليصبح كائنًا من أشـباه القردة قبل أن يتطـور هذا الكائن من أشباه القردة بدوره ليصبح إنسانًا!

كل ذلك وكأن كل ما تقدم لا يسقط نظريتهم!!!

الداروينيـون لا ينتبهـون إلـى حقيقـة أن مبـدأ «التطـور التكاملـي» Symbiogenesis الثابـت اليـوم علميًّـا كما رأينـا – مبدأ التكامـل والتفاعل التهجينـي بيـن التصميمـات الحية إنشـاءً لتصميمـات حية أحـدث (كائنات أحـدث) أكثـر تخصصًا – هـو المبدأ الوحيد القـادر اليوم على تقديم تفسـير لظواهـر «التطور المسـتقل» و«التطور المتـوازي» و«التطور التشـكيلي» بعد عجز النظرية الداروينية عن تفسيرهم، بل وفشلها في ذلك كما رأينا!

دعونا نسـتدعِ سـريعًا مثالًا من أمثلة «التطور المسـتقل» التي تحدثنا عنها والتي فشلت النظَرية الداروينية في تفسيرها بل وتناقضت معها بعد اكتشافها: مثـال الذئب التسـماني الموجـود في قارة أسـتراليا (الثدييات اللا مشـيمية)، مقارنة بالذئب العادي (الثدييات المشـيمية ذات الحبل السّرى) الموجود في بقية قارات العالم.

يقـف تصميـم وتكوين الذئـب العادي في النصـف بين تصميـم وتكوين الثدييـات التقليدية من جانـب وتصميم وتكوين الذئب التسـماني من جانب آخر! ذلك أنه يتقاسـم مع هذه الثدييات التقليدية تصميمها وتكوينها العام بما في ذلك تطابقه مع هندسـتها الداخلية وأنواع أعضائها، إلا أنه يتقاسم أيضًا – في الاتجاه العكسـي – مع الذئب التسماني تصميم وتكوين ملامحه وحجمه بل ويتقاسم معه طبيعة الذئاب! إنه العجب العجاب!

كل ذلـك وكأن الذئب العـادي (وبالتالي كل كائن مـن الثدييات أيضًا) ما هو إلا نقطة الالتقاء والتفاعل والتكامل (التهجين الطبيعي) بين تصميمين من

تصميمـات الأحياء (بين كائنيـن)، تصميم وتكوين رخـوي أول معَقَد متقدم (مُضغة مخَلَّقَة أي متقدمة التكوين) كانت له الريادة العامة في تحديد التصميم العـام للحيوان (نوعية أعضائه وهندسـتها) من جانـب وتصميم وتكوين آخر أبسـط (مُضغة غير مخَلَّقة أي أقل تعقيدًا) كانت له الريادة الخاصة في تحديد التفاصيـل الدقيقـة بما في ذلـك الملامح والحجـم وطبيعة الحيـوان (طبيعة الذئـب مثلاً)! مجـرد افتـراض منطقي ليس لـه أي دليل علمي اليـوم! مجرد افتراض يحتمل الصواب أو الخطأ، ولا يغير في الصورة الأشمل شيئًا!

دعونا نسـتدعِ أيضًا أحد أمثلة «التطور التشـكيلي» التـي تحدّثنا عنها، مثال الأركيوبتركـس المتكـوّن مـن أعضاء «طيـور» وأعضاء «زواحـف» معًا! مبدأ التزاوج التهجيني المباشـر بين تصميم كائن حـي بدائي (كائن رخوي مضغة) مـن عائلـة الطيور مـن جانب وتصميـم حي بدائـي آخر (كائن رخـوي مضغة مختلـف) مـن عائلة الزواحف من جانـب آخر قد يكون المبـدأ الوحيد القادر على تفسـير نشأة الأركيوبتركس من تلك التشـكيلة العجيبة التي تجمع ما بين أعضاء الطيور والزواحف معًا! مجرد احتمال.

كذلـك قـد لا يمكـن تفسـير نشـأة الأعضـاء التشـكيلية للإنسـان –مقارنـة بأشـباهه– إلا من خلال مبدأ التـزاوج التهجيني بين تصميم حي متَقَدِّم التكوين (كائن رخوي أول – مُضغة مخَلَّقَة أي متقدمة النشـأة) «مشـترك» بينها مسـئول عن التشابه بين هذه الكائنات جميعًا من جانب وتصميم حي أبسط مختلف في كل مـرة (كائن رخوي ثان – مُضغة غير مخَلقة أي غير متقدمة النشـأة) مسـئول عن الاختلاف التشكيلي بينهم. مجرد افتراض منطقي (غير ثابت علميًّا) يحاول توظيف الظاهرة الثابتة علميًّا خلال الشـق الأعظم من تاريخ التطور (كما رأينا) في محاولة غير رسمية لتفسير ما عجزت النظرية الداروينية عن تفسيره.

يرجح تفسير هذه الظواهر بهذا الأسلوب احتمال نشأة كل كائن من الكائنات الحية الحديثة مباشرة من نوع من أنواع «التطور التكاملي» كالتزاوج التهجيني Symbiogenesis أو التكامل الداخلي Endosymbiosis أو ما شابه، إلا أن هذا التحليل لا يعدو اليوم كونه (كما أشرنا) احتمالًا غير مثبت علميًّا يحتمل الصواب أو الخطأ بغض النظر عن منطقه الأقرب كثيرًا إلى تفسير هذه الظاهرة من منطق النظرية الداروينية.

الثابت في جميع الأحوال هو أن الداروينيين يسقطون من حساباتهم مبدأ «التطور التكاملي» – على مستوى نشأة هذه الكائنات الأحدث – وكأن الآلية المسئولة عن تطور الحياة إنشاءً للكائنات خلقًا من بعد خلقٍ يمكن أن تتغير فجأة بعد أكثر من ثلاثة مليارات عام!

وكأن آلية «التفاعل والتكامل» النوراني الكهرومغناطيسي المسئولة ليس فقط عن إنشاء الكائنات الحية الأقدم من الخلية بل أيضًا عن إنشاء كل شيء في هذا الكون –من الذرة إلى أنواع المادة إلى الخلية إلى الكائنات الحية الأقدم– يمكن أن تتغير فجأة في النهاية! وكأن ثبوت آلية «التكامل والإنشاء النوراني» – المسئولة عن تطوير الكون برمَّتِه مدة أكثر من ثلاثة عشر مليار عام من إجمالي عمره البالغ ثلاثة عشر مليار وثمانمائة مليون عام – ليس كافيًا لإثبات أن الكائنات الأحدث مثل الإنسان نشأت من خلال الآلية نفسها بطريقة أو بأخرى (بغض النظر عن صحة أو خطأ التخيل الخاص بنا المذكور قبل قليل)!

مازال أباطرة الداروينية يسيطرون على معظم المحافل العلمية والإعلامية، والحلقة الأخيرة في مسلسل تطور الحياة (حلقة نشأة الكائنات الأحدث بما في ذلك الإنسان) مازالت رهينة النظرية الداروينية تمامًا كما كانت جميع حلقات هذا المسلسل في السنوات الماضية قبل تتابع ظهور الحقائق العلمية

التي أسقطت الادعاءات الداروينية فيما يخص معظم الحلقات الأسبق من هذا المسلسل كما رأينا!

الداروينيون ينتهجون منذ سنين طويلة أسلوبًا أشبه بأسلوب الخداع العلمي؛ ذلك أنهم مستمرون في الاعتراف بما يثبت علميًّا فيما يخص المراحل الأسبق في قصة تطور الحياة، دون أن يؤدي ذلك إلى أي تغيير في افتراضاتهم الخاصة بالحقب التاريخية الأحدث (تفرع الإنسان عن أشباه القردة مثلًا)، متجاهلين بذلك المنطق أن سقوط نظريتهم على المستويات التأسيسية يتحتم عليه سقوطها على جميع المستويات الفرعية الأحدث!!

الداروينيون يتعاملون مع كل ما ثبت من حقائق علمية مكتشفة على أنها حقائق لا تؤثر على نظريتهم: صراع من أجل البقاء كما تحتم نظريتهم هذه المستمر تصحيحها إلى الآن! صراع من أجل البقاء لا يغير في الأمر شيئًا بعد ثبوت اعتماد نشأة الكائنات على نفس التفاعلات «النورانية» المسئولة عن «إنشاء» كل شيء في هذا الكون!

مسار الاكتشافات العلمية يأخذ الداروينية في اتجاه واحد سيحَتِّم في نهايته انقراضها كما أكدّت العالمة «الأمريكية» لين مارجوليس - عضو الأكاديمية الأمريكية للعلوم والحاصلة على وسام العلوم الأمريكي - في مطلع محاضرة مهمة ألقتها في مدينة سان بيترسبرج الروسية في الثالث والعشرين من سبتمبر عام 2009:

«التفسير غير المثبت علميًّا والمدَّعي نشأة الطفرات الإبداعية الخاصة بتطور الحياة اعتمادًا على تغيرات تدريجية عشوائية سيعتبر في المستقبل أحد أخطاء القرن العشرين، كادعاء روّجه مجموعة من الإنجليز والأمريكان وآخرين من متحدثي اللغة الإنجليزية»!

أكبر فضيحة علمية في التاريخ

فـي عـام 1859 عندمـا أقـدم العالـم البريطاني تشـارلز داروين على نشـر نظريته قام أيضًا بنشر الشروط العلمية – التي حدّدها هو شخصيًّا – لبقائها أو سـقوطها، فهكذا كتب العالم البريطاني تشارلز داروين بنفسه في كتابه «أصل الكائنات» الذي نشر فيه نظريته:

«لـو أنـه تم إثبات أن أي عضـو من أعضاء أي نبات أو حيوان لم ينشـأ من خـلال تغييرات بسـيطة جدًّا ذات إيقـاع ثابت دون انقطاع، فـإن نظريتي تنهار تمامًا»(Darwin 1859, 189).

ذلك طبعًا وببسـاطة شـديدة أن داروين كان قد أقام نظريتـه كما رأينا على مبـدأ «التطور الدقيـق» البطيء Micro-Evolution (المكمـل لمبدأ «التطور التفرعـي»)، المبـدأ القائل بـأن تغييرات بطيئـة منتظمة و«ثابتـة الإيقاع» دومًا كعقارب السـاعة – تغيرات لا تلاحظ نتائجها إلا بعد مرور ملايين السـنين – هو تحديدًا ما يقوم بتحويل الكائنات الأقدم «عشوائيًّا» إلى كائنات أحدث!

داروين أسس نظريته على قاعدة مفادها أن هذا «التطور الدقيق» الذي اعتقد فيه هو الآلية المسـئولة –بصورة حصرية– عن إنشاء الكائنات «بالصدفة» من بعضها!

إلا أن الحقائق العلمية المكتشفة بدأت تثبت نقيض ما أسسه داروين –في ثلاثينيات القرن العشرين (قبل أن تصل إلى ذروتها في نهايته كما رأينا)– لتنذر

بذلك ببوادر أزمة علمية كانت على وشك أن تعصف بالنظرية الداروينية تمامًا كما عصف من قبلها قياس سـرعة الضوء بفيزياء نيوتن (الفيزياء الكلاسيكية) في عام 1897!

كانـت الحقائق العلمية المكتشـفة فـي العقود الأولى من القرن العشـرين قد بدأت تؤكد اعتماد نشـأة الكائنات الحيـة جميعًا من الخلية على «خطوات مرحلية» توسطت مراحل طويلة من «الاستقرار» على العكس تمامًا مما أسسه داروين (التطور البطيء المنتظم الإيقاع دومًا كعقارب الساعة)!

العالـم الألماني الدارويني المهم إرنسـت ماير – عضـو الفريق الدارويني المعنـي بتصحيح هـذا الخطأ فـي النظريـة الداروينية – لخّص هـذه الحقائق العلميـة فـي جملـة واحـدة: «طبقًـا لنظريـة دارويـن، فـإن التطـور عمليـة تدريجيـة ومسـتمرة.. للأسـف يبـدو أن هـذا مخالـف للمشـاهدة العلميـة» (Mayr 2003, 207).

«التطـور الدقيـق» البطـيء – الـذي تحـدّث عنـه دارويـن – صحيح على مسـتوى آخر: مسـتوى «...جميع العمليات التي تتم على المستوى الداخلي للكائـن الواحد...مؤديـة إلـى تفرعـه فـي أمـم»، كمـا يشـرح إرنسـت مايـر (Mayr 2001, 207)، أي المسـئول مثلًا عن إنشـاء ذلك الاختلاف الواضح بين ملامح الإنسـان الإفريقي مقارنةً بملامح الإنسـان الآسـيوي، المسـتوى الذي شـاهده داروين أثنـاء رحلته في نصـف الكرة الأرضيـة الجنوبي عندما اعتقد خطأً أن تفسـير كيفية نشـأة الفارق بين طول منقـار عصفورين من النوع نفسه كفيلٌ بأن يفسر الآلية المسئول عن إنشاء هذا النوع برمته!

حقيقي أن هذا «التطور الدقيق» يمثل مسـتوى حقيقيًا من مسـتويات تطور الكائنـات، إلا أنـه ليس المسـتوى –وليس التطور– الذي نعنيـه ويعنيه العالم

أجمع عندما نتحدث عن «تطور الحياة» بمعنى نشأة كائن جديد لم يكن موجودًا أصلًا على «المستوى السابق»!

اكتشافات علمية عديدة أجبرت العلماء الداروينيين أنفسهم على استحداث مصطلح جديد في القاموس العلمي - مصطلح «التطور الشامل» Macro-Evolution - لبيان ذلك الفارق الجوهري الرهيب بين الظاهرة المسئولة عن إنشاء أنواع جديدة من الكائنات من جانب و«التطور البطيء الدقيق» Micro-Evolution المسئول عن إنشاء الفارق البسيط بين أمم وشعوب «النوع نفسه» من الكائنات من جانب آخر، وذلك كما يستمر العالم الدارويني المهم إرنست ماير في الشرح:

«التطور الشامل Macro-Evolution يميّز عديدًا من الاختراعات العظمى والتي يعتبرها الكثيرون مصيرية في تقدم عالم الأحياء.. تطور الحياة من الخلية البسيطة لإنتاج أنواع ذات اختلافات عظمى من الحيوانات والنباتات هي قصة هذه الخطوات الانتقالية المتعددة» (Mayr 1989, 224).

في عام 1937 اجتمع فريق من أهم العلماء الداروينيين حول العالم على مبدأ تصحيح النظرية الداروينية تجنبًا لعصف الأزمة الناشئة بها. شمل الفريق علماء من مختلف العلوم المتخصصة في دراسة تطور الحياة والتي كانت قد استمرت في التأسس بعد نجاح نظرية داروين قبل ذلك بما يقرب من ثمانين عامًا في إرساء مبدأ «تطور الحياة» كحقيقة علمية لا شك فيها، علوم شملت فيما شملت علم الجينات وعلم الباليونتولوجي (علم التنقيب عن الكائنات المنقرضة وتصنيفها)، وعلم الأحياء، وغيرها من العلوم.

شمل الفريق الدارويني العالم ثيودوسيوس دوبزانسكي (1900-1975) عالم الجينات الروسي الأصل الذي كان قد هاجر إلى أمريكا قبل ذلك

والذي ترأس الفريق، شـمل الفريق أيضًا العالم الألماني المهم إرنسـت ماير كما ذكرنا كما شـمل العالم البريطاني جوليان هكسـلي (1887–1975) حفيد العالم توماس هكسـلي (1825–1895) صديق داروين القديم والذي كان من أقوى مساندي النظرية الداروينية عند صدورها.

كان مـن المفترض بـل من الواجب علميًّـا – طبقًا للشـروط التي وضعها داروين بنفسه كما رأينا – إسقاط النظرية الداروينية برمتها بعد سقوط القاعدة المؤسسـة لها! كان مـن الواجب علميًّا – على الأقل وطبقًـا للحقائق العلمية المكتشـفة – قصـر مبـدأ «التطـور الدقيـق» Micro-Evolution على شـرح آليات التطور على المستوى «الداخلي» للكائن، أي مستوى التكيف مع البيئة (قصرها على شـرح الآلية المسـئولة عـن إنتاج الفارق بين الإنسـان الإفريقي والإنسان الآسيوي مثلًا)!

إلا أن أيًّا مـن ذلك لم يحـدث! بل إن قرارات الفريـق الدارويني الأهـم – الفريق المسيطر على أروقة علم التطور حول العالم – جاءت مناقضة للقاعدة التي أسسها داروين شخصيًّا كشرط يحَتِّم سقوط نظريته!

قـرر الفريق الدارويني الاحتفاظ بمبادئ النظرية الداروينية وجعلها عنوانًا لنظريـة تسـاوي ما بيـن مبدأ «التطـور الدقيـق» البطـيء Micro-Evolution (المسـئول عن عملية تكَيّف الكائن الحي مع البيئة) من جانب ومبدأ «التطور الشـامل» Macro-Evolution المسـئول عن نشـأة الكائنـات الحية (والذي لـم يكـن مفهومًـا بصورة جيـدة بعـد)!! ذلـك وكأن الاكتشـافات التي كانت قـد عصفت بمبدأ «التطور الدقيق» لم تعن سـقوطه (على مسـتوى العمليات المسئولة عن «إنشاء» الكائنات) طبقًا لداروين نفسه!

كان قرار الفريق الداروينى مخجلًا بجميع المقاييس العلمية لدرجة أن العالم الروسي الأصل ثيودوسيوس دوبزانسكي -رئيس الفريق- كتب في مطلع كتابه الصادر في العام نفسه تبريرًا لهذا القرار المؤسف قائلًا:

«تَحَتَّم علينا - بناء على مستوى المعرفة الحالية - أن نضع على مضض علامة مساواة بين أنظمة التطور الدقيق Micro-Evolution من جانب والتطور الشامل Macro-Evolution من جانب آخر، على أن نمضي إلى الأمام وندفع بأبحاثنا قدمًا إلى أبعد ما يمَكِّننا هذا الافتراض» (Dobzhansky 1937,12).

شملت قرارات الفريق الدارويني أيضًا قرار الاعتماد على مبادئ النظرية الداروينية قاعدة لدراسة دور الجينات في تطور الحياة (الجينات لم تكن في البداية جزءًا من النظرية الداروينية، إلا أن دورها كان قد بدأ يتأكد في مطلع القرن العشرين كآلية مسئولة عن ظاهرة «التطور الشامل»).

وهكذا ظهرت في عام 1937 تلك النظرية التي أطلق عليها الداروينيون لقب «النِيو-داروينية» Neo-Darwinism والتي تعني «الداروينية المعَدَّلة»، نظرية أطلق عليها أيضًا بعد ذلك بسنوات قليلة العالم جوليان هكسلي (عضو الفريق) لقب «التوليف الحديث» Modern Synthesis (توليف علم الجينات مع مبادئ الداروينية)!

«علامة المساواة» التي وضعها الفريق الدارويني بين ظاهرة «التطور الشامل» من جانب وظاهرة «التطور الدقيق» من جانب آخر - والمختلفين تمام الاختلاف - ترتب عليه نشأة نظرية (النِيو-داروينية) ذات تفاصيل تمزج علميًّا ما بين ظاهرة حقيقية (مبدأ تطور الحياة) ومعتقد خاطئ (الداروينية) بمقاييس داروين نفسه! أو ليس هذا تحديدًا ما نسميه «أسطورة»؟!

عصـر الأسـاطير لم ينتـهِ بعد! هكذا حـوّل العلمـاء الداروينيون أنفسـهم الداروينيـة إلى أسـطورة علمية متداولـة بيننا إلى اليوم، أكبر وأخطر أسـطورة علميـة فـي التاريخ، هذا وإن كانت مسـتمرة في انهيارها داخليًّـا يومًا بعد يوم كما رأينا!

وهكذا بدأت في عام 1937 أكبر عملية خداع علمي في التاريخ: المثقفون والعامـة حـول العالـم – على حـد السـواء – لم يدرسـوا ولا يفقهـوا الفارق الرهيـب بين «التطور الشـامل» من جانب و«التطور الدقيـق» من جانب آخر. كل ما يفهمه المثقفون والعامة على حد السواء (كل ما يظنونه) هو أن النظرية الداروينية نظرية علمية «سـليمة» بشهادة هؤلاء العلماء الكبار أنفسهم! كل ما يفهمونه (كل ما يظنونه) هو أن النظرية الداروينية نظرية علمية «سليمة» أثبتت علميًّا عدم وجود أي خالق طبقًا لحقائق علمية ثابتة مؤكدة!

«علامة المساواة» التي وضعها ثيودوسيوس دوبزانسكي وفريقه (بدلًا من إسقاط النظرية طبقًا للمعيار الذي أسسه داروين كما رأينا) ترتب عليها تضليل مئـات الملايين بل المليارات من البشـر حول العالم خلال القرن العشـرين! والبقية تأتي، وظاهرة التضليل تشتد!

العالم الروسـي وفريقه الدارويني العالمي رَوَّجوا (عن عمد أو غير عمد) «صكـوك الداروينيـة» في العصر الحديـث تمامًا كما رَوَّجت كنيسـة العصور الوسطى من قبلهم «صكوك الغفران»: عصر الظلام لم ينتهِ بعد!

لـم يعِ هؤلاء الداروينيـون الدرس الأهم في قصة اعتـراف علماء الفيزياء بسـقوط فيزيـاء نيوتن قبل ذلك بـأربعيـن عامًا، لم يعوا مبـدأ الأمانة العلمية! لـم يـعِ الفريق الدارويني العالمي الدرس الأهم في القصة والأزمة التي مرّ بها العالم الشـجاع جاليليو جاليلـي، أن العالِم الحق محـارب في محراب العلم والمعرفة، مدافع عن الحقيقة بروحه وكيانه بغض النظر عن النتيجة!

دوبزانسكي وفريقه أسقطوا ودمروا علم التطور برمته بعد أن أسقطوا المبدأ المؤسس له وللعلوم جميعًا - المبدأ الذي يحَتِّم قصر النظريات العلمية على الحقائق المثبتة علميًّا!

هل كان السبب وراء كل ذلك تخطي «علم التطور» حدود العلم في الحرب الدائرة بين العلماء والكنيسة؟ هل كان السبب تحول «الداروينية» إلى رمز في هذه الحرب الدائرة إلى يومنا هذا؟ هل كان السبب سيطرة العلماء الماديين الملحدين على محافل علم التطور؟ هل كان السبب تحول الداروينية إلى رمز للنظام العالمي الاستهلاكي الجديد في ظل تلاقي مصالح أباطرة المال والإعلام مع مصالح العلماء الداروينيين؟ لا نعلم تحديدًا.

هكذا بدأت في جميع الأحوال أكبر عملية خداع علمي في التاريخ، فكلنا يعلم أن تداعيات النظرية الداروينية التي أسسها العالم البريطاني تشارلز داروين كانت قد تخطت -ومازالت تتخطى- حدود العلم بكثير تحديًا للديانات والروحانيات، نفيًا لمبدأ الخالق، إسقاطًا للفلسفات التوحيدية (مثل فلسفة أرسطو كما سنرى)، وتأسيسًا لعالم استهلاكي مادي قائم على الاستهلاك طلبًا للمتعة في هذه الحياة الدنيا والتي خُطِّط له ألا يؤمن بأي حياة أبدية بعدها!

الإبقاء على اسم النظرية الداروينية (النِيو-داروينية) ومبادئها - رغم أنف العلم واكتشافاته - لا يعبّر عن الحقيقة العلمية بأن النظرية الداروينية التي وضعها داروين سقطت علميًّا في عام 1937 (طبقًا لمعايير داروين نفسه)!

عصر الظلام لم ينتهِ بعد! العلماء الداروينيون مستمرون في الترويج لعقيدتهم - أن القرد هو الأصل الذي تطور ببطء حتى أصبح إنسانًا - وكأن شيئًا لم يتغير بعد سقوط مبدأ «التطور الدقيق» البطيء المؤسس لهذه العقيدة!

وذلك تمامًا كما استمرت كنيسة القرن السابع عشر في الترويج لتعاليمها -أن الأرض هي مركز الكون- رغم إثبات جاليليو سقوط هذا المبدأ!

والأجيال الحديثة من العلماء الناشئين جيلًا من بعد جيل تتم برمجة عقولهم من خلال المناهج الجامعية الداروينية التي يدرسونها في البداية قبل أن يتحولوا ويصبحوا هم أيضًا داروينيين، ضحية لعملية الخداع العلمي التي تحدثنا عنها. أغلب العلماء والباحثين الداروينيين «تطبيقيين» يطبقون ما درسوا وتعلموا وما وصل إليهم من نظريات علمية، ذلك بالطبع على خلاف كبار العلماء «التنظيريين» المختصين بوضع هذه النظريات (أباطرة الداروينية من العلماء أمثال دوبزانسكي وفريقه) والقائمين بالتالي على برمجة عقول أجيال العلماء الجدد من خلال هذه المناهج التعليمية وهذه النظريات. أغلب العلماء الداروينيين أنفسهم في حاجة إلى تعليم وتنوير من نوع جديد يكشف لهم هذه الحقائق العلمية الغائبة عن معظمهم! بل إنهم في حاجة إلى تعليم وتنوير شامل يتخطى الحدود الوهمية التي مازالت تفصل اليوم بين العلوم!

«علامة المساواة» التي وضعها الفريق الدارويني بين مبدأ «التطور الدقيق» و«التطور الشامل» ترتب عليها استمرار مبدأ «السلف المتَطَوِّر ببطء شديد» (القرد الذي تحوّل إلى إنسان مثلًا) رغم أنف العلم! ترتب عليها أيضًا إيمان معظم العلماء التطبيقيين وأجيالهم المتعاقبة بهذا المبدأ!

وهكذا يستمر باحثو الباليونتو-أنثروبولوجي - العلم المتخصص في التنقيب عن أصل الإنسان - في التنقيب عن سلف له من أشباه القردة بالأسلوب نفسه القائم منذ منتصف القرن التاسع عشر، وكأن شيئًا لم يتغير! ليتحول بذلك هذا العلم إلى علم متخلف قائم على ترويج الإلحاد العلمي والداروينية الاجتماعية والاستهلاك المادي تمامًا كما كان الحال في زمن الثورة الصناعية كما رأينا!

تمويل أباطرة المال والصناعة والإعلام للداروينية مستمر إلى يومنا هذا! يكفي أن ننظر إلى مصادر الأموال المستمرة في دعم أبحاث التنقيب عن أصل الإنسان بين أشباه القردة! يكفي أن ننظر إلى مصادر الأموال المستمرة في دعم الجامعات العالمية وكلياتها المتخصصة الداروينية الصبغة وأبحاثها النظرية والعملية!

هناك منظومة غربية عالمية مستمرة في الدفاع عن الداروينية وتزيفها كي تظلّ براقة مقنعة للعالم على المستويين «العلمي» و«الإعلامي»، منظومة عالمية تريد العالم مؤمنًا بالتطور الدارويني دليلًا على عدم وجود خالق وعدم وجود هدف أسمى من هذه الحياة الدنيا! منظومة مستمرة في دفع العالم بعيدًا عن الحياة الأهدأ والأتقى! منظومة تريد العالم مجتمعًا استهلاكيًّا جنسيًّا ماديًّا بحتًا! ليظل بذلك كل منّا سجينًا مسحولًا تائهًا ما بين الإنفاق وسراب اسمه المتعة!

الافتراض الساذج أننا في -هذا الجانب من العالم- في مأمن ديني من ذلك كله هو افتراض ساذج حقًّا لسببين: السبب الأول هو أن الإلحاد الدارويني بدأ يغزو بلادنا بالفعل (خصوصًا طلابها وشبابها)، والسبب الثاني هو ذلك التوغل الواضح «للداروينية المجتمعية» في مجتمعاتنا بل وفي أنفسنا!

من عنده أدنى شك في معدل تمكن الداروينية المجتمعية منه فليسل نفسه الأسئلة التالية: ما هدفي الأول في الحياة؟ ما هدفي الثاني؟ ما هدفي الثالث؟ ما مقدار تعلقي بالنظام العالمي وقيمه المتداولة إعلاميًّا وفنيًّا ومجتمعيًّا؟ ما مقدار تتبعي للموضة والسينما وقيم المشاهير وأسلوب حياتهم المادي؟ ما مقدار إيماني بمقاييس النجاح والفشل بل وتعريف السعادة كما أسسها هذا النظام العالمي؟..

يكفـي أن ننظـر إلـى نمـط وإيقاع الحيـاة المادية الاسـتهلاكية والجنسـية المسـتمرة فـي «غزو» بلادنا (وفـي غزو أسـلوب حياة كل منّـا) منذ منتصف القـرن العشـرين، باعتبـاره نمطًـا واضحًا أيضًا فـي مضمون وسـائل الإعلام المحلية (أغلبها تابـع لاتجاهات الإعلام الغربي كالقطيع)، واضح في النمط الاسـتهلاكي الذي تمكّن من كلٍّ منّا، واضح في أولوياتنا في الحياة.. واضح فـي استسـلامنا للغزو الجنسـي القـادم إلينا من خـلال الإنترنـت. (لا نهاجم الإنترنـت بـل ندافع عنها فلا غنى عنهـا للتقدم على مسـتويات عديدة.. دولة الإمارات العربية المتحدة مثلاً توفر الإنترنت لشـعبها من خلال تكنولوجيا لا تتيح زيارة المواقع الجنسية)!

القـول بأن تخلفنا العلمي والروحاني هدف لكيانات أو جماعات لا نراها ليـس وهمًا من الخيـال، بل قولًا حقيقيًـا واقعيًا. نظرية المؤامـرة حقيقة على هذا المسـتوى كما أثبت التاريخ. أنت وزوجتك (أو زوجك) وأولادك هدف لحركـة عالمية تتحكم فـي اتجاهات الإعلام عالميًا ومحليًا (نكرر لأن أغلب اتجاهاتنـا الإعلامية خاضعة تابعة متخلفة تتبع اتجاهات الإعلام العالمي كما يتبع القطيع الراعي)!

الإعـلام العالمي (ومن بعـده أغلب الإعلام المحلي) يعمـل طوال اليوم وكل يـوم مجـددًا علـى ترويـج «الداروينيـة المجتمعية» من خـلال الأفلام، المسلسـلات، الأغانـي، البرامج، الموضة، المشـاهير، أولوياتهم في الحياة، مقاييـس النجـاح المتداولة، وبقية الأدوات الشـيقة السلسـة التـي تعمل على برمجة عقولنا دون أن نلاحظ، بل وبصورة مسـتمرة يبدو معها كل ذلك وكأنه الشـيء العادي المعتاد الطبيعي. إنها قوة الإعلام وإسـتراتيجيات التسـويق.. قوة عالمية تقدم لنا الحياة المادية الاستهلاكية الجنسية الفارغة التعيسة النهاية – بطرق إعلامية مختلفة – تجعل كلًّا منا يظنّها الحقيقة وطريق السعادة.

الحـرب العالمية الثالثـة حرب داروينية مجتمعية دائرة الآن على مسـتوى العالـم أجمع، بـل دائرة في منزل وفي نفس كل واحـد منا! حرب هدفها غزو العقـول وهـو أخطر أنـواع الغزو، فـالأرض تتحرر إن آجـلًا أو عاجلًا.. لكن العقـل المحتل احتلالًا يورّث عبر الأجيـال، بل إن العقل المحتل عقل يدافع بعـد ذلك تلقائيًّا عن مبادئ وأهداف الغازي! حضارتنا على وشـك الانهيار! وهناك من يعمل بدأب على استعمار عقول أجيالنا الصاعدة!

الحـرب العالمية الثالثة حرب تخطت مبدأ الأسـلحة التقليدية المحدودة المفعـول والنتائج، حرب تسـتخدم العلم والإعلام تأسيسًـا لعالم الظلمات، حرب ثقافية علمية تنافسـية لا روحانية، حرب متشـعّبة على مستويات عديدة ودقيقة جدًّا. كلٌّ منّا هدف لهذه الحرب العالمية الثالثة الدائرة الآن في منزلك بل وفي عقلك من خلال وسـائل الإعلام والإنترنت، دع جانبًا مناهج التعليم الداروينية المستوردة العاملة على برمجة عقول أبنائنا.

كلٌّ منّا مشارك في هذه الحرب العالمية الثالثة إيجابيًّا أو سلبيًّا، كإنسان حر مسـتنير متزوّد بالعلم النافع أو كمسجون جاهل مظلِم! كفارس قائم على نشر الوعي العلمي السليم أو كأسير تابع مغَيَّب.

اكتشاف الجينات:
مندل يتحدى داروين

أهـم حـدث في تاريـخ علوم التطـور (وعلـوم الأحياء والطـب أيضًا) هو اكتشـاف الجينات وتأسـيس علم متخصص في دراسـتها – علـم الجينات – ذلـك العلم الأحدث الـذي تقترب دقته من دقة علم الكيمياء، بل وتقترب من دقـة المعادلات الرياضية! دقة تجعل من الفارق بينه وبين جميع علوم التطور الأخرى شبيهًا بالفارق بين سفينة الفضاء والسفينة البخارية!

الجينـات مشـهورة بيننا على أنها الوحدات المسـئولة عن انتقال الصفات الوراثيـة بين الأجيال (الطول، تكويـن العينين ولونها، ... إلخ)، إلا أن دورها أكبـر وأخطر مـن ذلك بكثير. جينات كل كائن حي (من الخلية إلى الإنسـان) هـي تحديدًا ما يحدّد نوعه بين الكائنات المختلفة، إنها ما يحدّد أدق تفاصيل هندسـته الخارجية والداخلية، بما في ذلك أنواع وأشـكال وأحجام الأعضاء المكوِّنة له، بل هي ما يحدد أيضًا طريقة عمل كل عضو من أعضائه!

الجينـات هي السـر الأعمق في قصة تطور الحياة، السـر الأعمق في قصة نشـأة الكائنات خلقًـا من بعد خلقٍ، وهي أيضًا ذلك الاكتشـاف العلمي الذي وضع نظرية التطور الداروينية رأسًـا على عقب وأوجب تصحيحها مرتين في ثلاثينيات ثم سبعينيات القرن العشرين!

تعـود قصة اكتشـاف الجينـات إلـى النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر اعتمادًا على رجل واحد كان يعمل في هدوء وفي عزلة عن الحياة. أما المدهش

فهو أن هذا الرجل لم يكن عالمًا حاصلاً على شهادات عالية متخصصة في علم التاريخ الطبيعي (علم الأحياء)، بل كان رجلًا قد استكمل تعليم نفسه بنفسه بصورة شبه مستقلة حبًّا في العلم والمعرفة وسعيًا وراء الحقيقة!

إنه الراهب النمساوي جريجور مندل (1822–1884) مكتشف الجينات في عام 1865، إنه أيضًا جريجور مندل الذي كان قد رسب قبل ذلك في الامتحان كي يصبح مدرسًا للتاريخ الطبيعي (علم الأحياء)! بل هو جريجور مندل الذي كانت أقل درجاته في المدرسة هي درجاته في علم التاريخ الطبيعي الذي كان على وشك أن يضع قواعده القديمة رأسًا على عقب!

ربما ارتبط كل ذلك برفض جريجور مندل فهم أو تداول علم التاريخ الطبيعي (علم الأحياء) بالطريقة التقليدية المتداولة آنذاك. قد يكون الراهب العبقري جريجور مندل أول إنسان في تاريخ العلم يتعامل مع علم الأحياء من خلال منطق علم الرياضيات كما يحدث منذ عصور طويلة في علوم الفيزياء والكيمياء، بل إن مندل تنبأ بقدوم زمان يكون فيه علم الأحياء قد تطورت دقته إلى درجة تمكن شرح نظرياته من خلال دقة المعادلات الرياضية، وهذا ما يحدث «جزئيًّا» اليوم من خلال علم الجينات الذي اكتشفه!

جاء إنجاز مندل التاريخي أثناء قيامه بتجارب في حديقة الدير الذي كان يعيش فيه، تجارب كانت قد هدفت إلى اكتشاف آلية انتقال الصفات الوراثية بين أجيال الكائن الواحد، تجارب كان مندل قد اختار نبات البازلاء للقيام بها، وذلك أغلب الظن لبساطة تكوينها وسرعة نموها.

كان مندل يقوم بتزويج أصناف البازلاء بأساليب مختلفة قبل أن يقوم بتحليل النتائج، وفي النهاية – بعد عمل كثير وإصرار طويل – توصل الراهب العبقري جريجور مندل إلى اكتشاف وجود «وحدات معلوماتية» مسئولة عن

نقل الصفات الوراثية (شـكل الكائن وتفاصيـل أعضائه) بين أجيال الكائنات الحية أثناء تكاثرها.. هذه بكل بساطة هي «الجينات».

حقيقـي أن اكتشـاف الراهـب العالـم المسـتقل العبقـري جريجـور مندل للجينات في عام 1865 كان على وشك أن يأخذ علوم الأحياء والتطور والطب إلـى آفاق جديدة لـم يكن العلماء ليحلمـوا بها من قبل ليمَكِّـن بذلك إحداث ثـورة حقيقية في هـذه العلوم واكتشـافاتها، إلا أن هذه الثـورة العلمية تأخرت بدايتها خمسة وثلاثين عامًا كاملة عن العام الذي اكتشف فيه مندل الجينات!

ذلك أن اكتشاف مندل للجينات ظلَّ مرفوضًا من قبل العلماء المتخصصين حتـى العـام 1900 بعد أن رفضه آنذاك العلماء الأكثر نفـوذًا والذين لم يقتنعوا أصـلًا بوجود الجينات، ولم يأخذوا مأخذ الجد اكتشـاف مندل الذي لم يرقَ أصلًا لأن يصبح مدرسًا لعلم الأحياء ولم يكن في مركزهم العلمي!

النظريـة الغالبة بين العلماء الأهم آنذاك كانت نظرية «الصفات الممتزجة» Blended Characteristics، نظريـة دفعـت أن صفـات الأب وصفات الأم تختلـط ببعضها كما تختلط الألوان ببعضها لتنشـأ بذلك صفات أعضاء الابن أو البنت (الصفات الوراثية) تمامًا كما ينشـأ اللون الجديد من لونين أقدم بعد مزجهما، نظرية فشـلت في تفسـير سـبب ظهـور صفات الجد مـن الأب مثلًا (لـون عينيه مثلًا) مجددًا عنـد الأحفاد بعد اختفائها عنـد الأب وغيابها أصلًا عن عائلة الأم!

دفعـت نظرية مندل في الصفات الوراثية بأن كلَّ كائن من الكائنات يتكوّن مـن طاقميـن كاملين من الجينات المحـددة لصفاته الوراثيـة، طاقم مقدم من الأب وطاقـم مقدم مـن الأم. نظرية مندل دفعت أيضًا بأن تكامل وتفاعل هذه الجينـات معًا (أثناء عملية التزاوج والتكاثـر) يترتب عليه تفوق بعض جينات الأم وبعـض جينات الأب.. الجينات المتفوقة مـن الجانبين تكوّن معًا طاقمًا

متكامـلًا من «الجينـات الفاعلـة» المحددة معًـا لصفات الكائـن دون اختفاء الجينات الأخرى والتي يقـوم بتخزينها قبل نقلها للأجيال القادمة لتظهر ربما عند الحفيد أو سلالته.

كان أحـد العلمـاء الرافضين اكتشـاف منـدل – أي الرافضيـن مبدأ وجود الجينـات أصلًا – العالم البريطاني تشـارلز داروين الذي كان قد اشـتهر كثيرًا بعد نشـر نظريته والتي كانت قد نشـرت قبل نظرية مندل بسـت سـنوات. كان دارويـن أحـد المدافعين عـن نظرية «الصفـات الممتزجة» كما ذكـر في بداية كتابه «أصل الكائنات» (الذي نشـر فيه نظريته) كآلية مسئولة عن نقل الصفات الوراثية بين الأجيال أثناء تطورها!

مـا لم يكن ليتوقعه دارويـن بالطبع أن تكون هذه الجينـات (التي لم يقتنع أصـلًا بوجودهـا) الآليـة الحقيقية المسـئولة –ليس فقط عن انتقـال الصفات الوراثية بين الأجيال– وإنما أيضًا عن ظاهرة «تطور الحياة» التي كان قد وضع النظريـة الداروينيـة بهدف تفسـير آليتها، ومـا لم يكن ليتوقعـه أيضًا أن يصبح اكتشـاف مندل (الذي رفضه) حقيقة علمية اسـتوجبت تصحيح نظريته مرتين خلال القرن العشرين!

الجديـر بالذكـر هـو أن الرفض بيـن داروين ومنـدل كان متبـادلًا.. مندل رفـض نظرية التطور الداروينيـة، ولـم يقتنع بتفاصيلهـا. كان الراهب العبقري علـى قناعـة بأن الكائنات نشـأت مـن خلال عمليـات «تكامل» طبيعية أشـبه بعمليـات «التهجيـن» التـي درسـها! وقـد كان محقًّـا فـي ذلـك أيضًـا! فهذا تحديـدًا ما أكدته الاكتشـافات العلميـة خلال القرن التالـي لوفاته، بل إن هذا مـا قد يضع مندل في طليعة قائمـة العلماء المتنبئين بنظرية «التطور التكاملي» Symbiogenesis قبل تأسـيس العالـم السـوڤييتي بوريس كوزو–بولينسـكي لها (كما رأينا) بحوالي ستين عامًا.

قبول نظرية العالم المستقل العبقري جريجور مندل جاء ما بين عام 1900 وعام 1901 بعد قيام ثلاثة علماء – كلٍّ على حدة – بتجارب جاءت نتائجها لتؤكد صحة اكتشاف مندل للجينات.

أتاح تقدم علم الجينات بعد ذلك في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين مرحلة جديدة من البحث العلمي لم تشهدها العلوم المعنية بدراسة «تطور الحياة» قبلها، مرحلة مختلفة تمام الاختلاف عن مرحلة النظريات العلمية القائمة على «رؤية العين المجردة» والتي كانت قد شكلت بطبيعة الحال المنهجية المؤسسة للنظرية الداروينية عند نشأتها في منتصف القرن التاسع عشر، مرحلة شملت فيما شملت إمكانية مقارنة جينات الكائنات الحية تأكيدًا أو نفيًا للنظريات المتنافسة.

أثبتت الحقائق العلمية المكتشفة قبل نهاية القرن العشرين اعتماد جميع مراحل تطور الحياة – من الخلية إلى الإنسان – على عمليات «تكامل» و«تفاعل» بين الجينات! هذا وإن اختلف العلماء في تفسير الآلية المسئولة عن دفع الجينات إلى التفاعل خلال السبعمائة مليون عام الأخيرة.

جميع العلماء متفقون حول الحقيقة العلمية الثابتة اليوم أن ظاهرة «التكامل الداخلي» (التي اكتشفتها العالمة لين مارجوليس) هي تحديدًا ما أنشأ أول «جين» («الجين» الواحد المكون للخلية اليوكاريوتية) من تكامل وتفاعل وصلات الحمض النووي الديوكسير DNA المكونة للخلايا البدائية البروكاريوتية الأقدم التي أنشأت هذه الخلية المتقدمة من عمليات تكامل وتفاعل كما رأينا، وعمليات «التزاوج التهجيني» هو ما دفع بعد ذلك الجينات المختلفة إلى الاستمرار في الاتحاد والتكامل والتفاعل إنشاءً لكائنات أكبر ثم أكبر وأكثر ثم أكثر تقدمًا وزيادة في التكوين الجيني.

الجين الواحد ما هو إلا مجموعة ضخمة لا حصر لها من «وصلات» عديدة مختلفة من مادة الحمض النووي الديوكسير DNA التي كانت قد شكّلت في البداية إحدى المواد العضوية الذكية المنشئة للخلية البروكاريوتية من المادة (المنشأة للحي من الميت)، المادة الذكية التي تحدثنا عنها والمسئولة عن تسجيل تفاصيل الخلية وأعضائها والقائمة بدور مركز القيادة المسئول عن إدارة هذه الأعضاء والتنسيق بينها تنفيذًا لوظائف الخلية الحيوية، المادة الذكية المسئولة أيضًا عن «نسخ» مكونات الخلية لتمكين تكاثرها عن طريق الانقسام، وكل ذلك بفضل إشارات «نورانية» كهرومغناطيسية كما رأينا!

كل جين من الجينات مثله مثل الأعداد الضخمة من «مادة» الحمض النووي الديوكسير DNA المكوِّنة له ما هو إلا تيار «نوراني» كهرومغناطيسي معقّد بصورة لا يمكن تخيلها، تيار نوراني مرَكَّب ناشئ عن تكامل الموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات) المُنشئة بدورها لكل وصلة من وصلات الحمض النووي الديوكسير DNA كما رأينا.

حقيقي أن الجين ما هو على المستوى العلمي الأدق إلا تيار نوراني متَكوِّن من موجات نورانية (بروتونات وإلكترونات) مثله مثل جميع المواد الأخرى الموجودة في هذا الكون، إلا أن طبيعة تكوين التيار «النوراني» الفريد المكون للجين تحديدًا هي ما تجعل منه ذلك المصدر «المعلوماتي» العجيب القائم على تحديد شكل ومواصفات كل كائن من الكائنات الحية.

التيار النوراني – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا منشئًا للجينات – هو بذلك «المصدر» القائم على «تحديد» أنواع وأشكال الكائنات الحية من خلال «تفاعلات نورانية» مَنَظَّمة وبغض النظر عن التفاصيل العلمية المتنازعة عما حدث خلال السبعمائة مليون عام الأخيرة (والتي لم تثبت بصورة قاطعة مثل ما سبقها من فترات كما رأينا)!

الثابت علميًّا والمتفق عليه بين الجميع - كما يؤكد الداروينيون أنفسهم - هو أن الجينات هي الأداة المسئولة عن تطور الحياة في جميع مراحلها (من الخلية إلى الإنسان) عبر تاريخ تطورها على كوكب الأرض والبالغ ثلاثة مليارات وثمانمائة مليون عام!

إنها السر الذي مَكَّن التفاعل الكيميائي الحيوي بين الكائنات المتكاملة والمتفاعلة معًا كما رأينا من إنشاء هذه الكائنات خلقًا من بعد خلقٍ: السر الذي مَكَّن عمليات «التكامل الداخلي» بين الخلايا البدائية «البروكاريوتية» من إنشاء الخلية «اليوكاريوتية» المتطورة خلقًا آخر قبل مليار وخمسمائة مليون عام، السّر الذي مَكَّن بعد ذلك عمليات التفاعل بين أعداد وأنواع هذه الخلايا «اليوكاريوتية» المتَطَّورة من إنشاء كل كائن من الكائنات الرخوية (المضغة) المتعددة الخلايا قبل مليار ومائة مليون عام، السر الذي مَكَّن بعد ذلك عمليات «التزاوج التهجيني» بين هذه الكائنات الرخوية (المضغة) من إنشاء الكائنات الأحدث ثم الأحدث خلقًا من بعد خلقٍ مدة ستمائة مليون عام إلى أن نشأت أولى الكائنات الحية الحديثة (ذات الأعضاء الصلبة)، بل السر الذي مَكَّن نشأة الكائنات الحية الأحدث مثل الإنسان (بغض النظر عن التفاصيل كما يقر الداروينيون أنفسهم)!

فلنأخذ مثلًا عملية «التزاوج التهجيني» بين كائنين من الكائنات الرخوية (المضغة) والمسئولة عن إنشائهما معًا خلقًا واحدًا جديدًا مختلفًا (خلقًا آخر) كما رأينا. عملية «التزاوج التهجيني» هذه كان ينتج عنها تلقائيًّا شيئان.

الشيء الأول هو زيادة «عدد» الجينات - أي زيادة كمية «المعلومات النورانية» - المسئولة عن تحديد شكل وتكوين وأعضاء ووظائف الكائن الناشئ من هذا التزاوج التهجيني. الشيء الثاني هو «تفاعل» هذه الجينات

(أي تفاعل هذه المعلومات النورانية!) المتلاقية معًا إنشاءً لجينات جديدة (أي أوامر نورانية جديدة!) مسئولة عن إنشاء الخلق خلقًا آخر!

تفاعل الجينات عند تلاقيها تفاعل كيميائي (تفاعل نوراني كهرومغناطيسي) شبيه بتفاعل المواد معًا. تفاعل نوراني كهرومغناطيسي يتم على مستوى وصلات الحمض النووي الديوكسير DNA المكوِّنة لهذه الجينات إنشاءً لجينات جديدة، جينات جديدة (أوامر نورانية إنشائية جديدة) لم تكن موجودة على المستوى السابق! ظاهرة يطلق عليها العلماء لقب «إعادة التركيب الجيني» Genetic Recombination!

وبما إن الجينات هي مركز المعلومات والقيادة المسئول عن إنشاء تفاصيل تكوين كل كائن حي، فإن نشأة هذه الجينات الجديدة المختلفة - الأكبر عددًا والأكثر تقدمًا - يترتب عليها تلقائيًا صدور تعليمات نورانية جديدة (إشارات نورانية كهرومغناطيسية جديدة) تقوم بتوجيه الخلايا (والمواد) المتلاقية معًا من خلال تفاعلات كيميائية حيوية متقدمة تقوم بدورها بإنشاء كائن حي جديد مختلف (عن سابقيه المتزاوجين تهجينيًا)! لينشأ بذلك كائن جديد (خلقًا آخر) ذو شكل وأعضاء لم تكن متواجدة على المستوى السابق! مرحلة ظهور الأعضاء الجديدة يمكن تخيلها نوعًا ما من خلال نموذج تحول شرنقة دودة القز إلى فراشة (تشبيه غير دقيق بالمرة وإنما للتقريب فقط).

خلاصة كل ذلك هو أن التفاعلات الكيميائية (التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسية) هي -وهي فقط- ما أنشأ كل كائن من الكائنات الحية من الخلية البدائية بما في ذلك «الإنسان» بغض النظر عن أية تفاصيل ثانوية مازالت متنازعة بين العلماء (التنازع حول الأصل المباشر للإنسان)! أي إن النور - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هو وهو فقط ما أنشأ الإنسان بغض النظر عن التفاصيل!

إن كل تنازع وكل خلاف حول التفاصيل ما هو اليوم إلا تحصيل حاصل؛ فالتفاعـل النوراني – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشـأ ونظم عملية التـزاوج التهجيني بين الكائنات، وهو ما أنشـأ ونَظَّم عملية التكامل والتفاعل بيـن جيناتهـا، وهو ما مَكَّـن عملية «إعـادة التركيـب الجيني» إنشـاءً لجينات جديـدة (أوامـر نورانية جديـدة)، وهو ما ترجـم هذه الجينـات إلى تفاعلات كيميائيـة حيوية (بين الخلايا والمواد المكَوِّنة لها) إنشـاءً لجميع الأعضاء بل والكائنات الأحدث التي لم تكن موجودة على المستوى السابق!

علم الجينات (أكثر العلوم تقدمًا ودقة) يؤكد لنا هو الآخر على مستواه أن التفاعلات النورانية – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشأ الخلق خلقًا آخر، بل يؤكد لنا بصورة نهائية قاطعة (تعلو فوق التفاصيل المتنازع عليها) أن الخالـق الباطـن – المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشـأ الكائنـات الحية جميعًا بما في ذلك الإنسان في النهاية!

هكذا استمر الخالق الباطن العليم – المُتَجَلّي نورًا – في تركيب الكائنات الحية كيفما شـاء، وهكذا اسـتمر في إعطائها طبيعة خلقهـا من خلال تيارات نورانيـة قائمـة علـى إنشـاء الخلق قبـل إنشـائه خلقًا آخـر. (الكائنـات الحية الأحـدث – بمـا في ذلك الإنسـان – ما هـي أيضًا في حقيقتهـا العلمية الأدق (مثلهـا مثل الكائنات الرخوية المضغة التي أنشـأتها) إلا تيارات نورانية بالغة التعقيد، فريد كل منها في تكوينه).

هكذا أيضًا اسـتمرت الأعضاء في التقدم التدريجي في نشأتها وتكوينها، عبر مليارات السنين من خلال التفاعل الكيميائي (التفاعل النوراني الكهرومغناطيسي) المسـئول عن إعـادة تركيب الجينات إنشـاءً لجينات جديدة مسـئولة عن إنشـاء أعضاء جديدة (أي أعضاء أكثر تقدمًا وتعقيدًا) من الأعضاء القديمة.

الإبصـار مثلا لـم يظهر -على ما يبـدو- فجأة على هيئة عيـن، وإنما ظهر فـي البداية في مرحلة ما عند الكائنات الرخوية (المضغة) البسـيطة على هيئة خلايـا استشـعار للضوء، ذلك قبل أن تـؤدي عمليات التّـزاوج التهجيني إلى زيادة تكوين الجينات المسـئولة عن هذا الاستشعار الضوئي زيادة في تكوين وتخصـص هذه الخلايا، وهكذا، وهكذا من جديـد إلى أن ظهرت في النهاية (بصـور مسـتقلة كمـا رأينا وفـي اتجاهـات متعددة) أنـواع العيـون المختلفة بإمكاناتهـا ووظائفهـا المتباينة عنـد الكائنات المختلفة (عين السـمكة مقارنة بعين الإنسان مثلًا).

هكذا أيضًا استمر تكامل وتفاعل الجينات إلى أن نشأت الكائنات الحديثة بمـا تشـمله من أعضـاء صلبة (مثل شـوك الأسـماك وأجنحة الطيـور وعظام الحيوانـات)، وبما تشـمله مـن أعضاء حديثة (مثـل القلب والـدورة الدموية والرئـة والعيـون ومـا إلى ذلك)، وبما يكسـوها مـن لحم حل محـل الخلايا السليلوزية الأسبق.

أعضـاء الكائنـات الحية الحديثة هـي تحديدًا ما يطلق عليـه علماء التطور لقـب «الابتـكارات الفاتحـة» Key Innovations، ذلـك أن نشـأتها مَكَّنَـت بدورهـا ثورات عجيبة في عالم الأحياء، ثورات شـملت -فيما شـملت على سـبيل المثـال وليس الحصـر- السـمع، البصر، التنفس، السـباحة، المشـي، الجـري، الطيران! ثورات عديدة (مقارنة بالخلية والكائنات الرخوية المضغة الأولـى) أخـذت الحياة إلـى آفاق جديدة بديعـة تخطّت فـي كل مرحلة آفاق حاضرها (يكفي أن نقارن الخلية بالطائر مثلًا لنفهم مدى إعجاز هذه الثورات التي شهدها عالم الأحياء).

«الابتـكارات الفاتحة» ابتكارات محورية شـكّل كل منها ثورة لم يكن من الممكن التنبؤ بها على المسـتوى السابق لنشأتها! هذا تحديدًا ما يجعلها أكثرَ

شـيءٍ إبهارًا لعلمـاء التطور الداروينييـن! بل ما يجعل منها ذلـك اللغز الأهم الـذي مازال يحيرهـم جميعًا إلى يومنا هـذا بعد عجز النظريـة الداروينية عن الإجابـة عن السـؤال: من أين جاءت هـذه «الابتكارات الفاتحـة» بعد أن «لم تكن شـيئًا» موجودًا على المستويات السـابقة؟! كيف نشأت هذه الابتكارات الفاتحة لمجرد تكامل وتفاعل عدد من الجينات؟!

حـل هـذا اللغز العلمـي الأهم يسـتوجب تسـليم العلمـاء الداروينيين بأن الجينات ما هي إلا أداة تصوير «للغة خلق باطنة» تمامًا كما تصَوِّر أدوات «اللغة المنطوقـة» معانيها الباطنة في عقولنـا! الفارق الوحيد بالطبع هو أن لغة الخلق الباطنة لغة حروفها من نور (موجات نورانية من بروتونات وإلكترونات)!

«الابتكارات الفاتحة» دليل جديد على صفات النور المنشِـئ لها، دليل أن الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا منشئًا للغة الخلق النورانية – هو أيضًا «الفتّاح» مصدر هـذه الابتكارات «الفاتحـة» التي فتحت على عالـم الأحياء اتجاهات أكثـر ثم أكثـر تقدمًا! و«البديع» مصـدر كل هذا التنوع البديـع الذي فتح على عالم الأحياء اتجاهات أكثر ثم أكثر إبداعًا!

«الابتـكارات الفاتحة» دليل أيضًا على الخالق الباطـن – المتجَلّي نورًا – هـو أيضًـا «المصَوِّر» القائم و«القـادر» على تصوير المعانـي الباطنة في عِلمه المطلق (لغة الخلق الباطنة) من خلال التيارات النورانية الصادرة عنه!

تسـليم الداروينييـن بوجـود «لغـة خلق باطنة» أمـر حتمي لا مفـر منه! إنه هو أيضًا سـبيلهم الوحيد لتفسـير حقيقة علمية أخـرى مازالت تحير الجميع: كيـف نشـأ الإبصار (العيـون) عند أنـواع مختلفة مـن الكائنـات – من خلال أطقـم جينات مختلفة – أكثر من «أربعين» مـرة (كما تحدثنا قبل ذلك) بطرقٍ «مستقلة» عن بعضها؟!

نشـأة الإبصار (العيون) عنـد الكائنات المختلفة بطرقٍ «مسـتقلة» أربعين مـرة – من خـلال أربعين طاقمًـا مختلفًا من الجينات – شـيء يمكن تشـبيهه بالمرادفات التي تمَكِّن التعبير عن المعنى اللغوي نفسـه بأكثر من طاقم واحد مـن الحروف: أن تقول مثلًا «صباح الخير» في المرة الأولى، ثم تقول «عمّتَ صباحًـا» في المرة الثانية ثم تقول «صباحك سـعيد» في المـرة الثالثة، وهكذا وهكذا، أن يكون هناك أربعون طاقمًا مختلفًا من الحروف يمكنك من إنشـاء المعنى نفسه.

أطقـم الجينـات الأربعون – القائمة على إنشـاء الإبصـار (العيون) بطرقٍ مختلفـة – لا تقـف فقـط كدليل علمي على وجـود لغة خلقٍ باطنـة، بل تقف أيضًـا دليلًا علميًّا حيًّـا على أن «لغة الخلق النورانية» هـذه أغنى وأقوى بكثير من أي لغة منطوقة في العالم، فلا توجد لغة في العالم تمكننا من قول «صباح الخير» أو أي عبارة أخرى بأربعين طريقة مختلفة!

بـل إن أطقم الجينـات الأربعين هذه تمكننا من تخطـي الحديث عن «لغة الخلـق النورانية» برمَتِها إلى ما هو أبعد منها بكثير جدًّا، ألا وهو الحديث عن صفـات الخالق الباطـن المُتَجَلّي نورًا منشـئًا لهذه اللغة النورانيـة! تخطٍّ يبدأ بسـؤال محدد: كيف يمكن أن ينشـأ الإبصار بأكثر من أربعيـن طريقة مختلفة إلا إذا كان الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا منشئًا للإبصار بطرقٍ مختلفة – هو المصدر المطلق لكل إبصار؟

لا توجـد فـي النهايـة إلا إجابـة واحـدة عـن هذا السـؤال: الإبصـار صفة «مطلقـة» من صفـات الخالق الباطن! والخالق الباطـن – المُتَجَلّي نورًا – هو أيضًـا بذلـك «البصير» مصدر ومنتهى كل إبصار (و«السـميع» مصدر ومنتهى كل سمع) كما ذكرنا قبل ذلك من خلال حقائق علمية من طبيعة مختلفة!

علم الجينات يبعث إلينا – على مستواه أيضًا – بالرسالة العلمية نفسها التي بعثت بها جميع العلوم الأخرى قبل ذلك على مستوياتها المختلفة: الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا منشئًا للجينات وتفاعلاتها وكائناتها الحية وأعضائها – هو حقًّا الخالق الواحد الوحيد مصدر كل خلق وكل تطور وكل حياة.

التحدي الأكبر – لمن يدرك جميع هذه الحقائق العلمية في صورتها الأشمل والأدق – لا يكمن في التأكد من وجود خالق باطن عليم (مصدر معلوماتي مطلق): التحدى الأكبر يكمن في أن يرضخ العقل والقلب معًا لهذه الحقيقة التي تفوق قدرة الملحد والمؤمن معًا على التخيّل، الحقيقة أن الخالق الباطن العليم أعظم من أن نستوعبه، وكيف نستوعبه والنسبي (مثلنا) محدود لا يستطيع علمه القليل الإلمام بالمطلق الذي وسع كل شيء علمًا؟!

حقيقي أن الحلقة الأخيرة في مسلسل نشأة الكائنات الحديثة لم تثبت بعد، إلا أن الجميع – بما في ذلك الداروينيون أنفسهم – يتفقون حول الحقيقة العلمية الثابتة اليوم من أن تكامل وتفاعل الجينات (إعادة التركيب الجيني) هو الآلية الحقيقية المسئولة عن إنشاء الكائنات جميعًا انتهاءً بالإنسان (بغض النظر عن النزاع حول قصة القرد أو أية تفاصيل أخرى بما إن الداروينيين أنفسهم عدَّلوا نظريتهم – نظرية القرد أصل الإنسان – في القرن العشرين بعد اكتشاف الجينات ودورها، قائلين بأن إعادة التركيب الجيني Genetic Recombination هي تحديدًا الآلية التي طورت القرد إنشاءً للإنسان)!!

وهو ما يتضمن بالتالي إقرارهم الضمني بأن النور – الخالق الباطن المتَجلّي نورًا منشئًا لإعادة التركيب الجيني المنشأ للإنسان– هو وهو فقط ما أنشأ الإنسان! هذا وإن جهلوا هذا الاقرار «الضمني» لوقوعهم داخل الحدود التي تفصل ما بين العلوم وتجزأها وتحول دون الرؤية الشاملة كما تحدثنا!!

النظريـة «الألترا-داروينيـة» Ultra-Darwinism نظريـة مسـتجَدة فـي سـبيعينيات القرن العشـرين كتصحيح جزئي للنظرية النِيو-الداروينية اعتمادًا علـى كثير مـن الحقائق العلمية التي ذكرناها في الصفحات السـابقة، و«عبارة الألترا-داروينيـة» نفسـها لهـا معنيـان عنـد ترجمتهـا. أولهمـا «الداروينيـة القصوى»، ثانيهما «ما بعد الداروينية».

نظرية الألترا-داروينية نظرية تهدف إلى الربط بين الحقائق العلمية الخاصة بالجينـات من جانب ومبادئ نظرية داروين من جانب آخر، نظرية تهدف فيما تهـدف إلى ربـط دور الجينات في إنشـاء الكائنات الحية بظاهـرة «الانتخاب الطبيعي» كآلية مسئولة عن انتقاء الكائنات وبالتالي الجينات الأفضل.

العلاقة بين إعادة التركيب الجيني (المسئول عن إنشاء الكائنات الجديدة) من جانب وظاهرة الانتخاب الطبيعي (المسـئولة عن بقائها أو انقراضها) من جانب آخر علاقة حقيقية تستحق الدراسة والاستكشاف.

إلا أن النظريـة «الألترا-داروينيـة» تحـاول بطبيعة الحال تأسـيس الصدفة والعشـوائية أساسًـا لعمليـة التركيـب الجينـي، وبالتالـي أيضًا أساسًـا لنشـأة الجينـات الأحدث - الجينات المسـئولة عن إنشـاء الكائنـات الحية الحديثة مثل الإنسـان، ذلك أنها نظرية تدفع -فيما تدفع- بطبيعة الحال بتطور جينات الإنسان عشوائيًا عن جينات كائن من أشباه القردة.

نظرية «الألترا-الداروينية» نظرية تحاول تحديث وتصحيح مبادئ النظرية الداروينية القديمة وتطبيقها على مسـتوى الجينات بصورة مباشـرة بعد ثبوت دورهـا (بدلًا من مسـتواها الأصلي مسـتوى الكائنات كما أسّـس داروين في منتصف القرن التاسع عشر قبل اكتشاف الجينات).

إلا أن هـذه النظريـة الألترا-داروينيـة - والتـي تبـدو لكثيـر مـن العلمـاء الداروينييـن والمثقفين نظريـة غاية في التعقيد والتقدم - لا تعدو كونها نظرية سـطحية جدًّا، بل نظرية سـاذجة إذا مـا تجاوزنا الحـدود الوهمية التي تفصل بين علـم التطور من جانب وعلم الكوانتم (المعني بدراسـة النور وتكويناته) مـن جانب آخـر، ووضعنـا بذلك الجينـات في مضمونهـا الحقيقـي كامتداد للتفاعلات النورانية الكهرومغناطيسـية المسـئولة عن إنشاء كل شيء في هذا الكون من الذرة إلى الإنسان وتأكدنا بالتالي من اعتمادها على «نظام» نوراني واضـح جدًّا، وعلمنا بذلك «سـطحية» حديثها عن الصدفـة! النظرية الألترا-داروينية على هذا المسـتوى الأعمق نظرية سـطحية جـدًّا لا تلتفت أصلًا إلى اعتماد الجينات في نشـأتها ودورها على تفاعلات «نورانية» كهرومغناطيسية «مَنَظَّمَة» منبثقة عن النظام النوراني المسئول عن إنشاء كل شيء في هذا الكون من الذرات إلى المجرات إلى الكائنات الحية!

النظرية الألترا-داروينية لا تعدو اليوم كونها نظرية محبوسة داخل الحدود التـي تفصـل بين العلوم المختلفة (خصوصًا بيـن الفيزياء من جانب والأحياء وعلم التطور من جانب آخر) وتجزئها، الحدود المسـئولة عن فقدان البصيرة كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب! تأسـيس النظرية الألترا-الداروينية في نهاية القرن العشرين في «معزل» عن المضمون العلمي الأشمل خطأ فادح سيتذكره تاريـخ العلم إن عاجلًا بعد سـنوات أو آجلًا بعد قـرون تمامًا كما تذكر أخطاء نظريات أخرى بدت للبعض برّاقة في الماضي (فيزياء نيوتن مثلًا)!

المدهـش والرائع معًا - الحقيقة الباقية في جميع الأحوال كما ذكرنا - هو أن مجـرد إقرار العلمـاء الألترا-داروينيين اعتماد نشـأة الكائنات الحية جميعًا علـى الجينات وتفاعلاتها هو في الحقيقة العلمية الأدق إقرار ضمني منهم بأن

«النظام» (التفاعلات النورانية الكهرومغناطيسـية) وليست الصدفة هو ما أنشأ الكائنات جميعًا بما في ذلك الإنسان!

اتصـال علم الجينات (العلم المسـئول عن دراسـة نشـأة الكائنات الحية) بعلـم الكوانتم (العلم المسـئول عن دراسـة التيارات النورانية المنشـئة للذرة المنشـئة بدورهـا للجينات) ثورة علمية جديدة لا مفـر منها في القرن الحادي والعشـرين، ثورة علمية لا يدركها اليوم إلا القليل جدًّا من الناس، ثورة علمية يمكن تلخيصها في جملة واحدة: النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو ما أنشـأ الكائنات جميعًا انتهاءً بالإنسـان، بغض النظر عن أية تفاصيل متنازعة إلى يومنا هذا!

قصة الخلق من العدم (5):
نشأة الإنسان

عندما حاول العلماء تلخيص إجمالي تفاصيل الفوارق التشريحية العديدة بين أعضاء الإنسان من جانب وبقية الكائنات الحية جميعًا (بما فيها «إنسان النياندرثال» و«إنسان الوقوف» أقربها إليه) من جانب آخر لم يجدوا إلا جملة واحدة تمكّنهم من ذلك:

قدرة الإنسان على «إنباء الأسماء كلها»!

هذا تحديدًا ما يوضحه العالم الداروني دوجلاس بالمر في كتابه «سبعة ملايين عام» والمعني بدراسة تطور الإنسان داروينيًّا عن أشباه القردة! أما المدهش فهو أن هذه العبارة التي قد تبدو بسيطة لأول وهلة تشمل في تفاصيلها الدقيقة كما سنرى قائمة طويلة جدًّا من الأعضاء الفريدة - المتشعّبة والمتناغمة - على مستويات لم نكن لنتخيلها أصلًا!

دعونا نذكر أولًا أن الإنسان هو الكائن الوحيد بين جميع الكائنات الحية الذي تجتمع له قدرة إعطاء اسم لكل شيء في الكون، وهو الوحيد الذي تجتمع له قدرة على «تَعَلّم هذه الأسماء كلها» بل ونطقها من خلال عبارات وجمَل مركبة.

هناك كائنات أخرى ناطقة مثل النحل والنمل وإنسان النياندرثال على سبيل المثال، حيوانات يتحدث كلٌّ منها لغة خاصة به، إلا أن اللغة التي يتحدثها أفراد كل نوع من هذه الحيوانات فيما بينها «لغة محدودة» تتكون من

كلمـات قليلة جدًّا تقتصر وظيفتها على تسـمية مهام حياتيـة يومية مثل تجهيز الغذاء أو ما شابه.

الإنسـان هو الكائن الوحيد الـذي تتخطى عنده اللغة نطاق وظائف الحياة المعيشـية، لتعبّر بذلك عن قدرة عقلية فريدة من نوعها قادرة على تصنيف أي شـيء في هذا الكون، قدرة كشـفت بدورهـا النقاب عن أعضـاء و«ابتكارات فاتحة» خصّت الإنسان فقط من دون المخلوقات جميعًا، ابتكارات تشريحية متشـعّبة ومتناغمة على خمسة مسـتويات مختلفة لم نكن لنتخيل تناغمها، بل لم نكن لنتخيل أصلًا علاقتها بقدرة الإنسان على إنباء الأسماء (الكلام).

المسـتوى الأول – من هذه المسـتويات التشـريحية الإبداعية الخمسـة – شـمل فيما شمل جمجمة ذات غرفة للمخ أكبر بكثير جدًّا من تلك الموجودة فـي جماجـم جميـع الكائنات الشـبيهة به بمـا في ذلـك «إنسـان النياندرثال» و«إنسان الوقوف» أقرب الكائنات إليه. هذا المستوى الأول شمل أيضًا ذلك المخ الفريد المتطور جدًّا بدرجة استثنائية فريدة تقف دليلًا على وجود فجوة كبيـرة تفصل مـا بين مخه من جانـب وأمخاخ جميع الكائنات الشـبيهة به من جانب آخر.

المسـتوى الثانـي – من هـذه المسـتويات التشـريحية الإبداعية الخمسـة المسـئولة عن قدرة الإنسان على تَعَلم وإنباء الأسماء كلها – شمل فيما شمل نخاعًا شـوكيًا متقدمًا شَـكّل ثورة أخرى مقارنة بأقـرب الكائنات إليه (النخاع الشـوكي هو مجموعة الأعصاب المارة داخل فتحـات العمود الفقري والتي تصل المخ بجميع أعضاء الجسـم)، نخاع شـوكي يتكون من عـدد أكبر كثيرًا مـن الأعصـاب مقارنة بأقـرب الكائنات إليـه (الأعصاب خيـوط دقيقة قائمة على إرسـال إشارات نورانية كهرومغناطيسـية تمكن المخ من تحريك وإدارة

الأعضاء! أي إن الخالق الباطن -المُتَجَلّي نورًا- هو الذي يمكننا من الحركة والحياة على هذا المستوى أيضًا!).

الجهاز العصبي – الموجود عند الإنسان – ثورة عصبية مفاجئة شاملة غير مسبوقة أنشأت للإنسان توافقًا عضليًّا عصبيًّا استثنائيًّا بين المخ من جانب والفم واللسان والشفتين وعضلات الوجه من جانب آخر (إضافة إلى إنشائها تناغم هذه الأعضاء معًا)، وهو ما مَكَّن بدوره هذه الأعضاء من الحديث ونطق الكلمات والجمل بصورة متقدمة فريدة من نوعها.

الفارق بين هذا الجهاز العصبي الخاص بالإنسان من جانب والجهاز العصبي الخاص «بإنسان النياندرثال» أو «إنسان الوقوف» من جانب آخر يفوق الفارق بين الجهاز العصبي الخاص بأيٍّ من هذين الكائنين من جانب والجهاز العصبي الخاص بالشمبانزي مثلًا من جانب آخر بصورة رهيبة!

المستوى الثالث شمل فيما شمل تغيرًا جذريًّا (ثورة أخرى) في اتساع الفتحات الداخلية للعمود الفقري مقارنة بتلك الموجودة عند جميع الكائنات الشبيهة به، اتساع أكبر كثيرًا لم يكن هذا العدد الضخم من خيوط الأعصاب (النخاع الشوكي) ليتمكن من الوجود داخل فتحات العمود الفقري دونها ولم يكن ليتمكن من الوصول إلى أعضاء الجسم!

تناغم نشأة مخ الإنسان بحجمه وتكوينه المتقدم من جانب مع نشأة نخاعه الشوكي الضخم من جانب آخر مع نشأة فتحات العمود الفقري الواسعة اللازمة لتمكين مرور هذا العدد الضخم من الأعصاب (داخل عموده الفقري) من جانب ثالث شيء مذهل.

المستوى الرابع – من هذه المستويات التشريحية الإبداعية الخمسة – شمل فيما شمل علاقة استثنائية بين الرئتين من جانب والعضلات والأعصاب

المرتبطين بهاتين الرئتين من جانب آخر، علاقة استثنائية وعدد أكبر كثيرًا من الأعصاب المرتبطة بالرئة والعضلات (مقارنة بالكائنات الشبيهة به) أنشأ للإنسان قدرة استثنائية على الحديث المتَّصِل أثناء التنفس وأثناء المشي بل وأثناء الجري أيضًا!

المستوى الخامس والأخير شمل فيما شمل ابتكارات جديدة في هندسة «الفم» و«اللسان» و«الشفتين» و«عضلات الوجه»، هندسة تشريحية جديدة مختلفة أنشأت مرونة استثنائية في هذه الأعضاء عند الإنسان (مقارنة بالكائنات الشبيهة به) لتنشأ بذلك لهذه الأعضاء قدرتها الاستثنائية على القيام بهذه الحركات «التفصيلية» اللازمة للتحدث بهذه الطريقة المتقدمة المتطورة.

المستويات التشريحية الخمسة هذه - بما تمثله من ثورات متشعّبة متكاملة متناغمة قائمة على إنشاء قدرة الإنسان على التعلم والحديث - تمثل تحديًا من نوع خاص للنظرية الداروينية الرافضة بطبيعة الحال لمبدأ النشأة «المتناغمة» - المتوازية الأحداث - جملةً وتفصيلًا، بما أنها تعتبر دليلًا على وجود «نظام» خالق!

تدفع النظرية الداروينية بأن أعضاء الإنسان المذكورة - على هذه المستويات الخمسة - لم تنشأ بصورة متناغمة متوازية الأحداث، تدفع بأن أول عضو من هذه الأعضاء المتقدمة نشأ بصورة عشوائية قبل أن يمهّد بذلك الطريق لنشأة العضو التالي بالصدفة أيضًا، وهكذا.. وهكذا من جديد. النظرية الداروينية تدفع مثلًا بأن نشأة الفتحات الأوسع داخل العمود الفقري - بالصدفة - هو تحديدًا ما أتاح الفرصة بعد ذلك لنشأة هذا العدد من الأعصاب المارة من خلالها (بالصدفة أيضًا)، وهكذا.. وهكذا من جديد إلى أن اكتمل تطور كائن أقدم من أشباه القردة؛ لينشأ بذلك الإنسان الحديث. وكأنها تقول إن «الصدفة» هي أساس «النظام» المتناغم (الإنسان ما هو إلا

نظـام حيوي معقـد متناغم)! وكأنها تقر بطريقة غير مباشـرة سـوء فهمها مبدأ الصدفة برمته!

بل أكثر من ذلك، التناغم الشـامل الواضح بين أعضاء الإنســان على هذه المسـتويات الخمسـة – إنشـاءً لهذه القـدرة الاسـتثنائية التـي تتخطى حدود «التكيـف مـع البيئة من أجل البقـاء» (كما تحتم النظريـة الداروينية) إلى آفاق «العلـم والمعرفة» الكونية – يضع النظريـة الداروينية في مأزق من نوع جديد لسبب بسيط هو عدم قدرتها على الإجابة عن الأسئلة التالية:

كيـف تخطت هذه الأعضاء معًا حدود الوظائف الحياتية التقليدية بصورة استثنائية مقارنة بعشرات المليارات من الكائنات التي عمّرت كوكب الأرض عبـر تاريـخ الحياة؟ ما مصدر تناغمها إنشـاءً للغة الإنسـان؟ بل ما مصدر هذا «العلم» و«المنطق» المُتَجَلّي على هيئة «لغة»؟

الداروينيون لا يلتفتون كثيرًا إلى الحقيقة المنطقية في أن مجرد وجود «لغة» عند الإنسـان يؤكد حتمًا لا محالة وجود «نظام باطن» قائم على إنشاء وتمكين هذه اللغة لسبب بسيط جدًّا: لا عشوائية في اللغة، ولا لغة في العشوائية!

على صعيد آخر، الفارق بين الإنسان و«إنسان الوقوف» (أقوى المرشحين الداروينيين كأصل للإنسان) أكبر من الفارق بين «إنسان الوقوف» و«البيثكوس الكينـي» (الكائن من طراز القردة المرشـح داروينيًّا كأصل لإنسـان الوقوف) بصورة يصعب تخيلها رغم أن الفترة الزمنية التي تفصل ما بين نشـأة الإنسـان ونشـأة «إنسان الوقوف» (مليون وخمسمائة ألف عام) أقصر من الفترة الزمنية التي تفصل بين نشأة «إنسان الوقوف» ونشأة «البيثكوس الكيني» (مليوني عام أو أكثر)، وهو ما لا يتناسـب مع مبدأ التطور الدارويني الدقيق البطيء الثابت الإيقـاع على مسـتوى «نشـأة الإنسـان»، تلك النشـأة التي لم تثبـت تفاصيلها النهائية بعد كما ذكرنا!

نشـأة الإنسـان على ما هو عليـه من علم وقـدرة على تعلم الأسـماء كلها وإعطاء اسـم لكل شـيء في هذا الكون، قدرته على الكتابة والقراءة والفلسفة والروحانيات - إضافة إلى إمكاناته العقلية الاسـتثنائية بما تشـمله من سيطرة علـى كوكـب الأرض والكائنـات الحيـة جميعًـا بـل وتخطي حـدود كوكب الأرض - كل ذلـك يجعـل منه ذلك الكائن الذي يسـتحيل تفسـير نشـأته من خلال مبادئ النظرية الداروينية (على هذا المستوى أيضًا).

دع جانبًا ظاهرة تكوّن الإنسان والكائنات الشبيهة به من أعضاء «تشكيلية» (بالمفهـوم الدارويني) تحـول كما رأينا دون إمكانيـة تصنيفهم معًا من خلال النموذج الدارويني القائل بتفرعهم عن بعضهم!

جميـع هـذه الحقائـق العلميـة - الخاصة بنشـأة الإنسـان - تقتـرح علينا اتجاهًـا عامًّا (أثناء دراسـتنا نشـأة الإنسـان) شـبيهًا بمبدأ «التطـور التكاملي» Symbiogenesis الـذي اقترحه في البداية العالم النمسـاوي جريجور مندل مكتشـف الجينـات قبـل أن يؤسـس أول نظرياتـه العالـم السـوفييتي بوريس كوزو-بولينسـكي، وقبل أن تأخذه العالمة الأمريكية الداروينية المنشـقة لين مارجوليس إلى آفاق علمية جديدة في نهاية القرن العشرين كما رأينا!

إلا أن هذا المقترح المرجح (أو أي مقترح آخر بما في ذلك مقترح النظرية الداروينيـة الخاصـة بنشـأة الإنسـان) لا يعتمد اليـوم على أية إثباتـات علمية معملية مؤكدة كما هو الحال مع بقية مراحل قصة الخلق (وكما هو الحال في بقية العلوم) كما رأينا بالتفصيل الدقيق.

هناك أسـئلة لا نسـتطيع الإجابة عنها اليوم بصورة علميـة قاطعة كما تقدم في هذا الكتاب، أسـئلة مثل: هل كانت مرحلة التّزاوج التهجيني المباشـر بين كائنين رخويين (مُضغـة مخلقة ومُضغة غير مخلقة) -كما رأينا- آخر مراحل

إنشاء التفاعلات النورانية (إنشاء الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا) الإنسان؟ هل تبعتها مرحلة أو مراحل أخرى؟ ذلك أن هذه الأسئلة مازالت تتخطى أجوبتها حدود علم الإنسان في مطلع القرن الحادي والعشرين.

إلا أن هـذه الأسـئلة لا تعدو – في الصورة الأشـمل الثابتـة اليوم علميًّا – أسـئلة ثانويـة جدًّا لا تغير في الصورة الكبيرة شـيئًا، فالثابـت علميًّا في جميع الأحوال فيما يخص أغلب مراحل نشأة الإنسان من الذرة (التراب غير المرئي بالعيـن المجـردة) – ما ثبت من قصة تطور الكون ثم الحياة – لكفيل بأن يقوم بسرد قصة نشأة الإنسان دون التأثر بالشق الذي لم يثبت بعد.

النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – خلق الإنسـان من موجات نورانية (بروتونـات وإلكترونـات) ثم من ذرة (من تراب غير مرئـي بالعين المجردة) ثم من مواد مركبة (بما في ذلك «الماء» في المقام الأول) ثم من مواد عضوية (مواد طينية الهيئة لاحتوائها على الماء) ثم من خلية (من نطفة) ثم من تعاونية خلايـا (مـن عَلَقَة) ثم من كائن رخوي (من مُضغة)، وكل ذلك قبل أن يُسَـوّيه (جينيًّا) بطريقة ما ليصبح في النهاية رَجلًا!!

حقيقي أن المرحلة (أو المراحل) الأخيرة في قصة نشـأة الإنسان لم تثبت بصـورة علميـة قاطعة بعـد، حقيقي أن ذلك قـد يتطلب بضع سـنين أو بضعة قـرون، حقيقـي أن العلماء مازالـوا يتنازعون تفاصيلها فيما بينهـم، إلا أن كلَّ ذلـك مـا هو إلا تحصيـل حاصل اليوم بعد اكتشـاف الآلية النورانيـة – النظام النوراني – المسئول عن إنشاء الإنسان!

بل إن اكتشـاف وثبوت هذه الآلية النورانية (هـذا النظام النوراني) يجعل مـن أي نظرية تتأكد في المسـتقبل القريـب أو البعيد –فيمـا يخص المراحل الأخيرة في نشأة الإنسان– تحصيل حاصل لا يغيّر في الصورة الأشمل شيئًا،

هـذا وإن أكـدت الاكتشـافات العلمية في المسـتقبل نموذجًا شـبيهًا بنموذج أشـباه القـردة (جدلًا)! فالنـور – الخالق الباطـن المُتَجَلّي نـورًا – في جميع الأحوال وبغض النظر عن الطريقة والتفاصيل هو وهو فقط ما أنشـأ الإنسـان بطريقة أو أخرى!

لا بـد أن تنطلـق أي نظريـة صحيحة قادمـة من القاعـدة العلميـة الثابتة أن النـور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – ركّب وعَدَّل الإنسـان كيفما شـاء من خـلال عمليات إعـادة التركيب الجينـي Genetic Recombination إلى أن سـوّاه (جينيًّـا) رجلًا! أي تفاصيل جديدة مكتشـفة في المسـتقبل لن تغيّر في هذه الحقيقة العلمية شيئًا!

الإنسـان ما هو في حقيقته الأعمق والأدق إلا «تيار نوراني» فريد من نوعه يتكوّن من عدد لا يمكن تخيله من مليارات المليارات من الموجات النورانية (البروتونات والإلكترونات).

النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو وهو فقط ما أنشأ الإنسان، وهو وهو فقط بالتالي من عَلَّم الإنسان الأسماء كلها ومن أنشأ له قدرة إنبائها.

النور – الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا – هو وهو فقط ما أنشأ الإنسان خلقًا آخر نهائيًّا بعد أن كان كائنًا رخويًّا (مضغة) هابلوُيْد يتكاثر عن طريق الانقسام، لينشئه بذلك كائن دبلوُيْد تام النشأة يتكاثر عن طريق التّزاوج الحديث (بعدما اكتملت عملية إنشاء سوأته (العضو التناسلي) وبعدما بدت له في آخر مراحل تكونه كما ذكرنا قبل ذلك).

نشـأة الإنسـان على كوكب الأرض بعد تحوله من كائـن رخوي (مضغة) هابلوُيْـد إلى كائن دبلوُيْد (ذي قدرة على التكاثر من خلال التّزاوج الحديث) يذكرنـا بحديث القرآن (كتاب المسـلمين المقدس) عن ارتباط اكتمال نشـأة الإنسان بظهور سوأته (عضوه التناسلي) في «الجنة»!

حقيقة علمية تدعو المسلمين وكذلك المسيحيين واليهود إلى التفكر في «الجنة» المذكورة في كتبهم المقدسة كمكان «لنشأة» الإنسان على أنها جنة «أرضية» بمعنى «حديقة» (أو ما شابه) مختلفة عن جنة الميعاد التي يتحدثون عنها كنهاية لعملية تطور هذه الحياة بل وهذا الكون برمته.

لغة القرآن مثلًا هي أكبر دليل على ذلك، فالقرآن يستخدم كلمة «الجنة» في إشارات متعددة «للحديقة» و«الأرض المزروعة» الآهلة بالنباتات.

هذا الاتجاه ليس فقط الاتجاه المتوافق مع العلم واكتشافاته التي ذكرناها، بل أيضًا الاتجاه المتوافق مع قصة الخلق في القرآن مثلًا والتي تصر على نشأة الإنسان «من الأرض»، بل وتعدد مراحل نشأته منها من «ترابها» ثم «طينها» (التراب والماء).

مجرد دعوة لمعتنقي هذه الديانات إلى التفكر في قصة خلق الإنسان بطريقة علمية تتخطى المفاهيم الدارجة المتداولة عند البعض.

هل كان مقصود الكتب المقدسة - أيضًا مع ذلك - أن عملية إنشاء الإنسان من التراب (أي من الأرض) توازت مع حالة وجود «ماورائي» له في الجنة بمفهومها المطلق وليس الأرضي (أي وجود له في عالم آخر من المشاعر الباطنة غير الملموسة غير المادية) قبل اكتمال عملية خلقه المادي؟ مفهوم -أغلب الظن- صحيح أيضًا كما يمكن أن نفهم من النصوص.

الطبيعة هي التي أنشأت الإنسان من خلال تفاعلات «طبيعية» كما ثبت كحقيقة علمية لا تقبل الجدال، إلا أن من يقف عند هذا القدر من التحليل إنسان سطحي جدًّا مضلل لنفسه عن جهل؛ فالطبيعة التي أنشأت الإنسان ما هي بدورها إلا مظهر من مظاهر تَجَلّي الخالق الباطن كما رأينا بالتفصيل!

وكيف لا تكون الطبيعة مظهرًا من مظاهر تَجَلّيه والنور - الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هو ما أنشأ الكون وما أنشأ «الطبيعة» وما أنشأ التفاعلات «الطبيعية» المسئولة بدورها عن إنشاء الإنسان؟ كيف لا تكون الطبيعة مظهرًا من مظاهر تَجَلّيه والتفاعلات «النورانية» الكهرومغناطيسية - المنبثقة عن الخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا - هي ما أرسل الرياح وأنزل المطر وأنشأ الخلية من المادة؟ كيف لا تكون والخالق الباطن هو الأول والآخر والظاهر والباطن؟

نفخ الروح في الإنسان كان (ومازال إلى يومنا هذا) نفخًا نورانيًّا من الباطن وليس نفخًا من الخارج كما ادعت الأساطير وكما ادعت قصة الخلق التوراتية (والإسرائيليات المتداولة على المستوى الدارج بين كثير من المسلمين والمسيحيين واليهود) والقائلة إن الربّ نفخ روح الحياة في «أنف» الإنسان ليتحول بذلك - من خلال هذه النفخة الخارجية - إلى كائن حي بعد أن كان تمثالًا من تراب، وكأن الروح يمكن اختزالها في هيئة هواء متَنَفَس، وكأن الخالق مَثَّال يصنع التماثيل! وكأن الخالق ساحرٌ ينفخ في التمثال ليصبح التمثال فجأة إنسانًا بما يشمله من تفاصيل وأعضاء! وكأن الخالق كيان منفصل عن خلقه! وكأن الخالق كيان منفصل عن الطبيعة غير قادر على التحكم بها وبالمادة من الداخل!

هناك تناقضٌ شديدٌ بين مبدأ الخالق الباطن الذي خلق الإنسان على أطوار - من تراب ثم من نطفة قبل أن يسوّيه رجلًا - من جانب ومبدأ الخالق المنفصل عن الطبيعة المَثَّال الساحر صانع التمثال الذي تحوّل فجأة بنفخة سحرية إلى إنسان! إلا أن المتوارث الدّارج في ديانات كثيرة لا ينتبه إلى ذلك!

كيف يكون نفخ الروح في الإنسان نفخًا من الخارج والخالق ليس كيانًا ماديًّا موجودًا في هيئة مادية خارجية مجَسَّدة؟! كيف يكون نفخًا من الخارج والخالق باطن أقرب إلى الإنسان من نفسِه ومن المادة المكونة له، بل وأقرب إليه بالتالي من نَفَسِه الذي يتنفسه؟!

كيـف لا يكون نفـخ الروح في الإنسـان نفخًا نورانيًّا مـن الباطن والخالق الحقيقـي باطـن موجود في كل مـكان – حاضر في كل شـيء – وليس خالقًا منفصـلاً عن المخلوقات كما ادعت الأسـاطير؟! كيـف لا يكون نفخًا نورانيًّا من الباطن والخالق الباطن المُتَجَلّي نورًا أنشأ الإنسان – خلقًا من بعد خلقٍ – من خلال تفاعلات نورانية دون حاجة إلى أي تدخل خارجي؟!

الإنسـان نشأ قبل حوالي سبعين ألف عام (على أقل تقدير) كما دلّت أقدم الهيـاكل العظمية المكتشـفة له حتى الآن والتـي كان الباحثون قد عثروا عليها فـي كهـوف داخل جبلين فـي المنطقة التي أصبحت أرض كنعان (فلسـطين) بعد ذلك بعشرات كثيرة من آلاف من السنين.

الإنسـان لـم ينشـأ قبل سـتة آلاف عـام كما تقتـرح الدراسـات المفَسِّـرة لتسلسـل نسـب إبراهيم إلى آدم كما هو مذكور (خطأً) فـي التوراة في الفصل الحادي عشر من «سفر التكوين» وكما نقلت بعد ذلك هذه الإسرائيليات إلى المسيحيين والمسلمين.

كيـف يمكـن أن يكـون عمـر الإنسـان سـتة آلاف عـام وحضـارة مـا بين النهريـن (العراق) وحضـارة الفراعنة كانتا بالفعل قائمتيـن في ذلك التاريخ؟ كيف يمكن أن يكون عمر الإنسـان سـتة آلاف عام والعصر الحجري – عصر استخدام الإنسان الأحجار كأدوات للصيد وغيره من المهام الحياتية – عصر ممتد في الزمن إلى الوراء أكثر من عشـرة آلاف عام قبل الميلاد؟ كيف يمكن أن يكون عمر الإنسـان سـتة آلاف عام والإنسـان كان قد عمّر كوكب الأرض كله – سيرًا على الأقدام – قبل بداية ذلك العصر الحجري بعشرات أخرى من آلاف السنين كما هو ثابت من خلال الاكتشافات الأثرية وكما ثبت من خلال حسابات علم الجينات المقارن؟!

اكتشاف هياكل عظمية للإنسان في كهوف أرض كنعان (فلسطين) لا يعني بالضرورة أن الإنسان نشأ هناك.. الإنسان نشأ (أغلب الظن كما تشير مقارنة الجينات) في شرق إفريقيا، إلا أن شرق إفريقيا لم يتوقف آنذاك عند حدود البحر الأحمر الفاصل اليوم بينه وبين شبه الجزيرة العربية، شرق إفريقيا كان ممتدًّا حتى المحيط الهندي متضمنًا الجزيرة العربية كلها!

ذلك أن البحر الأحمر المحدد اليوم لحدود إفريقيا الشرقية لم يتكوّن إلا في نهاية العصر الجليدي الأخير قبل حوالي عشرة آلاف عام! ذوبان كميات الجليد – التي كانت قد غطت أغلب مناطق الأرض شمالًا وجنوبًا في ذلك الزمان – دفع مستوى المحيطات حول كوكب الأرض إلى الزيادة، محدثًا «الفيضان» التاريخي الذي أغرق «الأرض»، أي أغرق ذلك الوادي ليصبح بذلك البحر الأحمر ولتتغير بذلك حدود إفريقيا الشرقية، ولتصبح بذلك الجزيرة العربية كيانًا منفصلًا عن شرق إفريقيا يصنفها علماء الجغرافيا كطرف من أطراف قارة آسيا.

قصة نشأة الإنسان بغض النظر عن مكان نشأته هي قصة إنشاء الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا – الإنسان في النهاية كائن متفوّق على بقية الكائنات الحية جميعًا مسيطرٌ عليها، خليفة حاكم لكوكب الأرض بفضل علمه الذي هو أساس قوته (علمه النوراني المصدر). إنها قصة إنشاء الخالق الباطن – المُتَجَلّي نورًا – الإنسان «خليفة الأرض»!

الإنسان خليفة الأرض بمعنى حاكمها، وهو أيضًا خليفة الكائنات بمعنى آخرها وقمتها وسيدها. الإنسان خليفة الأرض والكائنات وليس خليفة الخالق الباطن – بمعنى من ينوب عنه – فالخالق باطن حاضر دومًا لا يغيب أبدًا ولا يحتاج إلى من ينوب عنه أو يخلفه، بل ولا يستطيع أي كائن مهما يكن أن يقوم بذلك!

قصة نشــأة الإنســان الآدمي – في ملخصها النوراني الأســمى – هي قصة نشــأة الخليفــة المكلَّــف بفضل العلــم، فالعلم هو الشــيء الوحيد الــذي يميّز الإنســان عن كل شــيء في الســموات والأرض (الكون)، وهــو بذلك الأمانة التي حملها الإنسان ولـم يحملها غيره!

العلــم هــو مــا يميّز الإنســان وهو مــا يجعل منــه الخليفة القــادر على تبين «الحــق» فــي الآفــاق وفي نفســه، هو ما يجعــل منــه الخليفة المكلَّــف بفضل العلم بالحفاظ على كوكب الأرض على جميع المستويات البيئية والجمالية، الخليفة المكَلَّف برعاية أشكال الحياة بما في ذلك النباتات والحيوانات.

العلم هو ما يجعل من الإنســان الخليفة المكَلَّف بنشر «الحق» و«السلام» علــى هــذا الكوكب، كل منــا خليفة مكَلَّــف برفع التخلف عــن مجتمعه وعن العالــم (التخلــف العلمي هو أســاس كل تخلــف أيًّا كان نوعــه الحضاري أو الروحاني).. كلٌّ منا خليفة مسئول عن صلاح حياته الفردية والأسرية وصلاح أســرته ومجتمعه.. كلٌّ منا خليفة مسـئول عــن توفير الحيــاة الكريمة الفاضلة (وليس الحياة المادية الاستهلاكية الفارغة) لنفسه وأهله ومجتمعه.

كلٌّ منــا هو ذلك الإنســان الخليفــة المكَلَّــف «بالتزود بالعلم» كمسـئولية أولى أساســية واجبة عليه كأداة لازمة لتحقيق كل هذه المسـئوليات المتشعّبة والمترابطــة جملــةً وتفصيــلًا، فلا شــيء من ذلك كلــه يمكن تحقيقــه بطريقة صحيحــة متوازنــة دون «علم»! هــذه هي الخلافة الحقيقية فــي موجزها، هذه هــي الرســالة، وهذا هــو الجهاد الحــق الذي لم نفقهــه بعد ولم نطبقه بســبب جهلنا، جهاد علمي سلمي يبدأ بالنفس.

النــور – الخالــق الباطن المُتَجَلّي نــورًا – هو مصدر علم الإنســان بما في ذلــك العلم اللازم لتحقيق كلٍّ ما تقدّم، وكيف لا يكون وهو منشــئ الإنســان وعلمه؟! كيف لا يكون وهو الأول والآخر والظاهر والباطن؟!

هـذا تحديدًا ما يفسّـر ظاهـرة الوحي الهـادي- أي الديانـات المختلفة - كمصـدر علـم روحاني ومنهجية للإنسـان تمكنـه من تحقيـق خلافته بصورة سـليمة، الديانـات (إن صدقـت) ما هـي إلا منهجية قائمة على صـلاح الفرد وتنظيـم العلاقـات المجتمعية بيـن الناس والعلاقـات الدولية بين الشـعوب والعلاقات البيئية بين الإنسان من جانب وكوكب الأرض (المستخلف عليه) والكائنات (المستخلف عليهم) من جانب آخر!

الديانـات (إن صدقت) دليل «نوراني» لليسـر وهداية الإنسـان إلى الحياة الأفضل والأسـلم على جميع المسـتويات - كفلسـفة حياة نورانية شـاملة - لتحرير الإنسـان وعقله وروحه من كل ما يسجنها أو يضللها. الديانات ليست مجـرد نظام شـعائري عسـير كما نجعل منها فـي أحيان كثيرة، وليسـت نظامًا ميكانيكيًّـا أجوف من أجل «جمع النقاط» الدينية كما يظنها البعض، وليسـت منطقًـا جامدًا هادفًا سـجن الإنسـان فـي منظومة صلبـة كما يحولهـا كثير من قيادات الديانات المختلفة حول العالم.

دعونـا نكـرر مرة أخـرى ما ذكرنا قبل قليل حتى لا ننسـاه أبدًا: قصة نشـأة الإنسـان الآدمـي - في ملخصها النوراني الأسـمى - هي قصة نشـأة الخليفة المكلَّف بفضل العلم، فالعلم هو الشـيء الوحيد الذي يميّز الإنسـان عن كل شـيء فـي السـموات والأرض (في الكون)، وهـو بذلك الأمانـة التي حملها الإنسـان ولـم يحملها غيره! فليحمـل كلٌّ منا أمانتـه النورانية هـذه - العلم- ويتـزود به حتى لا يكون ظلومًا نصيرًا للظلمات! هذه هي المسـئولية الأولى لكل منا! هذا هو المدخل الحقيقي لكل تفكر، وكل دين، وكل عبادة! هذا هو المدخـل الوحيد لصلاح الفـرد والمجتمع، بل والسـلام الحقيقي الدائم بين الديانات والشعوب والحضارات!

الرب
كَلِمة واحدة.. معانٍ كثيرة

ربما كانت كلمة «الرب» هي أكثر كلمة اختلف حول معناها العالم والحضارات عبر التاريخ، فكلمة «رب» ومرادفاتها لم تعنِ ولا تعني أبدًا المعنى نفسه لجميع الناس. بل إن كلمة «ربّ» ومرادفاتها قد تعني معاني مختلفة لأبناء الحضارة نفسها أو أفراد الديانة نفسها على مرّ العصور المختلفة. دع جانبًا أن أفراد الدين الواحد – في العصر نفسه – قد يتخيل كلٌّ منهم المعنى بطريقة مختلفة.

هذه الاختلافات التاريخية في تعريف كلمة الربّ – والتي سنتعرض لتفاصيلها خلال الصفحات القادمة – هي أساس أكبر قصة سوء فهم في تاريخ البشرية، بل إن قصص الإلحاد جميعًا – منذ فجر التاريخ إلى عصر العلم – تجد جذورها في رفض البعض أو البعض الآخر تعريفًا بعينه لمعنى كلمة «الرب»، معتقدين خطأً أن عدم صحة التعريف الخاص المعمول به في مجتمعهم تحديدًا يعني تلقائيًّا عدم وجود تعريف آخر، وبالتالي عدم وجود خالق لهذا الكون. إنه عامل الموروث الثقافي الذي يلعب دورًا مهمًّا على المستوى النفسي سلبًا أو إيجابًا منذ الطفولة، بل ويمنع الكثيرين من البحث والتدقيق في المعاني الأخرى.

تعود جذور قصة الاختلاف بين المعاني المختلفة لكلمة «رب» إلى فجر التاريخ. في العصور القديمة انشغل «قليل» من القدماء بالإجابة عن السؤالين الأهم: من أين جاء هذا العالم (الكون)؟ وكيف جاء؟ إنهم تلك القلة القليلة

التي انشغلت بالتفكر في قصة الخَلق من خلال الفلسفات التوحيدية، أو آمنت بالديانات المختلفة التي تحدثت عن الخلق.

الأغلبيـة العظمى من الناس في العالـم القديم – وعلى عكس هذه الأقلية – لم تنشغل أصلًا بهذه الأسئلة؛ ذلك أنها اعتقدت في الأساطير القائلة بأزلية العالـم (الكـون) – مـكان أبدي غير مخلـوق – مكانًا لصـراع قطبي بين قوى الخيـر والشـر الكامنة فـي الطبيعة. لم تهتـم هذه الأغلبية العظمى من سـكان العالم القديم بالتفكر في «مصدر» الأشـياء (الخلق) على المسـتوى الأعمق؛ ذلك أن الأسئلة التي طرحتها هذه الأغلبية من القدماء كانت من طبيعة مختلفة عن تلك التي طرحتها القلة القليلة.

الأسـئلة التي طرحتها هـذه الأغلبية من القدماء يمكـن تلخيصها كالتالي: مـا القوة أو القوى التي تتحكم أو تتدخل في شـئون هذا العالم الأزلي (وهذه الطبيعة) وتؤثر فيها؟ وما سبيل الإنسان للخلاص والسلامة بل ربما أيضًا قهر قوى الضعف والموت وتحقيق حياة أبدية؟

هـذا الاتجـاه هو تحديـدًا ما ترك مجالًا واسـعًا لنشـأة معتقـدات مختلفة تراوحت بين أسـاطير وفلسـفات غير توحيدية وديانـات وثنية قديمة حاولت جميعها اكتشاف الملاذ الآمن: سبيل «الخلاص». أساطير وفلسفات وديانات هـذه الأغلبية العظمى من سـكان العالـم القديم خَلصَت إلـى التعريف الذي أصبـح – بطبيعة كثرتهم العددية – التعريف الشـائع لكلمة «الرب» في العالم القديم، تعريف تم تداوله – بل واستغلاله – على مستويات عدة تراوحت من العبادة إلى شرعية الحكم.

هكذا مثلًا خلُص اليونانيون الإغريق إلى الاعتقاد في الربّ زيوس: الربّ الأب الذي يقطن قمة جبل أوليمبيا – أشهر جبال اليونان – ويتدخل في شئون العالـم ويديـره من فوق ذلـك الجبل. ربّ يدخل – نيابة عن الإنسـان – طرفًا

في نزاع مع قوى أخرى من أجل السيطرة على العالم الذي يسكنه الإنسان. معتقدٌ ترتب عليه طقوس مختلفة، بما في ذلك تقديم الأضاحي وأنواع الفداء من أجل «تقوية» هذا الربّ أو مساندته في صراعه ضد قوى الشر الكامنة في الطبيعة (وليس من أجل تهذيب النفس وحب الخير)؛ وذلك حتى ينتفع الإنسان بمظاهر الحياة، بدءًا بوفرة الحصاد وانتهاءً بالتخلص من كل ما يقهر الإنسان أو يذله.

لم يكن هذا النوع من الربّ الأسطوري خالقًا بمعنى «مصدر» للوجود، بل – على العكس التام من ذلك – كان كيانًا فولاذيًّا (ذا قوة سرية خارقة للطبيعة) يعمل على تغيير هذا النظام الذي لم يخلقه والقائم (بدونه) منذ الأزل (أي دون بداية). وكيف يكون خالقه وهو غير راضٍ عنه، قائم على تغييره، تغيير نظامه القطبي – الضار النافع – ليصبح نظامًا مختلفًا!

اعتمد كثيرٌ من معتقدات فجر التاريخ الأسطورية على تقديم الربّ من خلال النموذج المجتمعي الآدمي، فها هو زيوس الربّ الأب (الذي أخذ الحكم عن أبيه) يتزوّج بل وينجب دايونيسوس ابن الربّ الذي بعثه أبوه زيوس إلى عالمنا وكيلًا مخلصًا لهذا العالم، وهكذا نزل دايونيسوس ابن الربّ إلى العالم السفلي (عالم الموتى) حيث تكمن قوى الموت والشر، وهكذا حاربها بل وانتصر عليها، كل ذلك حتى يتحقق للإنسان الرخاء وتتحقق له الحياة الأبدية؛ فنصبح جميعًا أبناء الربّ فولاذيين لا نموت مثله!

بل ها هي المعتقدات اليونانية الإغريقية تدعو إلى إمكانة قهر الموت ليتحوّل الإنسان إلى ربّ – بعد ارتقاء سلم البطولة – كما فعل هِرقل ذلك الإنسان البطل الأسطوري الذي أصبح نصف ربّ بفضل قوته وإنجازاته: الربّ كان كذلك (عندهم) رتبة يمكن للإنسان الوصول إليها.

لم تكن قصة الربّ زيوس وابنه دايونيسوس بالجديدة على العالم القديم أصلًا، بل كانت نسخة شبه الأصل من الديانة المصرية القديمة التي عاد بها عالم الرياضيات اليوناني فيثاغورث من مصر الفرعونية في نهاية القرن السادس قبل الميلاد بعد سنين طويلة قضاها هناك، سنوات مارس خلالها المذاهب الدينية السِرية (الأسطورية) إضافة إلى الرياضيات التي تعلمها هناك.

معابد الفراعنة القائمة إلى يومنا هذا تحكي لنا جدرانها المقامة –منذ حوالي أربعة آلاف عام– قصة ربّ مصر الأب الذي بعث ابنه أوزوريس (من قبل أن يبعث الربّ زيوس ابنه دايونيسوس!) للتدخل في شئون العالم مخلصًا له من قوى الشر والموت. هكذا مات أوزوريس (ابن الربّ) لينزل بذلك إلى العالم السفلي (عالم الموتى) ليحارب قوى الشر والموت قبل أن يقوم من الموت منتصرًا عليها بعد ثلاثة أيام، بل هكذا صعد ابن الربّ عائدًا إلى أبيه –الجالس في السماء(!)– ليجلس بجواره بعد إتمامه المهمة بنجاح، إلا أن الواضح لنا طبعًا أن شيئًا لم يتغيّر بعد قيام ابن الربّ «أوزوريس» من الموت منتصرًا على قوى الشر!

مبدأ «مبعوث الرب» – ابن الربّ المبعوث من قبل والده لمحاربة قوى الشر والانتصار عليها – أسطورة تاريخية متناقلة كما أشار علماء التاريخ في أوروبا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بعد تحقق العمليات التنقيبية التي أتاحت لهم فجأة اكتشاف تاريخ العالم القديم (بما في ذلك اكتشاف تاريخ الفراعنة والإغريق). دع جانبًا الحقائق العلمية المكتشفة حديثًا كفصل علمي قاطع يوضح أسطورية (خطأ) أي عقيدة تحاول تقديم الربّ على أنه كيان «منفصل» عن الطبيعة والخلق، مهما يكن دين أو فلسفة هذه التعاليم.. الحقيقة لا تعارض الحقيقة!

الـرب الحقيقـي ربّ «خالق» أنشـأ العالـم (الكون) بكل ما فيـه من قطبية ضـارة نافعة، ربّ باطن موجود في الطبيعـة يوجِهها من الداخل، ربّ موجود داخل كل شـيء في هـذا الكون لا يحتاج إلى وكيل. الـربّ الحقيقي «مصدر واحـد مطلق» لا منازع له، لا يحتاج أصلًا إلى الدخول في نزاع مع أي مصدر آخـر أو أيـة قوة أخرى، ربّ لا يوجد متحكم فـي الطبيعة غيره، ربّ لا يحتاج إلى مخَلِّص! الربّ الحقيقي هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

دع جانبًا أن القول بأن الربّ كيان «منفصل» عن الطبيعة يعني تلقائيًّا إمكانة «إضافـة» الطبيعة إلـى الربّ ليصبح الاثنان معًا كيانًـا «أكبر» من الربّ وحده، وهذا ما يسـقط بدوره صِفة «المطلق» (ويسـقط أيضًا صفة الأكبر) عن الرب، حقيقة منطقية تسقط تلقائيًّا هذا الفكر الخاطئ دون حاجة أصلًا للاحتكام إلى الحقائق العلمية المكتشفة حديثًا.

لـم يكـن فيثاغورث الشـخص الوحيـد الذي نقـل المعتقـدات الفرعونية القديمة إلى بلاده كما دَلّت الدراسـة التاريخيـة المقارِنة التي قام بها أحد أهم علمـاء الأسـاطير القديمة العالـم الأمريكي جوزيف كامبـل (1904–1987). بِطريقـة مشـابهة للطريقة التي قام الإغريق من خلالها بنسـخ قصة أوزوريس، قامـت حضارات أخرى بإعـادة تقديم أحـد آلهتهم اسـتيعابًا لنموذج الموت والقيام، هكذا مثلًا أصبح ابن الربّ – المعروف باسـم «أوزوريس» في مصر والمعروف باسم «دايونيسوس» في اليونان – «أدونيس» في سوريا، «باكوس» فـي روما، «ميثراس» في بلاد فارس، وهكذا! ذلـك أن القدماء كانوا يتبادلون المعتقدات، يجمعونها ويستوردونها تمامًا كما نتبادل الفنون ونستوردها اليوم (دون أي تدقيـق عِلمـي بطبيعة الحال)، بل وكما نسـتورد المنتجات الأجنبية ونفرح بها.

لم يتوقف المعتقد في ذلك الربّ وابنه – ذي القدرة الفولاذية على فرض قوتـه لتخليص العالم من قوى الذل – عند الأسـاطير أو العبادات بل تخطاها ليصبح أساس شرعية الحاكم (بعد تعميده ابنًا للرب!)، مؤسسًا بذلك وجوب امتثال جميع أفراد الشعب له كمبدأ ديني صادر عن الربّ الأب راعي الرخاء، كشرط لرخاء الشعب، وكشرط لعدم سقوط الأفراد في براثن قوى الشر!

فهـا هم مثلًا كهنة مصر الفرعونية يعمّـدون كل حاكم جديد – كل فرعون جديـد – ابنًـا للرب ليعبـده بذلك الشـعب تلقائيًّا، ويمتثلـون لحكمه طائعين دون تفكير أو نقاش منذ عهد مينا أول فرعون معروف لمصر في فجر التاريخ المدَوَّن.

وهـا هو الإسـكندر الأكبر يتوارث مبـدأ الحكم الإلهي هذا عـن الفراعنة بعد تأسيسـه إمبراطوريتـه التي امتّدت آنذاك لتشـمل العالـم القديم من مِصر إلـى الهنـد: يعمده كهنة مصر القديمة، ليصبح ابنًا شـرعيًّا للرب، فيصبح فورًا ربًّـا حاكمًا شـرعيًّا تدين له جميع شـعوب وحضـارات إمبراطوريتـه بالطاعة المطلقة.

وهـا هـو يوليـوس قيصـر – آخـر حـكام «جمهورية» رومـا – ينعِـم عليه أوكتافيـوس الحاكم الـذي تلاه (بعد موتـه) بالترقية إلى رتبـة ربّ يتم عبادته في مجمع الأرباب الروماني. وها هو أوكتافيوس – بعد انتصاره على أنطونيو وكليوباتـرا وتحويلـه رومـا من جمهوريـة إلـى «إمبراطوريـة» – ينتهج منهج الإسـكندر الأكبـر والفراعنـة في حكم العالـم القديم؛ ليتم بذلـك تعميده ابنًا للرب، وليعبد حيًّا قبل الميلاد (ميلاد المسـيح) بحوالي سـتين عامًا في عالم معتاد على رؤية ابن الربّ حيًّا بين الرعية يَحكمهم!

تخطي أسطورة «الربّ الأب راعي الرخاء» حدود الدول في العالم القديم امتـزج أيضًـا باعتقـاد هـذا العالم في تعـدد الأرباب، شـعوب العالـم القديم

اجتمعت أيضًا على معتقد آخر مفاده أن كلَّ بلد له رب – خاص بها – مختص بمحاربة قوى الشر والموت والذل في هذه البلد «فقط»، متفقين بذلك أيضًا أن «ابن الرب» الموكل بحمايتهم من هذه القوى الضارة يختلف من بلد إلى آخر. هكذا مثلًا كان المسافر السوري يعبد أدونيس ابن الربّ المسئول عن حمايته في بلده سوريا، قبل أن يعبد بعد ذلك دايونيسوس عندما يصل إلى اليونان ثم أوزوريس عندما يصل إلى مصر، وهكذا.

كذلك كان هناك مبدأ شائع – على ما يبدو تاريخيًّا – أن الإيمان بكل ربّ (أو ابن ربّ) مستَجَد من قبل الكهنة مثلًا (أو ديانة ما) أسلم من الكفر به حتى إذا كان هناك شك في وجوده؛ تفاديًا لسخط هذا الربّ الجديد إن كان موجودًا حقًّا!

بالطبع لم يكن هذا هو حال الجميع، فعلى النقيض من هذه الأنماط –المرتبطة بالأغلبية العظمى– كان هناك فِرقٌ فكرية أخرى تقف على مسافات مختلفة من كل ذلك، فها هو مثلًا سقراط – أحد أهم فلاسفة اليونان الإغريقية – يهاجم معتقدات اليونانيين ويلفظها، بل ها هو يدفع حياته ثمنًا لهجومه وتهكمه على عادات ومعتقدات الآباء والأجداد؛ ليتم إعدامه على الملأ.

كلمة الربّ لا تعني الشيء نفسه لجميع الفلاسفة، بل لا تعني الشيء نفسه لفلاسفة الحضارة الواحدة، فها هم الفلاسفة اليونانيون الإغريق مثلًا يختلفون فيما بينهم اختلافات جذرية حول تعريف الربّ (أو ما يعادله كمبدأ أو معنى)، وها هو أرسطو يختلف اختلاف النقيض مع معلمه أفلاطون وينفصل عنه مؤسسًا فلسفة جديدة في تعريف مبدأ الرب.

فلسفة أفلاطون – ثم المدرسة الأفلاطونية من بعده – كانت الفلسفة الأقرب إلى معتقدات العالم القديم، فلسفة مؤسسة على مبدأ الفصل بين

«معادل» مبدأ الربّ من جانب والعالم من جانب آخر مثل المعتقدات الأسطورية القديمة.

اللوجوز – والذي يعني (باليونانية) «الكلمة» بمعنى «الحكمة المقدسة» – هو المبدأ المعادل للرب في فلسفة أفلاطون: اللوجوز – رمز النقاء – لم يخلِق العالم الموجود منذ الأزل بكل ما يشمل من ضرر وقبح وتلوث. اللوجوز مصدر «خارجي» يبث في عالمنا النقاء والحكمة والجمال والروح التي تنعشه وتحييه وتسمو به عن التلوث والموت والجماد المتأصل فيه.

هذا تحديدًا ما جعل انتشارها بين مثقفي العالم القديم سريعًا، وما جعل منها «البديل» المنطقي المستساغ عند هؤلاء المثقفين! بل ما حوّلها بعد ذلك إلى ثقافة عامة في العالم القديم (ثم أوروبا) مدة أكثر من سبعة عشر قرنًا، بداية من عصر الإسكندر الأكبر (زمن أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد) حتى انتهاء العصور الوسطى مع بداية عصر النهضة الأوروبية في القرن الثالث عشر.

الفصل بين الربّ «اللوجوز» من جانب والعالم من جانب آخر هو تحديدًا ما جعل الفلسفة الأفلاطونية فلسفة «ازدواجية»؛ أي فلسفة معتقِدة في وجود مصدرين مستقلين متنافسين للسيطرة على العالم، مصدرين يمثل كلٌّ منهما طرفًا من أطراف القطبية الضارة النافعة المتأصلة في هذا العالم. الفصل بين الربّ والعالم هو أيضًا ما جعل الفلسفة الأفلاطونية «فلسفة سرية»؛ أي فلسفة تحتوي على أسرار لا يمكن شرحها منطقيًا! فلسفة تختلف اختلافًا جذريًّا عن الفلسفات «التوحيدية» التي لا تؤمن إلا بمصدر واحد للعالم بكل ما يشمله من قطبية ضارة نافعة.

الحقائق العلمية المكتشفة في القرن العشرين أسقطت الفلسفات الازدواجية جميعًا برمتها تمامًا كما أسقطت الأساطير! أثبت العلم أن الربّ

الخالـق الباطـن – المتجلـي نـورًا خالقًا – هو أيضًـا «الضار النافـع»، «المعز المـذل»، «المحيي المميـت»، وإن تخطى كل ذلك قدرتنا على الاسـتيعاب. كان أفلاطون مخطئًا! جميع الفلاسفة الازدواجيين «المعتقدين في مصدرين» مختلفين – مصدر للخير والجمال ومصدر للشر والقبح – كانوا مخطئين.

كلمة الربّ – أو ما يعادلها كمعنى – لم تعنِ أبدًا الشـيء نفسـه عند جميع الفلاسـفة، فها هو أرسـطو يرفض فلسـفة معلمه أفلاطـون «الازدواجية»، بل وينفصل عن المدرسـة الأفلاطونية ليؤسس فلسفة «توحيدية». اعتمد أرسطو في تأسـيس فلسـفته التوحيدية على مبدأ بسـيط جـدًّا عبقري جـدًّا أصرّ عليه آنـذاك – فـي القرن الرابـع قبل الميلاد – قبل أن يصبح أكثـر من ألف عام بعد ذلك المبدأ المؤسـس للعلوم عند العرب والمسلمين في بداية العصر الذهبي للعلوم العربية والفارسية.

هـذا المبدأ العبقري البسـيط في آن واحد هو «السـببيّة»؛ أي حتمية وجود «سـبب» لكل شـيء ولكل حدث. أرسـطو هو أول فيلسـوف (معلـوم لدينا) يؤسس مبدأ ارتباط الأحداث عودة في الزمن إلى الوراء، المبدأ أن كلَّ حدث في الحاضر له سبب في الماضي.

فلسـفة أرسـطو التوحيديـة يمكـن تلخيصهـا فـي جملـة واحـدة.. عودة بالأحـداث فـي الزمن إلى الـوراء، لابد أن يكون هناك – فـي البداية – حدث واحد «أول» مسـئول عن كل ما نشـأ فـي العالم من أحداث بعـد ذلك. هكذا وببسـاطة شـديدة خلُص أرسـطو إلى وجوب وجود «محرك أول» للأحداث جميعًا، محرك أول لكل الأحداث. «المحرك الأول» عند أرسطو هو ما يعادل مبدأ الربّ في الديانات.

المدهـش والرائـع معًا هو أن أرسـطو خَلص – بطريقة بسـيطة جدًّا – إلى اسـتنتاج العالـم البلجيكي جـورج لومتر نفسـه عندما اقترح نظريـة البج بانج

بطريقة علمية متقدمة متخصصة بعده بأكثر من ألفين وثلاثمائة عام! الاستنتاج أن حدثًا أحاديًّا واحدًا هو ما أنشأ الوجود وأحداثه جميعًا.

حقيقي أن أرسطو أخطأ في اعتماده على نموذج «ميكانيكي» مقدّم للخالق على أنه «المحرك الأول» بدلًا من «الخالق الباطن» المُتَجَلّي نورًا منشئًا للوجود من العدم، إلا أنه يظلّ محقًّا في المبدأ المؤسس لفلسفته التوحيدية. كان أرسطو وجميع الفلاسفة الموحدين الذين جاءوا من قبله ومن بعده محقين في المبدأ، وإن أخطأت فلسفاتهم في التفاصيل.

«السببيّة» التي تحدّث عنها أرسطو ليست المنهج «الفلسفي» أو «المنطقي» الوحيد القائم على إثبات وجود مصدر واحد خالق لكل شيء في الكون. «التوافقية» التي تحدثنا عنها مثلًا –في بداية هذا الكتاب– تشكّل منطقًا آخر: توافق النتائج – عند تكرار التجارب نفسها – دليل «منطقي» آخر على وجود «مصدر واحد مطلق» منظم لكل حدث ونتيجة، مصدر مطلق وسع كل شيء (كل حدث وكل نتيجة)!.. فهذا وهذا فقط ما يضمن تكرار وتوافق النتائج عند تكرار التفاعلات والتجارب نفسها!

كلمة الربّ لم تعنِ الشيء نفسه لجميع ديانات العالم القديم. على الجانب الآخر من المعتقدات الوثنية، وقفت الديانة اليهودية كديانة توحيدية وحيدة في ذلك العالم القديم، ديانة تدعو إلى ربّ مختلف اختلافًا جذريًّا عن الربّ الفرعوني اليوناني الأسطوري القادم إلى العالم من خارجه (دون خلقه)، والذي يحتاج إلى وكيل لتخليص العالم من أنواع الذل.

تحدثت اليهودية عن مبدأ «الخلق»، خلق الكون، ورفضت المعتقد القائل بوجوده الأزلي، تحدثت عن «الرب الأوحد» الذي خلق هذا الكون – من العدم – بكل ما فيه من قطبية ضارة نافعة، ربّ خالق لا يمت للأساطير ونماذجها

بـأي صلـة، ربّ ليس كمثله شـيء، ربّ خالق لكل شـيء بما فـي ذلك الضرر والضعف والذل والموت بالإضافة إلى المنفعة والقوة والعزة والحياة.

تحدثـت اليهوديـة عـن ربّ خالـق للإنسـان يخاطبـه «وحيًـا» ليهديه إلى الحقيقـة – حقيقة نظام الوجود الذي خلقه، وحيًا يهديه إلى السـبيل الحقيقي للخـلاص! خـلاص لا يعتمـد على وكيل «خـلاص جماعـي»، بل «خلاص فردي» متوقف ببساطة شديدة على عقيدة وسلوك كل فرد.

كان مـن الممكن أن تكون اليهودية مرجعًا علميًّا لعلماء أوروبا الملحدين المنشقين عن المسيحية (كما عرضنا)، ودليلًا لهم للإيمان بوجود ربّ خالق للكـون. كان من الممكـن أن تكون اليهودية هي الحل لمشـكلة الإلحاد التي نشأت في أوروبا (العالم المسيحي) بعد اكتشاف الحقائق العلمية التي دفعت العلمـاء والمثقفيـن إلـى رفض تعاليـم الكنيسـة الداعية إلى الإيمـان برب – منفصل عن الطبيعة – بعث إليها ابنه وكيلًا مخلصًا لها من الشر والموت.

إلا أن التعـارض والتناقـض الشـديد بين الاكتشـافات العلميـة من جانب وقصـة الخلـق كما وردت في سـفر التكويـن (الفصل الأول مـن التوراة) من جانـب آخر كانـت كافية لتصنيف علمـاء أوروبا اليهودية أيضًا كأسـطورة من الأسـاطير كما رأينا! ذلـك أن قصة الخلق المذكورة في التـوراة (والمفترض أن تكـون الدليل العلمي على صدق الديانة) تتضمن أخطاء مهمة في تفاصيل وترتيب عملية الخلق كما رأينا. دع جانبًا تقديمها عملية الخلق على أنها عمل مـن أعمـال المفاجأة – ظهور مفاجئ للمخلوقات – شـبيه بأعمال السـحرة. الحقيقة لا تعارض الحقيقة! والحقيقة الباقية علميًّا هي أن عملية الخلق كانت عملًا «إنشائيًّا» تدريجيًّا على أطوار وليس عملًا فجائيًّا.

حكـم علماء أوروبا على اليهودية – بأنها أسـطورة تاريخية – أصبح اليوم حكمًـا قابـلًا للطعـن بفضل اكتشـاف تاريخي غيـر مقصود قام بـه راعي غنم

أردني! إنها قصة اكتشـاف سلسلة «صحائف البحر الميت» في كهوف بجوار نهر الأردن على مقربة من القدس ما بين عامي 1946 و1960، اكتشـاف شـكّل مفاجـأة كبرى للعلماء المتخصصين في دراسـة تاريـخ اليهودية بعد عثورهم فـي هذه الصحائف على نسـخة أقدم من التـوراة مختلفة عن تلـك المتداولة بيننا منذ حوالي ألف وتسـعمائة عام! إنها أيضًا قصة إعادة اكتشـاف اليهودية، اكتشـاف أربـع حقب تاريخية من التحاريف في مضمـون التوراة ما بين القرن الحادي عشر قبل الميلاد والقرن الخامس قبل الميلاد!

كلمـة الـربّ لم تعنِ الشـيء نفسـه لأبنـاء الديانة نفسـها، فها هـو القديس بطـرس – تلميـذ المسـيح الأول – يختلـف مـع القديس بولس حـول تعريف الإيمـان المسـيحي، ويدعو إلـى أول مَجمَع للديانة المسـيحية في القدس (ما بين عامي 48 و51 ميلادية).. كما يؤكد أيضًا الفصل الخامس من العهد الجديد أي الإنجيل (رسـالة أعمال الرسـل). وها هو الخلاف يستمر بينهم بعد انعقاد مَجمَـع القدس الذي ترأسـه القديـس بطرس. بل ها هو الخـلاف بينهم يتطور كمـا تؤكد رسـائل القديس بولـس المكتوبة (بعـد ذلك التاريـخ) في منتصف خمسينيات القرن الأول الميلادي (رسائل القديس بولس في العهد الجديد).

بل ها هو الخلاف المسـيحي – حول تعريف طبيعة الربّ وطبيعة المسـيح – يسـتمر ويتطور لمدة ثلاثة قرون بعد ذلك.. ها هو يسـتمر إلى ما بعد تحوّل الإمبراطـور الرومانـي قسـطنطين (والإمبراطورية معه) إلى الديانة المسـيحية فـي مطلـع القرن الرابـع! ذلك قبـل أن يؤدي هـذا الخلاف الشـديد العاصف بالإمبراطورية إلى دعوة قسـطنطين كنائس الإمبراطورية جميعًا إلى مَجمَع في نيقية عام 325 ميلادية، مجمع ترأسـه الإمبراطـور قبل أن يعلن في نهايته قراره انتصار الإمبراطورية لعقيدة الكنيسة الهلنستية البولسية (عقيدة القديس بولس)

عقيـدة رسـمية للإمبراطورية مع «تجريـم» ما عداها من عقيدة مسـيحية (قرار سياسي الصبغة بما إن قسطنطين صاحبه لم يكن عالمًا في أمور المسيحية كما يشير بعض علماء التاريخ المسيحي اليوم في أوروبا وأمريكا).

وها هم علماء أوروبا – المسيحيون أصلًا – يتمردون في العصور الحديثة على تعاليم المسيحية الهلنستية البولسية المنتصرة والسائدة منذ مجمع نيقية! بـل ها هم علمـاء أوروبا يرفضونها بعـد تعارضها مع الاكتشـافات والحقائق العلميـة التـي أثبتت خطأ تعاليم هذه الكنيسـة الهلنسـتية البولسـية في الدعوة إلـى الإيمان بخالق «منفصل عن الطبيعـة»، منفصل عن خلقه قادم إلى العالم (الخلق) من خارجه – من خلال ابنه ووكيله – المبعوث لتخليص عالمنا من قوى الشر والموت المتأصلة في الطبيعة منذ الأزل!

بـل ها هي حفنة مـن علماء التاريخ المسـيحي في أوروبـا وأمريكا يتهمون القديس بولس مؤخرًا في نهاية القرن العشـرين (بعد اكتشـاف تاريخ هذا العالم القديم) بتقديمه المسـيحية للإمبراطورية الرومانية اعتمـادًا على نفس النموذج الأسـطوري المتـداول والمنتشـر آنذاك فـي أرجائها؛ بهدف تقريبهـا إلى عقول مواطنيهـا وإقناعهـم بها! (راجع في ذلك كما أشـرنا أعمال الباحث المسـيحي فيليـب آسـلر عضو الجمعيـة الملكية بأدنبـره وعميد جامعة القديسـة ماري في تويكنهـام وكذلـك موسـوعة .The Early Chistian World (2000)، والتي تشمل تفاصيل دقيقة جدًّا خاصة بالقديس بولس وبقية الهلنستيين (اليهود أصلًا بطبيعة الحال وكما يخبرنا الإنجيل نفسـه) ودعوتهم ومشـروعهم توحيد العالم القديم حول المسيحية كديانة يهودية الأصل).

حكم علماء أوروبا المنشـقون على المسـيحية بالأسـطورية هـو اليوم حكمٌ قابلٌ هو أيضًا للطعن بفضل ذلك الاكتشـاف التاريخي الذي كان قد تم فجأة في

سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، اكتشاف تلك النسخة من الإنجيل التي أطلق عليها علماء المسيحية لقب Quelle والتي تعني «المصدر» باللغة الألمانية، والتي يرمَز لها اليوم بحرف Q أو Q Source (موجودة على الإنترنت).

Q نسخة غير كاملة من الإنجيل الأصلي – الذي أملاه المسيح بنفسه – كانت موجودة بحوزة متى ولوقا (اثنان من كتّاب الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم في بداية العهد الجديد من الكتاب المقدس)، نسخة اكتشفها فجأة علماء المسيحية (داخل الإنجيل الحالي) في مضمون «التطابق» دون الاختلاف بين متى ولوقا!

Q مكنت علماء المسيحية من اكتشاف نسخة من الإنجيل أقدم من الأناجيل الأربعة المجَمَّعَة معًا والمتداولة من بعد مجمع نيقية كمرجع أوحد للإيمان المسيحي كما أعلنه المجمع، نسخة أقدم من النسخة الحالية المقصورة بطبيعة الحال على رسائل القديس بولس وأتباعه من الهلنستيين: الأناجيل الأربعة (بمعنى الرسائل التبشيرية) رسائل كتبوها أثناء تنافسهم مع القديس «بطرس» الرافض لها، رسائل هدفت نشر مسيحية أكثر «مرونة» من المسيحية الأصلية التي مارسها المسيح شخصيًّا ودافع عنها بطرس بعد وفاته.

ذلك كما تقر هذه الرسائل (المكونة للعهد الجديد) نفسها أثناء دفاعها عن هذه المسيحية «البولسية» احتكامًا لقصة مفادها ظهور المسيح «بعد وفاته» لبولس «في رؤية» أقرت هذا الاتجاه بعد تأسسه!

Q كما اكتشف علماء الدراسات المسيحية – في أوروبا وأمريكا – نسخة غير كاملة من الإنجيل شملت كلام المسيح شخصيًّا (بالآرامية) لا ما هو مكتوب عنه كما هو الحال مع الإنجيل المتداول حاليًّا والمكتوب أصلًا باللغة «اليونانية» لغة الهلنستيين لا بالآرامية لغة المسيح.

Q إعادة اكتشاف جزئي لمبادئ المسيحية الآرامية – المسيحية التي مارسها المسيح شخصيًّا ودافع عنها القديس بطرس حتى وفاته كما يشرح علماء المسيحية في مطلع القرن الواحد والعشرين!

الديانة المسيحية الآرامية الأصلية ديانة حقة سبقت نبوءتها العلمية الاكتشافات العلمية الحديثة، ديانة تنبأت بحقائق هذا الكون بصورة علمية صحيحة: الديانة المسيحية الآرامية الأصلية ديانة بشّرت بمملكة الربّ التي تنمو من «باطن» هذا الكون، متحدثة بذلك ضمنًا عن مبدأ «تطور الكون» ومبدأ الخالق الباطن الحاضر دومًا في الكون وفي الطبيعة!

المسيحية الآرامية ديانة تحدثت عن «خالق باطن» حاضر لا يغيب أبدًا. المسيحية الآرامية عقيدة مختلفة –جملةً وتفصيلًا– عن الديانة المسيحية البولسية الهلنستية التي رفضها علماء أوروبا وأمريكا، عقيدة مسيحية سليمة علميًّا تقلب رأسًا على عقب تصنيف العلماء الملحدين للمسيحية كأسطورة من الأساطير!

المدهش بصفة عامة لمن يدرس قصص الخلق في الديانات المختلفة هو اكتشافه أن الحقائق العلمية – التي دفعت علماء الغرب إلى الإلحاد بعد رفض مبدأ الخالق المنفصل عن الطبيعة الذي يتدخل في شئونها من الخارج – أصبحت هي نفسها فجأة في النصف الثاني من القرن العشرين دليلًا علميًّا على صدق صحة النبوءات الداعية إلى الإيمان بخالق باطن، نبوءات مختلفة كانت قد ظهرت في أزمنة مختلفة حول العالم.. بما في ذلك ديانات «ما قبل التاريخ» المكتشفة مجددًا والتي لم نكن قد سمعنا بقَصَصِها من قبل مثل: التاوية والبراهمانية.

فها هي ديانة «ما قبل التاريخ» المكتشفة في الصين – الديانة التاوية Taoism والتي تعني «السبيل» أو «الصراط» باللغة الصينية – تبشر صحائفها

المكتوبة قبل آلاف السنين بوجود «مصدر مطلق» مسئول عن إنشاء الكون وكل ما يشمله من أشياء ومظاهر:

«عظيم حقًّا المصدر المطلق... فكل شيء يحصل على وجوده منه... وهو الذي يسير الرياح وينزل الأمطار وبه تستنير النهايات مثل البدايات...»! كلام قد يذكر المسلمين بكلام القرآن كما سنرى، وكأنه يتحدث عن نفس الخالق الذي يتحدث عنه القرآن! وكأنه يخرج من المصدر نفسه!

قدمت الديانة التاوية «المصدر المطلق» للصينيين القدماء على أنه «الأول» السابق لكل وجود، «العظيم» القائم بذاته، «الباطن» المنشِئ لكل «ظهور»، «الكبير» الذي وسع كل شيء، «النظام المطلق» أي التاو Tao (بالصينية) الذي لا يمكن فصل أي شيء عنه أو إضافة أي شيء إليه والمسئول عن إنشاء وإدارة كل شيء في هذا الوجود، «النظام» الذي لا وجود دونه ولا مفر منه!

التاو كما تخبرنا الديانة التاوية هو «المطلق» الذي ليس كمثله شيء، المطلق الذي يتخطى بذلك قدرة العقل البشري على الاستيعاب (لاعتمادها على التحليل والتصنيف)، المطلق الذي لا يمكن تصنيفه أو دراسته فأقصى ما يستطيع الإنسان إنجازه هو الاستدلال على وجوده من خلال مشاهدة نظامه الذي يدفع الطبيعة وما تحتويه إلى التغيير بصورة منظّمة.

حقيقي أن الديانة التاوية ولغتها الصينية لا تستخدم عبارة «الرب» أو «الخالق» كما هو الحال في اللغات والديانات الأخرى الموجودة في الجانب الآخر من العالم، إلا أن توصيف هذه الديانة «التاو» يجعل منه الترجمة الصينية لمبدأ «الخالق الباطن»، دع جانبًا استخدام هذه الديانة الأوصاف والأسماء نفسها المستخدمة في الديانات التوحيدية الأخرى (في الإسلام مثلًا) أثناء وصفها «الخالق الباطن»! كل ذلك وكأن الديانة التاوية هي إحدى

هذه النبوءات القديمة جدًّا التي لم تقَص علينا في هذا الجانب من العالم!

ما يعنينا قطعًا هو «المعنى» وليس «الكلمة»، فها هي مثلًا الديانات الأسطورية في مصر الفرعونية واليونان الإغريقية تستخدم كلمة «الرب» بمعنى مناقض لمعناه المستخدم في الديانات التوحيدية! وها هي الديانة التاوية لا تستخدم كلمة «الرب» على الإطلاق ولكنها تعتمد على كلمة «التاو» للإشارة إلى «الخالق» تمامًا كما تستخدم اليهودية كلمة «إلوهيم» وكما يستخدم الإسلام كلمة «الله» للإشارة إليه! ما يعنينا هو المعنى وليس اللفظ المتغير من لغة إلى أخرى!

لم تتحدث الديانة التاوية عن كون «أزلي» الوجود كما فعلت الأساطير القديمة في جانبنا من العالم، بل تحدثت عن خلق الكون من العدم تمامًا كما فعلت الديانات التوحيدية التي ظهرت عندنا بعد ذلك بقرون كثيرة لا نعلم عددها. قصة النشأة من العدم - كما وردت في صحائف وتعاليم الديانة التاوية - قصة تنفي وتفند مبدأ الصدفة مؤكدة اعتماد نشأة كل شيء من العدم على وجود التاو (الخالق) كباطن يبطن العدم المادي نفسه كما تؤكد صحائفها:

«العدم لا يعني البطلان التّام لكل الوجود، وإنما يعني فقط غياب الوجود المادي...إنه أسمى من الوجود المادي لاحتوائه على كل الإمكانات التي يعتمد عليها الوجود». و«عندما يعلم الإنسان أن التشي CHI (روح التاو) تملأ العدم، يعلم الإنسان أنه البطلان غير موجود».

تؤكد نبوءة الديانة التاوية الخاصة بقصة خلق وتطور الكون (إنشاءً لكل شيء) اعتماد عملية الخلق على قطبية كونية (سالبة-موجبة) Yin-Yang منبثقة عن التاو (منبثقة عن الخالق الباطن). هذا تحديدًا ما دفع الديانة التاوية إلى استخدام هذه الصفة «القطبية» كإحدى وسائل وصف «التاو»، وكأنها

أرادت أن تقول إن الخالق هو أيضًا القابض الباسط، الخافض الرافع، الضار النافع، المعز المذل!

نبوءة التاوية في الخلق من العدم نبوءة علمية دقيقة سبقت الاكتشافات العلمية الأحدث بآلاف السنين! نبوءة علمية بهرت علماء الفيزياء الذين كان لهم حظّ اكتشاف هذه الديانة وحديثها عن «القطبية» كأداة خلق لكل شيء (مقارنين إياها بالطاقة النورانية الإيجابية والطاقة النورانية السلبية المتجلّيتين من خلال البروتون والإلكترون تفاعلًا وتكاملًا وإنشاءً لكل شيء في هذا الكون كما رأينا). نبوءة دفعت العالم الدنماركي نيلس بور – أحد أهم مؤسسي علم الكوانتم في القرن العشرين – إلى اتخاذ رمزها (دائرة الين-يانج Yin-Yang القطبية) رمزًا خاصًّا له معبرًا عن إيمانه بهذه الديانة!

هذه الديانة القديمة ديانة لا يؤمن بها اليوم إلا حوالي خمسة عشر مليون شخص من إجمالي المليار وثلاثمائة مليون صيني (الديانة المسيحية تشمل أكثر من ملياري شخص حول العالم، الديانة الإسلامية مليار ومائتا مليون، الهندوسية ثمانمائة مليون، البوذية خمسمائة مليون، اليهودية خمسة عشر مليونًا، وكل ذلك طبقًا لدراسة كانت هيئة الأمم المتحدة قد قامت بها في مطلع القرن الواحد والعشرين).

حديث الديانة التاوية عن «القطبية» الموجودة في هذا الكون يتخطى نطاق قصة الخلق مؤكدًا أن هذه القطبية (السالبة-الموجبة) هي أيضًا الآلية المنظمة لسلوك الإنسان، وهذا تحديدًا ما يجعل هذه الديانة تتحدث عن أنواع من التمارين والرياضات الروحانية (وكأنها أنواعٌ من الصلوات) كوسيلة «لتزكية النفس» واستقبال روح «الحي» المطلق CHI بطريقة مثلى كي يرتقي الإنسان في وجوده (كي تحل عليه البركة) وكي تعينه على حياة الفضيلة.

الديانــة التاوية لــم تكن الديانة التوحيدية الوحيدة في قارة آسـيا في العالم القديـم، فهـا هي ديانة «فجـر التاريخ» التوحيدية المزدهـرة في بلاد فارس ثم الهند خلال القرن السـابع عشر قبل الميلاد (قبل اندثارها ثم اكتشافها مجددًا فـي العصر الحديث) – الديانـة البراهمانية Brahmanism – تبشـر في ذلك الزمان أن هذا الكون كله بما يشمله ما هو إلا «الظاهر» من «المصدر المطلق» أو «البراهما» Brahma كما أطلق عليه الهنود في لغتهم.

هـا هــي الديانة البراهمانيـة تدعو إلى الإيمـان بالمصـدر «الواحد الأول» خالق هذا الكون، «المصدر الحق» الذي لا يمكن إضافة أي شيء له أو فصل أي شيء عنه!

هـا هي الديانة البراهمانية التوحيدية تخبرنا بأن الخالق هو المصدر القائم بذاته، والذي يتخطى – بذلك – قدرة العقل البشري المحدود على الاستيعاب أو الوصـف، ها هي تخبرنا بأن الخالق هو أيضًـا «الروح» والطاقة التي تمكّن وجود الحياة والكائنات الحية، وها هي تتحدث عن مبدأ الخلق من العدم.

وها هو رائد الإصلاح الديني الهندوسـي ديانالند سارفسفاتي يثور في عام 1875 على تحريف الديانة البراهمانية التوحيدية وتحويلها إلى ديانة هندوسية أسطورية معتقدة في آلاف الآلهة وفي عبادة الأصنام وفي تقديس الحيوانات! ها هو يؤسـس حركة «أرياساماج» المعنيّة بتنقيح الديانة الهندوسية من الوثنية التي استشرت فيها عبر العصور!

وها هم علماء التاريخ الديني الهندوسي يكشفون كثيرًا من تفاصيل عملية التحريف هذه والتي كانت قد بدأت في القرن السـادس قبل الميلاد، كاشفين عــن كثير من تفاصيل الدعوة البراهمانية التوحيديـة الأولى الثابتة في التعاليم الأقـدم في كتابهـم المقدس الريج ڤيـدا Rig Veda، ذلـك الكتاب المقدس

الـذي توارثـه الكهنة الهندوس عـن الديانة البراهمانية قبـل أن يقوموا بإضافة تلـك المعتقـدات الأسـطورية التي حرّفتهـا تدريجيًّا لتحل فـي النهاية محلها الهندوسية بمعتقداتها الوثنية الأسطورية.

كل ذلـك وكأننا أمام نموذج تاريخي يكرر نفسـه، نمـوذج تحريف الديانة الإبراهيمية (ديانة إبراهيم) في شـبه الجزيرة العربية والتي كانت بدأت كديانة توحيدية حول الكعبة ربما خلال القرن التاسـع عشـر قبـل الميلاد كما يقترح بعض المؤرخين بعد اكتشـافات حفرية تمت في «تـل المغير» بالعراق، وكما تقترح بالتقريب نشـأة وتسلسل تاريخ بني إسرائيل (أبناء يعقوب) في التوراة، ديانة إبراهيمية توحيدية (ديانة إبراهيم) شـملها التحريف التاريخي لتستشرى فيها الأساطير وعبادة الأصنام تمامًا مثل الديانة «البراهمانية»!

دع جانبًا تشـابه أسـماء الديانتين الإبراهيميـة والبراهمانية، وهو ما يجعلنا نتسـاءل إن كان مجرد تشـابه أم أن البراهمانية نسـخة منقولة (بغض النظر عن دقـة المحتوى) عن الديانـة الإبراهيمية (ديانة إبراهيم) التي كانت قد سـبقتها ربمـا بحوالي قرنين فقط من الزمان. سـؤال لا إجابـة عنه في ظلّ قدر المعرفة المتوافرة لنا اليوم!

المدهـش في جميع الأحوال هو تطابق نموذج تطـور الديانتين تاريخيًّا بعد ذلـك، فالبراهمانية المحرفة هندوسـيًّا كانـت الخلفية التاريخيـة لظهور الديانة البوذية التوحيدية (بعد ذلك بأكثر من ألف عام) في شمال الهند تمامًا كما كانت الإبراهيمية (ديانة إبراهيم) المحرفة عربيًّا هي الخلفية التاريخية لظهور الإسلام ديانة توحيدية بعد ذلك ربما بأكثر من ألفي عام في شبه الجزيرة العربية!

فهـا هو البوذا (لقب معناه «المسـتنير») سـيدارتا جوتَمـا يرفض في القرن الخامس قبل الميلاد المعتقدات الهندوسـية الوثنية ويلجأ إلى العزلة والتأمل

بحثًا عن حقيقة الوجود (تمامًا كما فعل إبراهيم قبله بأكثر من ألف عام، وكما فعل محمد بن عبدالله بعده بأكثر من ألف عام)، بل ها هو يعود بعد «استناراته» لقومه بشيرًا يدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام والأساطير المسيطرة عليهم!

ها هو البوذا يؤسس الديانة البوذية (الأصلية) Buddhism ويبشر بوجود «الحق المطلق»: ها هو يبشر بوجود «النظام الباطن المطلق» – الدامّاكايا Dhammakaya كما هو اسمه في لغة البوذا اللغة «الباليّة» – المصدر والنظام الموجود بذاته القائم بذاته، «المصدر المطلق» الذي يتخطى العدم والوجود معًا، «الأول» المسئول عن إنشاء الوجود (إنشاء كل شيء)، «الباطن» المستمر دائمًا وأبدًا في إدارة كل حدث وتحديد كل نتيجة في هذا الكون، «الحق» الذي ليس كمثله شيء!

بل ها هو البوذا يتحدث عن «مبدأ» الخالق (النظام المطلق الدامّاكايا) بلغته المختلفة عن لغتنا، معتمدًا في وصفه على عبارات مثل: الأول، الحق، الباطن، العليم، النظام القدوسي الشامل المطلق المنظم لكل ظاهرة وكل علاقة وكل تفاعل وكل نتيجة في هذا الكون!

وها هو البوذا يقدم نبوءة علمية دقيقة قائلة بتكوّن كل شيء وكل مادة وكل حياة في هذا الكون – على المستوى الأعمق والأدق – من «موجات» لا مادية مسئولة عن إنشاء المادة والأحياء جميعًا! نبوءة علمية دقيقة في حقيقة التفاعلات (النورانية الكهرومغناطيسية كما رأينا) المسئولة عن إنشاء المادة والحياة! نبوءة علمية دقيقة قدمها البوذا سيدارتا جوتَما كدليل على صدق تعاليمه التوحيدية التي دعا الهندوس (عبدة الآلهة) وغيرهم إلى الإيمان بها!

بعض الدارسين الغربيين يظنون خطأً أن البوذية ديانة لا تؤمن بخالق لعدم استخدام لغتها مصطلح «الخالق» بصورة مباشرة، إلا أن دعوته إلى الإيمان

بمصدر مطلق (نظام مطلق) مسئول – ليس فقط عن إنشاء وإدارة كل شيء في هذا الكون – بل أيضًا عن الثواب والعقاب يؤكد لنا عكس ذلك! دع جانبًا التوازي بين بشارة البوذا وتعاليمه من جانب ومبادئ وتعاليم الديانات التوحيدية من جانب آخر!

بل ها هو البوذا يتنبأ في القرن الخامس قبل الميلاد بظهور مبشرين يأتون من بعده يدعون إلى «الحق»! وها هو يتنبأ أيضًا بنسيان تعاليمه الحقة بعد وفاته!

وها هي الديانة البوذية تظهر فعلًا في ثوب جديد مختلف في حدود القرن الأول قبل الميلاد (كما تنبأ البوذا وبعد وفاته بأربعة قرون)، ها هم البوذيون الجدد يصنعون للبوذا تماثيل (كان قد نهى عنها) ليتبركوا بها، وها هي العادات الوثنية تجد طريقها إلى الديانة البوذية! وكيف يمكن أن يتبركوا بها بعد أن أصرّ البوذا على تقديم نفسه لهم كإنسان ينتظر الموت مثله مثل الجميع قائلًا: «لقد أصبحت عجوزًا...وقاربت نهاية أيامي...ما ولد وأصبح كائنًا وما أصبح مرَكَّبًا قابلًا للتحلل كيف يمكن ألا يتحلل؟ هذا غير جائز» (Gethin, 26).

بل ها هي الديانة البوذية تنقسم (كما تنبأ البوذا) إلى ثلاث ديانات مختلفة متنازعة اليوم: ديانة البوذية «الثرفادا» في جنوب شرق آسيا (من سريلانكا إلى تايلاند)، ديانة البوذية «الماهايانا» (الصين واليابان)، وديانة البوذية «التبتية» (منطقة التبت شمال الهند جنوب الصين)، بل ها هي كل ديانة من هذه الديانات البوذية الثلاث تؤسس كتابًا «بوذيًّا» مقدسًا – مختلفًا – خاصًّا بها!

البوذا سيدارتا جوتَما بشير الصابئين (الخارجين على وثنية الهندوس) لم يدع إلى الخرافات سبيلًا «للخلاص» كما يظن بعض متبعيه اليوم، بل دعا إلى «الاستنارة» وحياة الفضيلة كسبيلٍ وحيدٍ لهذا الخلاص في الدنيا والآخرة طلبًا للنيرفانا Nirvana (معادل مبدأ الجنة: ما قدمه على أنه الوجود الأمثل في

العالم الآخر بعد الموت)، استنارة هدفها الخروج من الظّلمات العقائدية إلى النور الهادي.. استنارة تتطلب أول ما تتطلب الإيمان بوجود «المصدر الواحد المطلق» – الداماّكايا Dhammakaya المصدر المنشأ للوجود والنظام القائم على حساب الإنسان على أعماله، نظام أطلق عليه لقب Karma بمعنى نظام الثواب على الأعمال الحسنة والعقاب على الأعمال السيئة.

وها هو الإسلام يدعو إلى الخالق «الباطن العليم» – أي المصدر «المعلوماتي المطلق» – المسئول عن إنشاء كل شيء من العدم: «العليم» الذي وسع كلَّ شيء علمًا مسبقًا، «الباطن» الذي أنشأ كل شيء من باطنه ليصبح بذلك أقرب إلى الأشياء وإلى الكائنات منها إلى نفسها، «الظاهر» الذي لا يمكن إضافة أي شيء إليه أو فصل أي شيء عنه، «الأول» الذي سبق كل شيء، «الآخِر» منتهى كل شيء.

ها هو القرآن (كتاب المسلمين المقدس) يقدم الخالق على أنه المصدر المطلق مصدر كل شيء وكل قطبية موجودة في هذا الكون، واصفًا إياه على أنه الضار النافع، المقدم المؤخر، الخافض الرافع إلخ، بل ها هو يقدم تسعة وتسعين اسمًا وصِفة متعاونين معًا في وصف هذا الخالق الباطن الذي ليس كمثله شيء. «المطلق» المستحيل استيعابه أو استيعاب حكمته في الخلق! وكيف يمكن للمحدود أن يستوعب أو يقَيِّم اللامحدود إلا وهمًا وخطئًا؟! فكل ما يستطيع الإنسان إنجازه هو إعمال العقل في الاستدلال على وجوده ثم الإيمان به والتسليم لنظامه الذي يتخطى قدرة العقل على التقييم أو الاستيعاب!

ها هو القرآن يقدم الخالق على أنه «الباطن» الموجه «للطبيعة» ولعملية إنشائها الأشياء من الداخل، ها هو يؤكد أن عملية خلق الكون (بما في ذلك الكائنات الحية) لم تكن أبدًا عملية ظهور مفاجئ وإنما عمل إنشائي على أطوار (تطور) قائم على إنشاء الخلق خلقًا آخر!

بل ها هو القرآن يتحدث عن نبوءته العلمية – القائمة على كشف أسرار قصة الخلق مقدمًا للإنسان – كدليل ليس فقط على وجود الخالق الباطن إنما أيضًا كدليل على صدق ظاهرة تخاطب هذا الخالق مع الإنسان – وحيًا – من خلال ديانات توحيدية عديدة يتحدث عنها القرآن مصرًّا على وجود ديانات توحيدية حقيقية أخرى لم نسمع بها!

أما المدهش، فهو أن القرآن يتضمن وعدًا من الخالق بتمكين الإنسان من اكتشاف تفاصيل هذه القصة المذكورة في القرآن مقدمًا (قبل ألف وأربعمائة عام) كدليل لإنسان المستقبل على صدق محتواه: ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (فصلت: 53)؛ بل إن القرآن يدعونا إلى التفكر في هذا الوعد متسائلًا: هل يمكن أن يقص على الإنسان قصة الخلق «الحقيقية» إلا خالقها الأوحد الذي شهدها حقًّا؟!

قصة الخلق في القرآن قصة تشمل فيما تشمل ثلاثة مستويات رئيسية: المستوى الأول مستوى الكون (السموات والأرض)، المستوى الثاني مستوى كوكب الأرض، المستوى الثالث مستوى الحياة والإنسان.

القرآن يتحدث كما تحدثت التوراة عن خلق الكون (السموات والأرض من العدم: ﴿ ... **ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا** ﴾ (الأنبياء: 30)، إلا أن هذا لا يعدو كونه نقطة البداية. القرآن يقدم قصة الخلق من العدم لا كعمل من أعمال الظهور المفاجئ للأشياء والكائنات، بل على العكس التام من ذلك كعمل إنشائي متدرج (على أطوار) يقوم به «خالق باطن» مُتَجَلٍّ في هيئة «النور» المكون لهذا الكون: ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ (النور: 35)، رابطًا بذلك مجمل الحقائق العلمية المكتشفة بواسطة نظرية البج بانج (نشأة «النور» من «باطن» العدم ثم إنشائه على أطوار الكون ثم

المادة ثم الكائنات الحية كما رأينا) من جانب بمبدأ الخالق الباطن -المذكور في القرآن- المُتَجَلّي نورًا والمسئول عن إنشاء كل شيء على أطوار من جانب آخر، بل إن لغة القرآن تتحدث بصورة مباشرة عن عملية الخلق كعملية «إنشائية» متدرجة قائمة على إنشاء الخلق الأبسط خلقًا أكثر ثم أكثر تقدمًا (من الذرة إلى الإنسان كما سنرى)!!

القرآن يشمل على هذا المستوى الكوني نبوءات علمية كثيرة غير متوقعة. إنه يتحدث مثلًا وكما أثبت العلم الحديث عن السماء (الفضاء) كبناء في حالة اتساع مستمر: ﴿ **وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ (الذاريات:47)، يتحدث عن «انعراج» الفضاء و«نسبية» الزمن تمامًا كما أثبتت نظرية آينشتاين في عام 1916: ﴿ ... **يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ (السجدة:5).

نبوءة القرآن العلمية في وصف الكون (ذلك الوصف المقدم كدليل علمي على صدقه) شملت فيما شملت «الثقوب السوداء» التي اكتشفها علماء علم الكون في فضاء هذا الكون مؤخرًا في سبعينيات القرن العشرين (دعونا نُذَكِّر أولًا أن نشأة «الثقب الأسود» في الفضاء تعتمد كما اكتشف العلم على تحول «النجم» الضخم إلى «ثقب» في الفضاء أي السماء بعد إصداره أصوات «طرق» رصدتها التقنيات الأحدث: ﴿ **وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ** ﴾ (الطارق:1-3)!

المجموعة الثانية من النبوءات العلمية المذكورة في القرآن تحدثت عن تكوين كوكب الأرض بما في ذلك قصة نشأته. القرآن تحدث عن نزول المواد المكوّنة لكوكب الأرض من السماء (من الفضاء) تمامًا كما أثبت علم الكون الحديث بعد اكتشاف ظاهرة الجاذبية وتفاصيل قصة نشأة كوكب الأرض خلال القرن العشرين.

بل إن القرآن يتحدث -ولشديد دهشتنا عن نزول جبال من السماء (الفضاء)، جبال تحتوي في داخلها على «البَرَد» أي الثلج: ﴿...وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ...﴾ (النور:43) تمامًا كما أكدت اكتشافات علم فيزياء الفضاء في دراستها التكوين الداخلي «للنيازك» (الجبال الطائرة) التي كانت قد «نزلت» إلى كوكب الأرض بفعل الجاذبية -أثناء تكونه- كما رأينا. القرآن يتحدث أيضًا عن «نزول الحديد» تمامًا كما أثبت هذا العلم بعد اكتشافه تفاصيل قصة تكون كوكب الأرض: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ (الحديد: 25)! .. حقائق علمية كانت لتبدو أقرب إلى الخيال قبل ألف وأربعمائة عام!

دع جانبًا حديث القرآن عن الحديد تحديدًا بما إنه -كما نعلم اليوم وكما كان مجهول في الماضي- المكوّن الرئيسي لكوكب الأرض! دع جانبًا الأدوار التي لعبها الحديد في تثبيت كوكب الأرض في موقعه من المجموعة الشمسية وفي حمايته من الرياح الشمسية والتي تدل حقًّا على «بأس شديد»!

القرآن يتحدث صراحة عن دور هذه المواد النازلة من السماء في «تثبيت» كوكب الأرض في موقعه من الفضاء: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ...﴾ (النحل 15). نبوءة علمية تذكرنا بظاهرة الجاذبية واعتمادها على قدر المادة المكوّنة للكوكب كما اكتشف العالم إسحاق نيوتن بعد ذلك بأكثر من ألف عام.

نبوءات القرآن الجيولوجية كثيرة جدًّا بل وعجيبة غير متوقعة، فها هو القرآن يتحدث مثلًا عن تحرك الجبال الواقعة على سطح كوكب الأرض والتي كنا نظنها ساكنة قبل اكتشاف العلم مؤخرًا حركتها البطيئة الدائمة: ﴿...وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ (النمل:88)! بل ها هو يشبه مرور الجبال بمرور السحاب (والذي قد يبدو تشبيهًا مريبًا للملحدين) قبل أن تخرج علينا اكتشافات القرن العشرين الأحدث كاشفة عن اعتماد

الظاهرتيـن على نفـس نوعية التفاعـلات (النورانية الكهرومغناطيسـية) مؤكدة بذلك أن الجبال تمر فعلًامرور السحاب وإن اختلفت السرعة.

المجموعة الثالثة من نبوءات القرآن العلمية تختص بالحديث عن أسـرار قصة نشـأة الحياة والإنسـان قبل اكتشـافها بألـف وأربعمائة عـام. نبوءة تنفي نفيًا قاطعًا أسـطورة تحـوّل التراب إلى كائن حي (إنسـان) بصورة فجائية، بل تصر -على العكس التـام من ذلك- على مسلسـل من العمليات «الإنشـائية» المسئولة عن خلـق النطفة (الخلية) من التـراب (الذرة هي أدق أنواع التراب الذي لا يرى بالعين المجـردة كما رأينا) قبل خلق الإنسان من النطفة (الخلية): ﴿ ... **خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا** ﴾(الكهف:37).

قصة نشـأة النّطفة من التراب (الخلية مـن الذرة) في القرآن هي أيضًا قصة نشأة الحي من الميت. القرآن يتحدث عن نشأة الحياة من الماء: ﴿ **...وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ...** ﴾ (الأنبياء:30). ويتحدث في ذلك أيضًا عن سلسلة طويلة من التفاعلات «الإنشائية» المسئولة عن إنشاء التراب (الذرة) خلقًا ماديًّا من بعد خلق مادي قبل نشأة النطفة (الخلية): تراب (ذرة)، ماء (مواد بسيطة)، طيـن (مواد مركبة تحتوي علـى الماء)، طين لازب (مواد أكثـر تعقيدًا)، حمأ مسنون (مواد بركانية مشتركة في التفاعلات كما ثبت علميًّا أيضًا بعد اكتشاف تاريخ كوكب الأرض كما رأينا)، صلصال كالفخار (مواد أخرى)... إلخ.

نبـوءة القرآن في بقية تفاصيل أسـرار قصة نشـأة الإنسـان تؤكـد على مبدأ تطور الحياة: ﴿ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** ﴾ (نوح:14)، بل إن القرآن فصّل قصة تطور الخليـة (النطفة) بأدق تفاصيلها الثابتة اليـوم علميًّا قبل ظهور نظريات التطور الأوروبية بأكثر من ألف عام، فها هو القرآن يتحدث عن النطفة (الخلية) التي تحولـت إلى عَلَقَـة (تعاونية خلايا) ثم مُضغة (كائن رخوي) قبل أن ينشـأ في

النهاية لهذا الكائن الرخوي أعضاء صلبة ولحم (بدلًا من الخلايا السليلوزية الأولى) وقبل أن ينشأ بذلك الإنسان في النهاية خلقًا آخر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ (الحج: 5).

هكذا يقدم الخالق تفاصيل قصة إنشاء الإنسان «من التراب» كدليل علمي لكل متشكك في «البعث» أي في قدرة الخالق على إنشاء الإنسان المتوفى مجددًا بعد تحلله وتحوله إلى «تراب»! وذلك من خلال سياق يلخص تلخيصًا دقيقًا مجمل اكتشافات «علم التطور» الأحدث كما ثبتت مؤخرًا في نهاية القرن العشرين بعد عناء طويل وأخطاء علمية كثيرة كما رأينا!

بل إن القرآن يتحدث -كما هو مذكور أعلاه- عن مرحلة واحدة شملت في آن واحد مُضغتين- مُضغة مخلقة ومضغة غير مخلقة (أي كائنين: كائن رخوي متقدم التكوين وكائن رخوي أبسط)، وكأنها إشارة إلى عمليات «التزاوج التهجيني» بين الكائنات الرخوية (المُضغة) -كإحدى مراحل خلق الإنسان- كما اتضح مؤخرًا لعلماء التطور. بل إن تقديم الكائن الرخوي «المتقدم» التكوين على الكائن الرخوي «البسيط» في النص المذكور أعلاه ينفي بطبيعة الحال أي تفسير قائل إن الثاني مجرد تطور أو نمو للأول، مرجحًا بالفعل مفهوم الكائنين الرخويين (المُضغتين) «المتزاوجين تهجينيًّا».

القرآن لا يقف عند هذا الحد، فالمذهل أيضًا هو أن القرآن يشمل أيضًا نبوءة مزدوجة تتحدث عن تفاصيل علمية نمو الجنين، كاشفة أيضًا عن توازٍ محوري بين عملية نمو الجنين من النطفة أيضًا (الخلية المخصبة) في رحم الأم من جانب وعملية خلق الإنسان من النطفة (الخلية) من جانب آخر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ

﴿مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ...﴾ (المؤمنون: 12–14). وهو تحديدًا ما تأكد بعد ذلك بألف وأربعمائة عام خلال القرن العشرين بعد اكتشاف تكنولوجيا «السونار» التي مكنت العلماء من التعرف على قصة نمو الجنين، وكما يمكننا أن نشاهد اليوم على الإنترنت!!

(توازي عملية «تطور» الإنسان أثناء خلقه مع عملية «نمو» جنينه في الرحم أثناء تكاثره تواز «محوري» لا يقص علينا «تفاصيل» عملية «التطور» التي أنشأت الإنسان من الخلية وإنما يكشف فقط عن «محطات التطور» المحورية التي كانت قد نشأت بعد كل حقبة من الحقب والتي تعدى كل منها مئات الملايين من السنين).

هذه هي نبوءة القرآن العلمية والتي يقدمها كدليل علمي على وجود خالق لهذا الكون كما ذكرنا متسائلًا: أولا يكفي أن يوحي الخالق للإنسان أسرار قصة الخلق «الحقيقية» قبل اكتشافها كدليل على وجوده؟ أو لا يكفي أن يتحقق وعده للإنسان تحقيق اكتشافات تثبت له صحة هذه التفاصيل الموحي بها مقدمًا؟

المدهش هو أن القرآن لا يقدم هذه النبوءات والبراهين دليلًا على صحة الديانة الإسلامية فقط وخطأ غيرها من الديانات، بل يقدمها كدليل على صدق جميع الديانات «التوحيدية» الحَقَّة المتعددة التي أوحى بها الخالق عبر العصور حول العالم، مؤكدًا وجود ديانات توحيدية كثيرة لم يسمع بها المسلمون أصلًا (التاوية؟ البراهمانية؟ البوذية الأصلية؟).

دع جانبًا اشتراط القرآن الإيمان بجميع الرسل والديانات التوحيدية الحقة التـي يتحدث عنها (بما في ذلك اليهودية والمسـيحية إضافة إلى ديانات نوح وإبراهيم وغيرهم الكثير) كجزء لا يتجزأ من الإيمان الإسلامي!

أما المؤسـف فهو أن نبوءات القرآن العلمية هذه لم تستطع القيام بأي دور يذكـر فـي تصحيح المفاهيـم الإلحادية المتداولـة اليوم بين كثيـر من العلماء والعامة حول العالم!

ذلـك أن الإسـلام مصنّـف في الغـرب كدين أسـطوري تمامًا مثـل اليهودية والمسـيحية كما تقدم (بل مصنف أيضًا كدين همجي متخلِّف)؛ وذلك لسـببين بسيطين جدًّا: غِلظة المسلمين بصفة عامة – إضافة إلى الإرهاب المتأسلم بصفة خاصة – ينفران من الدين الإسلامي ولا يشجعان أحدًا في العالم على الانجذاب أو البحث أصلًا في حقيقة هذا الدين المظلوم بذلك من قبل معتنقيه.

الإسـلام دين أساء إليه معتنقوه تمامًا كما أساء معتنقو الديانات التوحيدية الأخرى إليها أثناء تناقلهم التاريخي أو ممارستهم لكل منها، هذا وإن اختلفت طبيعة الإساءة!

الإسـلام لـم يخـل بالطبـع – مثلـه مثل جميـع الديانـات الأخـرى – من محـاولات التحريـف التاريخية، فها هـو رائد الإصلاح الإسـلامي البخاري (طبقًـا للمنقـول التاريخي) يثور في القرن الثامن الميلادي على ما قد وصلت إليه التعاليم (الأحاديث) المنسـوبة إلى رسول الإسلام محمد بن عبدالله من حـال (بعد قرنين مـن وفاته)، وهـا هو (طبقًا للمنقول التاريخـي) يقوم بتنقيح هذه الأحاديث مبَيِّنًا ابتداع أو تحريف ما يزيد على تسعين بالمائة من إجمالي المائة والعشـرين ألـف حديث المتداولـة حينذاك بين المسـلمين معتمدًا في النهاية أقل من عشرة آلاف حديث!

الفارق الجوهري طبعًا هو عدم تعرّض كتاب المسلمين المقدس – القرآن – لأي محاولة تحريف بسبب سرعة تدوين وتسجيل محتواه كوحي من الخالق أي كنص لا يقبل أي حذف أو إضافة أو تعديل! هذا التدوين والتسجيل الدقيق (بدرجة استثنائية مقارنة بالكتب الأخرى) هو تحديدًا ما يمَكِّن اليوم تلاقي الحقائق العلمية الأحدث مع نبوءات هذا الكتاب كما رأينا، دليلًا على وجود خالق قائم على وحي مضمونه انتصارًا لجميع الديانات الحقة!

ليست كل المعاني الدينية والفلسفية المرتبطة بعبارة «الربّ» طاردة لبعضها، فها هو الاتجاه الفلسفي العام عند «أرسطو» يتوافق – في المبدأ وليس التفاصيل – مع المبدأ التوحيدي في الإسلام وديانات توحيدية أخرى.

بل ها هم علماء المسلمون الذين اكتشفوا فلسفة أرسطو وعلومه – بما في ذلك ابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم – يصفون أرسطو «بالموحد المنطقي» ويطلقون عليه لقب «المعلم الأول»، بل ها هم ينقلون عنه كثيرًا من مبادئ الفلسفة والعلوم الطبيعية قبل أن يطوروها تطويرًا كبيرًا.

المبادئ التوحيدية – في الديانات المختلفة حول العالم وعصوره – ليست طاردة لبعضها، فها هي ديانات فجر التاريخ الآسيوية التوحيدية القديمة تفاجئنا بعد اكتشافنا تاريخ ذلك الجانب من العالم القديم بتقديم مبادئ توحيدية شبيهة بتلك الموجودة في الديانات السامية (اليهودية والمسيحية الآرامية والإسلام)، بل وقبل ظهور هذه الديانات السامية بقرون طويلة!

تدعونا جميع الديانات التوحيدية إلى الإيمان بوجود «مصدر باطن عليم»، مسئول عن إنشاء كل شيء، هذا وإن أطلقت عليه بعض هذه الديانات ولغاتها لقب مثل «المصدر» بدلًا من «الرب» أو «الخالق».. تلك الألقاب الموجودة في اللغات السامية (العبرية والآرامية والعربية)، المهم هو المعنى وليس اللغة أو اللفظ!

أوجه التوافق بين الديانات دليلٌ على أن كلَّ هذه الحقائق تأتى من المصدر المعلوماتي الباطن نفسه: الواحد الباطن العليم (الخالق) الذي أنشأ الخلق. الحقيقة لا تعارض الحقيقة لا لشيء إلا أن مصدرها واحد! والاختلاف ما هو إلا دليلٌ على النسيان أو التحريف الجزئي.

توافق المبادئ التوحيدية في الديانات الآسيوية القديمة من جانب والديانات السامية من جانب آخر ما هو إلا جزء من معادلة أكبر كثيرًا تشمل ديانات أخرى مكتشفة خلال القرن العشرين في أماكن شتى حول العالم (في أستراليا وإفريقيا والأمريكتين على سبيل المثال)، ديانات تشمل فيما تشمل مبادئ توحيدية أصلية (ديانات لا يسع المجال لذكرها).

ديانات كثيرة حول العالم تؤكد لنا أن الخالق الباطن خاطب أممًا كثيرة (عبر التاريخ) وحيًا من خلال أفراد ذوي قدرات من طبيعة خاصة؛ بهدف هداية الإنسان إلى الحياة الروحانية الفاضلة السليمة كهدف أسمى لوجوده وتطوره في هذا العالم ثم العالم الآخر!

كلّ دين وكلّ مقترح عن «الرب» ما هو – في حقيقة الأمر – إلا نبوءة علمية (صادقة كانت أم أسطورية) عن حقيقة الكون: مصدره، حقيقته، نظامه، مستقبله، نهايته، ونهايتنا معه!

قد لا تعني عبارة الربّ نفس الشيء لكل الناس كما رأينا، إلا أن العلم اليوم يدفعنا –ولأول مرة في التاريخ – في اتجاه جديد غير مسبوق بعد ظهوره مؤخرًا كقاعدة ومنهجية للتعرف على الربّ الحقيقي الذي ليس كمثله شيء!

هكذا أصبح كلّ حديثٍ عن الربّ وكلّ حديثٍ عن الخلق وكلّ حديثٍ عن أي كتاب مقدس بل وعن أي دينٍ وما يقترحه على موعدٍ مفاجئٍ مع العلم!

علـم الإنسـان تطوّر تطـورًا كبيرًا مـا بين عصـر الأسـاطير وعصرنا عصر الحقائق العلمية: كلّ إنسان منَّا له مطلق الحرية في اختيار ما يعتقد في صحته كسبيل لخلاصه!

كلّ إنسانٍ له مطلق الحرية في أن يستمر في إلحاده أو توارث ديانة الأجداد تعصبًا أعمى لمتوارثه التاريخي، كلّ إنسانٍ له مطلق الحرية في أن يخدع نفسه حتى لا يزعزع أمانه العقائدي والمجتمعي.. كل إنسان له مطلق الحرية في أن يضحي بفرصة استنارته كسبيل أوحد للخلاص الحقيقي!

إلا أن القاعدة الثابتة ستظل دومًا وأبدًا: الحقيقة لا تعارض الحقيقة!

خاتمة الكتاب

تطوّرت الإنسانية تطورًا كبيرًا منذ العصور القديمة عندما كان الناس يتنازعون ويتقاتلون في كل مكان كقبائل صغيرة تفصل بينها كيلومترات قليلة. دائرة السلام المجتمعي والعالمي في حالة اتساع تاريخي مستمر بسبب التطور الدائم في المعرفة، هذا وإن لم نلحظ ذلك لانشغالنا بمشكلات ونزاعات زماننا.

تاريخ الإنسانية ما هو في مشموله إلا تاريخ عصور حَلَّت محل بعضها بصور متتابعة لا لشيء إلا تطوّر المعرفة! نحن دائمًا على أبواب عصر جديد بفضل التقدم العلمي المستمر.

الحقيقة العلمية الشاملة المكتشفة في السنوات الأخيرة تبَشِر بإمكانة تأسيس عصر جديد في المستقبل – عصر «الروحانيات العلمية»– عصر أكثر تقدمًا على سبيل السلام الفردي والمجتمعي والعالمي! عصر عالمي جديد يتخطى طبيعة العصر «المادي الاستهلاكي» الحالي برمّته إلى ما هو أسمى وأفضل!

عصر جديد تتلاقى فيه الحضارة العلمية (حضارة البحث والعمل والإبداع) مع الحضارة الروحانية (حضارة السلام والتأمل والتعبّد)!

تخطى الحدود الوهمية التي تفصل ما بين العلوم كما تحدثنا – إنشاءً للروحانيات العلمية – هو أيضًا سبيلنا لتخطي الحدود السياسية والثقافية

والدينيـة توسـيعًا لدائرة السـلام العالمـي، سـبيلنا إلى حل الخـلاف والنزاع التاريخـي المتأصـل بيـن الحضـارات والديانـات، سـبيلنا الوحيـد لتوحيـد الإنسانية حول سلام روحاني مشترك.

تحدثنـا قبـل ذلك عـن الهـدف الأول من هـذا الكتاب: السـلام الداخلي لكل إنسـان مفكِّر باحث عن الحقيقة. الهدف الثاني من هذا الكتاب هو نشـر «الروحانيـات العلمية» حـول العالم، ليتحقق بذلك لأفـراده ومجتمعاته -بل ولعالمنـا- تقدمٌ جـادٌ على طريق السـلام الروحانـي العالمـي، ليرتفع بذلك بأفـكاره ومعتقداته ومبادئه في الحياة، وليتخطى حدود عصرنا الحالي الضال إلى عصر من الروحانيات والتآخي.

الهـدف الثالـث مـن هـذا الكتـاب هو دعـوة كل قـارئ للعمل على نشـر «الروحانيـات العلميـة» حول العالـم (شـيء يسـير اليوم مع وجـود الإنترنت والمواقـع الاجتماعية ووسـائل الاتصـال الحديثة) تأسيسًـا لعصـر روحاني علمي جديد نصنعه بأنفسـنا بدلًا من العصر المادي الاسـتهلاكي (الداروينية المجتمعية) المفروض علينا عالميًّا بواسطة أباطرة الإلحاد كما رأينا.

قـد يبـدو الهـدف حالمًا مسـتحيلًا للبعض، إلا أنـه غير ذلـك، فهو هدف متوافـق توافقًا تامًّا مع النمـوذج التاريخي المتكرر دومًا والمسـئول عن تتابع العصـور وسـقوط الحضارات الأقوى: نمـوذج «ثورات المعرفة» المسـئولة بدورها عن كل تغيير جذري في تاريخ البشرية!

إن كلَّ إنجاز تاريخي عظيم بدأ فكرة صغيرة! هذا هو -وهو فقط- النموذج التاريخي الحقيقي المتكرّر دومًا وأبدًا. النظام المادي العالمي القائم اليوم لم يولـد عملاقًـا، بل ولد فكرة صغيـرة على أيدي حفنة محـدودة من المفكرين خلال عصر النهضة الأوروبية أو عصر التنوير الذي تلاه، أي ولد بذرة ضعيفة

خلال عصر سيطرت خلاله الكنيسة على أوروبا سيطرة مطلقة دامت أكثر من ألـف عام! ذلك قبـل أن تكبر هذه البـذرة تدريجيًّا وقبل أن تنتصـر في النهاية على الكنيسة، شيء ما كان ليصدقه أي عاقل وقتها.

كلّ تطـورٍ تاريخـي يبدأ ببذرةٍ صغيـرةٍ قبل أن يحوّلها أنصارها إلى شـجرة كبيرة قوية ذات فروع منتشرة ومثمرة؛ أي نظام عالمي جديد!

يشـمل هذا الكتاب فيما يشمل نظرةً مسـتقبليةً وتطلّعًا لما يجب أن تصبح عليـه معرفـة ومعتقدات الأفراد والشـعوب حول العالم. هـذا الكتاب هو في النهايـة دعـوة للكبـار والصغار معًا إلـى الاتحاد والعمل علـى تصحيح اتجاه الفكـر الفـردي والعالمي.. دعـوة إلى العمل الجـاد المتفاني من أجل إنشـاء ثقافة عالمية جديدة.

إنها المعركة الأشـمل والأسـمى: معركة تتم في سـلام من أجل السـلام. معركة علمية سـلمية روحانية، معركة يكون فيها العلم وحب الخير والجدال الحسـن أسـلحتها الوحيـدة. وهل هناك سـلاح أقوى من العلـم؟ وهل هناك هدفٌ أعلى من السلام الروحاني للفرد والعالم أجمع؟ أو لم يكن هذا الهدف الحقيقي من الديانات جميعًا؟ أو ليس هذا هدفًا يستحق أن نحيا من أجله؟

نريد شـبكة عالمية من النشـطاء بغض النظر عن العـرق والجنس والدين، شـبكة تتخطـى حـدود الديانات لكـي نجتمع جميعًـا على كلمة سـواء حول الحـق، شـبكة يتواصل ويتّحد مـن خلالها الناس حول هدف واحد مشـترك: نشر المفاهيم العلمية الروحانية السليمة إرساءً لمجتمع روحاني علمي تقدمي يتخطى المفاهيم المادية والإلحادية، ويتخطى المجتمع المادي الاستهلاكي القائم اليوم!

مازالــت رحلة «العالم» من الإلحــاد إلى الإيمان في بدايتها، مازالت مجرد هدف يتطلب سنين طويلة وأجيالًا عديدة من الكفاح والعمل على نشر الحقائق العلمية التوحيدية، مازالت هدفًا يتطلب أجيالًا كثيرة وشبكة عالمية من النشطاء المهتمين المتفانين في تأسيس ثقافة علمية روحانية عالمية جديدة.

هكذا أختم هذا الكتاب بدعوة لكل قارئ لهذا الكتاب في أن يصبح شريكًا لي في نشــر مضمونه من العلم النافع للإنســانية، دعوة إلــى تحويل هذا العلم إلى حركة وثقافة عالمية؛ من أجل غدٍ أفضل لنا ولأبنائنا بدلًا من الهاوية التي تنتظرنا وتنتظرهم. هذا الكتاب رســالة حياة لكل من يريد أن يجعل منه رسالة حياة، فالعلم ليس حكرًا على أحد.

وإنــي لأقبــل في ذلك وبكل ســرور جميــع أوجه التعاون، كمــا أقبل -من خــلال موقــع الكتاب على الإنترنت- جميع الأســئلة والمناقشــات ودعوات الندوات والمحاضرات والمناظرات.

فلنتواصل ولنتعاون على نشر الحقيقة على العالم:

الموقع الإلكتروني: www.mohamedelhelw.com

الموقع الإلكتروني: www.elhad-wa-iman.com

البريد الإلكتروني: helw.mohamed@gmail.com

ولنتذّكــر دومًا أننا دائمًا على أبواب عصر جديــد بفضل تقدم العلم! لنتذكر حقَّ كلٍّ منَّا وقدرَة كلٍّ منا بل ومسـئولية كلٍّ منا في المشــاركة في توجيه مســار التاريخ! لنتذكر دومًا أن الذين أثّروا على مسار التاريخ من قبلنا كانوا أناسًا مثلنا! لنتذكر أننا لسنا أقل ممن أثّروا على مساره قبلنا! لنتذكر دومًا قول الشاعر:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائم — وتأتي على قــدرِ الكرامِ المكارم
وتكبر في عينِ الصغيرِ صغـارها — وتصغر في عينِ العظيمِ العظائم

***

المراجع

1. Halliday, David. "Fundamentals of Physics". John Wiley, 2005.

2. Einstein, Albert. "The Principles of Relativity". Dover, Toronto, 1952.

3. Feynman, Richard. "Quantum Electro Dynamics: The Strange Theory of Light and Matter". Princeton science Library, Princeton, 2014.

4. Feynman, Richard. "Six Easy Pieces: Fundamental of Physics Explained By Its Most Brilliant Teacher". Basic Books, 2001.

5. Allday, Jonathan. "Quarks, Leptons and the Big Bang". Taylor & Francis, London, 2001.

6. Delsemme, Armand. "Our Cosmic Origins: from the Big Bang to the emergence of Life and intelligence". Cambridge University Press, Cambridge, 1998.

7. Bruer, Reinhard. "Contact with the Stars". W.H. Freeman & Co Limited, Oxford and San Francisco, 1982.

8. Lunine, Jonathan I. “Earth: evolution of a habitable world”. Cambridge University Press, 1999.

9. Phillips, R.J., and Hansen, V.L. 1994. Tectonic and magnetic evolution of Venus. Annual Review of Earth and Planetary Sciences 22, 597-654.

10.Timberlake, Karen. "Chemistry: An Introduction to General, Organic, and Biological Chemistry". Pearson, 2003.

11. Purves, William K.; Orians, Gordon H.; Heller, H. Craig; “Life the science of biology,” Fourth and Sixth edition. Sinauer Associates, Inc.; W.H. Freeman and Co. 1995-2000.

12. Bowler, Peter J. 1983. “Evolution: the history of an idea”; Revised Ed. University of California Press, Los Angles,, 1989.

13. Darwin, Charles. “On the Origin of Species by Means of Natural Selection, or Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life”. Murray, London, 1859.

14. Dobzhansky, Theodosius. 1937. “Genetics and the Origin of Species”. Reprinted Ed., 1982. Columbia University Press, New York.

15. Eldredge, Niles. “Macro-Evolutionary Dynamics: Species, Niches, and Adaptive Peaks”. McGraw Hill Publishing Company, New York, 1989.

16. Mayr, Ernest. 2001. “What Evolution Is”. Reprinted Ed., 2002. Phoenix, London.

17. Gould, Stephan Jay. 2002. “The structure of Evolutionary Theory”. Fifth printing, 2002. The Belknap Press of Harvard University Press, Cambridge.

18. Gould & Eldredge. “Punctuated Equilibria: The Tempo and Mode of Evolution Reconsidered”. Paleobiology 3 (1977): 115-151.

19. Newman, C.M., J.E. Cohen, and C. Kipnis. 1985. Neo-Darwinian evolution implies punctuated equilibria. Nature 315: 400-401.

20. Kitts, David B. “Palaeontology and evolutionary theory”, Evolution 28 (1974): 458-472.

21. Raup, David M. “Conflicts between Darwin and Palaeontology”, Field Museum of Natural History Bulletin 50, n.1 (January 1979): 22-29.

22. Encyclopaedia Britannica.

23. Sheldon, Wilmon H. “Process and Polarity”. Colombia university press, New York, 1994.

24. Andersen, Svend (Editor). “Evolution and Creation”. Aarhus University Press, Aarhus, Denmark, 1987.

25. Esler, Philip F. “The Early Christian World”. Routledge, London, 2000.

26. Harnack, Adolph. “History of Dogma”. Williams and Norgate, London, 1897.

27. Ehrman, Bart D. “The New Testament: A Historical Introduction to Early Christian Writings”. New York: Oxford University Press, 1997.

28. Goehring, James E. “Gospel Origins & Christian Beginnings”. Polebridge Press, California, 1990.

29. Capra, Fritjof. "The Tao of Physics: An Exploration of the Parallels between Modern Physics and Eastern Mysticism". Shambhala Publications, Boston, 1975.

30. Sommer, Deborah. "Chinese Religion: An Anthology of Sources". Oxford University Press, New York, 1995.

31. Gethin, Rupert. "The Foundations of Buddhism". Oxford University Press, New York, 1998.

32. Armstrong, Karen. "A History of God". Ballantine Books, 1993.

33. Turian, Gilbert. "Polarity From Electromagnetic Origins to Biological Takeover". University of Geneva, 1994.

24. Renou, Lewis. "Library of World Religions". Konecky & Konecky, 2007.

35. عباس محمود العقاد، «الإنسان في القرآن»، دار نهضة مصر، 1961.

36. التوراة.

37. الكتاب المقدس.

38. القرآن.

***

فهرس

***